كلاسيكيات جدل
JADAL CLASSICS

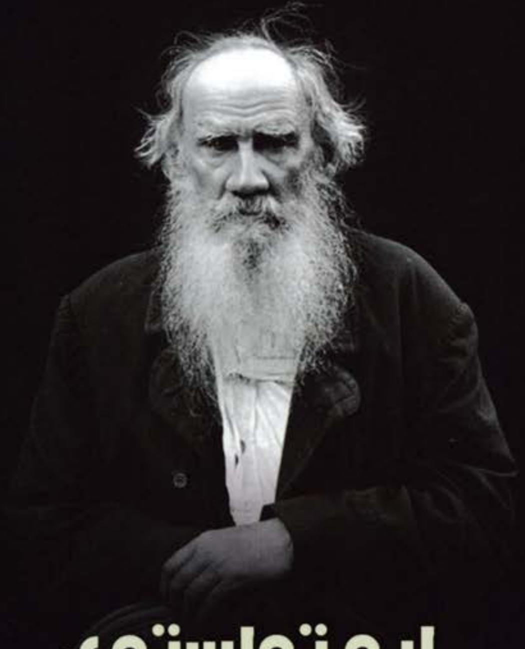

ليو تولستوي

ماذا علينا أن نفعل ؟

ترجمة
محمود إبراهيم الحسن

مكتبة 1286

منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

ماذا علينا أن نفعل ؟

مكتبة | 1286

ماذا علينا أن نفعل ؟

ليو تولستوي

ترجمة: محمود إبراهيم الحسن

العنوان الأصلي باللغة الروسية

Так что же нам делать?

Лев Николаевич Толстой

1886

الطبعة الأولى: أغسطس 2022م

ISBN: 978-9921-774-68-9

مكتبة

t.me/soramnqraa

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية

(+965) 99900912
(+966) 554658820
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE

J A D A L

ليو تولستوي

مكتبة | 1286

أدب اجتماعي

ماذا علينا أن نفعل؟

ترجمة

محمود إبراهيم الحسن

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة

أقدّم إلى القارئ العربي الترجمة الأولى لكتاب تولستوي (ماذا علينا أن نفعل؟)، وهو أحد الكتب الفكرية المهمّة لتولستوي. قرّر تولستوي أن يشارك في الإحصاء السكاني لمدينة موسكو، الذي جرى عام 1882، لكي يعاين عن كثب الفقرَ في موسكو، ويقارنه بالفقر في الأرياف. اقترح تولستوي، في مقالٍ ألقاه أمام مجلس الدوما في موسكو، قُبيل بدء عملية الإحصاء السكاني، أن يكون الإحصاء السكاني مرتبطًاً بوصف الفقر في موسكو، واقترح حلولاً لمساعدة الفقراء.

كان تولستوي يسجل أسماء المحتاجين، ويدوّن ملاحظاته حول المساعدات التي يمكن تقديمها لهم، لكي يعود إليهم في ما بعد. وصف تولستوي فظاعة الفقر في المدن، والمسافة الشاسعة التي تفصل بين الفقراء والأغنياء هناك. لم يُعفِ نفسه من المسؤولية، ووصف للقارئ شعورَه بالذنب حول حياة الرفاهية التي كان يعيشها. وأكّد دائماً أنّ الرفاهية المفرطة والفقر المدقع مرتبطان، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ حيث وصل إلى نتيجة مفادها أنّ «ثروتنا» هي أساس الفقر. يرى أنّ المال أصل الشرور، وأنّ هناك جانباً غيرَ أخلاقي في امتلاكه؛ «المال هو شكلٌ جديدٌ من أشكال العبودية».

شعر تولستوي بخيبة أمل كبيرة بعد أن فشل مشروعه في مساعدة الفقراء؛ حيث أدهشته اللامبالاة التي أبداها الأثرياء، الذين طرح عليهم المشاركة في مشروعه لمساعدة الفقراء، حول تعاسة الفقراء. يوضح أسباب فشله في مساعدة البؤساء؛ حيث وضع شرطًاً لازماً لمن يريد أن يفعل الخير، وهو أن يقف خارج دائرة الشر أولاً. من يريد مساعدة الفقراء عليه أن يتوقف عن

عادة الاستيقاظ المتأخّر في منتصف النهار، بعد ليلةٍ قضاها في اللهو واللعب، ثمّ يأتي لمساعدة من يستيقظون قبل شروق الشمس، ويزرعون ويحرثون ويحصدون ويخيطون. يصف شعوره بالخزي عندما يقابل هؤلاء الذين يزعم أنه ذهب لمساعدتهم.

عاد تولستوي إلى قريته «ياسنايا بولانيا» يائساً محبطاً، وكان يؤلمه دائماً السؤال: ماذا يجب علينا أن نفعل؟ أي كيف نتخلَّص من نمط حياتنا الخاملة، ونغيّر موقفنا الأخلاقي تجاه الفقراء (إخوتنا).

يرى تولستوي أنّ القانون الطبيعي، الذي يجب أن تسير الحياة وفقاً له، هو أنّ الإنسان يجب أن يعمل لخيره ولخير الآخرين، وأن يعطي أكثر مما يأخذ، فعندما يلتزم بهذا القانون، سيحيا حياةً سعيدة حتماً. لكنّ ثمّة أناساً يحرّرون أنفسهم من العمل مستعينين بالقوة التي يمتلكونها، ويستغلون عمل الآخرين، وهم مثل النحلات السارقة، التي تتسبّب في موت النحلات الباقيات وهي تسعى وراء مصالحها الشخصية.

يوجّه تولستوي في الفصل الأخير نداءَه إلى النساء، ويدعوهنّ إلى الالتزام بوظيفتهنّ الأساسية في الحياة، وهي إنجاب الأطفال وإعدادهم لكي يكونوا مؤثرين في المستقبل؛ حيث تقع على عاتقهنّ، في المقام الأول، مسؤولية بناء مجتمع سليم.

الإجابة باختصار عن سؤال: ما العمل؟ أو ماذا يجب علينا أن نفعل؟ تكمن في توقّفنا عن خداع وتضليل أنفسنا، وفي اعترافنا بالحقيقة مهما كانت قاسية ومؤلمة. ثمّ ننطلق إلى «العمل»، إلى واجبنا الأساسي الذي يضمن لنا سعادتنا.

المُؤلَّف مُقسّمٌ إلى أربعين فصلاً، وقد اجتهدتُ في عنونة كلّ فصلٍ على حدة، لعلّني أستطيع أن أسهّل على القارئ ترتيب وفهرسة الأفكار التي أوردها الكاتب.

محمود إبراهيم الحسن

إهداء الترجمة

إلى إبراهيم، أبي...

المبتسم دائماً..

أهدي هذا الجهد

محمود

ماذا علينا أن نفعل ؟!

وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعطِ من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا.

إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث 01-11

لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض؛ حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقّب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء؛ حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقّب سارقون ولا يسرقون؛ لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً.

سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينُك بسيطة فجسدك كلّه يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً، فإن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كيف يكون.

لا يقدر أحدٌ على أن يخدم سيدين؛ لأنه إمّا أن يبغض الواحد ويحبّ الآخر، وإما أن يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون على أن تخدموا الله والمال؛ لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس.

فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس، فإنّ هذه كلّها تطلبها الأمم؛ لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلّها تُزَاد لكم، فلا تهتموا للغد؛ لأن الغد يهتم بما هو لنفسه. يكفي اليوم شره.

إنجيل متى، الإصحاح السادس (52-13، 13-43).

لأنَ دخول جملٍ من ثقب إبرة أيسرُ من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله.

إنجيل متى، الإصحاح التاسع عشر، 42. إنجيل لوقا، الإصحاح الثامن عشر، 52.

إنجيل مرقس، الإصحاح العاشر، 52

الفقر في موسكو

بعد أن عشتُ الجزء الأكبر من حياتي في الريف، انتقلت في عام 1881 للإقامة في موسكو، وأدهشني فيها «فقر المدن». أعرف الفقر في الأرياف جيداً، لكنّ فقر المدن كان جديداً عليّ وغير مفهوم. لا يمكنك أن تعبر أيّ شارع في موسكو من دون أن ترى المتسولين. هم متسولون من نوع خاص، ولا يشبهون أولئك المتسولين في القرى البعيدة. متسولون، لكنّهم لا يحملون أكياساً في أيديهم، ولا يتسوّلون باسم المسيح، كما يفعل المتسوّلون القرويون. لا تعرف المتسولين في موسكو من الأكياس التي يحملونها، ولا يطلبون منك أن تتصدّق عليهم. غالباً، يحاولون لفت انتباهك، وترتبط ردّة فعلهم بتعابير وجهك؛ فإن أعرتهم انتباهك سألوك، وإن أهملتهم فإنهم يكملون طريقهم، وكأنّ شيئاً لم يكن. أعرف أحد هؤلاء المتسولين، وهو من النبلاء. عجوزٌ يمشي ببطء، ويعرج بكلتا قدميه. عندما يقابلك، يعرج وينحني أمامك. إن توقفت فسوف يخلع قبعته، وينحني لك، ويطلب منك أن تعطيه، وإن أهملته وتابعت السير فإنه سيتظاهر وكأنه الوحيد الذي يؤدي مثل هذه الحركات، ويتابع طريقه. هذا هو المتسول الحقيقي في موسكو؛ إنه متسول متمرس وخبير. لم أفهم في البداية لمَ لا يطلب منك المتسولون بطريقة مباشرة، لكنني عرفت السبب فيما بعد، ولم أفهمه.

في أحد الأيام، عندما كنت أسير في زقاق «أفاناسيفسكي»، رأيت شرطياً ينقل رجلاً مصاباً بالوذمة[1] في عربة، فسألته:

- لماذا تريد أن تحتجزه؟ فقال الشرطي:

- لأنه متسول.

- وهل التسول ممنوع؟

- أصبح ممنوعاً.

وبينما نقلوا المريض، الذي يعاني من الوذمة، في عربة، استأجرتُ عربةً، وانطلقت خلفهم. أردتُ أن يتأكّد لدي؛ هل التسول ممنوعٌ حقاً في موسكو؟ لم أستطع فهم سبب منع شخصٍ ما من طلب شيء آخر، بالإضافة إلى ذلك، إنني لم أصدق أن التسول ممنوع في مدينة تعجّ بالمتسولين مثل موسكو.

دخلت إلى قسم الشرطة، الذي نقلوا إليه المتسول. رأيت هناك رجلاً يجلس خلف الطاولة، وهو يحمل سيفاً ومسدساً، فسألته:

- لماذا جئتم بهذا الرجل إلى هنا؟

رمقني الرجل، صاحب السيف والمسدس، بنظرةٍ حادة، وقال:

- وما شأنك أنت؟

لكنّه شعر بضرورة أن يشرح لي الأمر.

أضاف قائلاً: «أصبح التسول ممنوعاً».

رأيت، وأنا أخرج، الشرطيَّ الذي جلب المتسول؛ كان يجلس عند حافة النافذة، وهو يتصفّح بأسفٍ السجلَ الذي بين يديه. بادرته بالسؤال:

- هل صحيح أن التسول باسم المسيح ممنوع؟

1 الوذمة هي تورم ناتج عن احتباس السوائل في أنسجة الجسم.

بدا الشرطي وكأنه يستيقظ من نومه. نظر إليّ بتجهّم، ثمّ بدا عليه النعاس مجدداً. جلس عند حافة النافذة، وقال:

- ترى الإدارة أنه ممنوع؛ فإذاً ممنوع. انشغل الشرطي مجدداً بالسجل.

عدت إلى العربة، فسألني الحوذي:

- ما الذي حدث؟ هل احتجزوه؟

يبدو أن هذا الأمر شغل الحوذي أيضاً. أجبته:

- نعم.

هزّ الحوذي رأسه. سألته:

- كيف يكون التسول باسم المسيح ممنوعاً عندكم في موسكو؟

فأجاب:

- لا أعلم شيئاً عن الأمر.

- كيف يحدث هذا؟ كيف يحتجزون المتسولين باسم المسيح؟

- تغيّرت الأمور الآن. يبدو أنه ممنوع.

تكرر بعد ذلك أمامي مشهد الشرطة وهم يسوقون المتسوّلين إلى دار العمل[1] في «ايسوبوف». رأيت في أحد الأيام مجموعةً من المتسولين، نحو ثلاثين شخصاً، والشرطة يسيرون أمامهم وخلفهم، وعندما سألت عن سبب سوقهم أجاب الشرطة: لأنهم يتسولون.

اتضح أنه، وفقاً للقانون في موسكو، يُمنع طلب الصدقات على جميع المتسولين الذين تصادف عدداً منهم في كلّ شارع، وتراهم في تجمعات كبيرة في أيام الخدمة والأعياد بالقرب من الكنائس.

---

1 هي مؤسسات إصلاحية تهدف إلى توفير فرص عمل للمتسولين، وإجبارهم على العمل، وترك التسول.

ما لم أستطع فهمه هو لماذا يقبضون على بعضهم، ويتركون آخرين؟ أَهناك بينهم متسولون قانونيون وآخرون مخالفون، أم عددهم كبير إلى درجة أن الشرطة لا يمكنها القبض عليهم جميعاً، أم الأمر أنهم يمسكون المتسولين، فيظهر متسولون جدد؟

هناك أنواع كثيرة للمتسولين في موسكو: منهم من يتخذ التسول مهنةً لكسب المال، ومنهم من وجد نفسه، لسببٍ ما، في موسكو، وهو في أمس الحاجة إلى المال حقاً، وهؤلاء هم المتسولون الحقيقيون.

هناك رجال ونساء بسطاء، بين هؤلاء المتسولين، يرتدون ملابس ريفية. رأيت الكثير منهم. بعضهم الآخر جاؤوا إلى موسكو للعلاج، وعندما خرجوا من المستشفى وجدوا أنفسهم مجبرين على التسول لكي يسكتوا جوعهم. بعضهم، بالإضافة إلى ذلك، تاهوا في الشوارع (لعل ذلك الرجل المصاب بالوذمة من بينهم). البعض الآخر ليسوا مرضى، لكنّ منازلهم احترقت، أو هم كبار في السن، أو نساء لديهنّ أطفال ولا معيلين لهنّ. أما النوع الأخير منهم فكانوا بكامل صحتهم، ومؤهلين للعمل. أكثر من أثار انتباهي هم أولئك الرجال الذي يستجدون الصدقات، وهم بكامل قوتهم وصحتهم. شُغلت بهؤلاء الرجال القادرين على العمل بعد قدومي إلى موسكو، وبعد أن اعتدت الذهاب في نزهة مع العمل إلى تلال «فوروبيفا»، مع رجلين كانا يجمعان الحطب. الرجلان كانا مثل هؤلاء المتسولين الذين رأيتهم في الشوارع؛ الأول اسمه بيتر، وهو جندي من «كالوجا»، والآخر سيميون، وهو فلاح من «فلاديمير». لم يملكا شيئاً إلا الملابس التي تستر جسديهما وأيديهما التي كسبوا بها، من خلال عمل شاقٍ، أربعين إلى خمسين كوبيكاً في اليوم، ووفرا من خلال هذه النقود القليلة. بيتر ادّخر من أجرته ليشتري معطفاً. أما سيميون فكانت غايته تجميع مصروف عودته إلى قريته؛ لذا، عندما رأيت مثل هؤلاء الرجال في الشوارع، انشغلت بأمرهم.

لماذا يعمل هذان الرجلان، بينما يتسول الآخرون؟

عندما قابلت مثل هؤلاء، كنت دائماً أتساءل عن السبب الذي أوصلهم إلى مثل هذا الحال. قابلت رجلاً صحيح الجسم، والشيب في ذقنه. كان يسأل الناس، وعندما سألته عن وضعه ومن أين أتى، قال لي إنه جاء من مدينة كالوجا بحثاً عن عمل. في البداية وجد عملاً في تقطيع الأشجار القديمة، وعندما انتهى هو ورفيقه من عملهما عند أحد الملّاكين، راحا يبحثان عن عمل آخر، لكنّهما لم يجدا، وتركه زميله، وصرف كلّ ما يملك لشراء الطعام والشراب، ولم يعد لديه ما يشتري به منشاراً أو ساطوراً. أعطيته نقوداً لشراء منشار، وأرشدته إلى المكان الذي يجد فيه عملاً عند بيتر وسيميون؛ حيث حدثتهما مسبقاً عن قدومه لكي يجدا له عملاً.

- اذهب إلى هناك؛ حيث ستجد الكثير من العمل في انتظارك.

- سأذهب. هذا مؤكّد. هل تظنّ أنّني أستمتع بالتسكّع والتسوّل، وأنا قادر على العمل.

يُقسِم الرجل إنّه سيلتحق بالعمل، ولم يخطر لي أبداً أنه يخادعني، بل ظننت أنّ لديه نيةً جدية لأن يعمل.

ذهبت، في اليوم التالي، إلى بيتر وسيميون، وسألتهما عن ذلك الرجل. لم يأتِ. لقد خدعني الكثير من الأشخاص. خدعني أولئك الذين ادّعوا أنهم بحاجة إلى ثمن بطاقة العودة إلى مناطقهم، ورأيتهم مرة أخرى، بعد أسبوع، في الشارع، وهم يسألون المارة. عرفت الكثير منهم وعرفوني، لكنّ بعضهم، ممن لم يتذكروني، عاودوا خداعي، وطلبوا مني المساعدة من جديد، وأحياناً كانوا يبتعدون عندما يتعرّفون إليّ.

صحيح أنّ بين هؤلاء الكثير من المخادعين، لكنّهم كانوا مثيرين للشفقة: كانوا شبه عراة، وفقراء، وأجسامهم هزيلة، ومرضى. كان هؤلاء يتجمدون من البرد، وهم أولئك الذين يشنقون أنفسهم هرباً من هذه الحياة، ونكتب عنهم في الصحف.

الفقر في سوق خيتروف

عندما تحدثت مع سكان موسكو حول الفقر المدقع في المدن، ردّوا عليّ دائماً بالقول: «أووه. أنت لم ترَ شيئاً. اذهب إلى سوق «خيتروف»، وسوف تشاهد هناك الملاجئ الكثيرة، وتتعرّف إلى «الفرقة الذهبية» الأصلية. أحدهم قال لي مازحاً إن الفقراء لم يعودوا يشكلون سريّة، بل فوجاً ذهبياً نظراً إلى أعدادهم الكبيرة. كان ذلك الرجل محقاً، ولو أنّه قال إنهم أصبحوا يشكّلون جيشاً كاملاً لكان محقاً أكثر. إنّ أعدادهم تُقدّر بنحو خمسين ألف شخص.

رأيت شعور الرضا والارتياح عند السكان الأصليين في موسكو، وهم يحدثونني، بكل فخر، عن الفقر في مدينتهم، وأذكر، عندما كنت في لندن[1]، أنّ سكانها الأصليين شعروا بالفخر وهم يحدّثونني عن الفقر اللندني، كما لو أنّه إنجاز يمكن أن يفتخروا به.

قرّرت أن أرى الفقر، الذي حدثوني عنه، على حقيقته. ذهبت عدة مرات إلى سوق خيتروف، لكنني شعرت، في كل مرة، بالفظاعة وبتأنيب الضمير. صوتٌ ما يعاتبني من الداخل: «لماذا تذهب إلى هناك؛ لرؤية مآسي الناس الذين لا تستطيع مساعدتهم؟». بينما يرد عليه صوت آخر: «إذا كنت تعيش هنا، وترى ملذات الحياة في المدينة، فعليك أن تذهب إلى هناك لترى الفقر أيضاً».

1 ذهب تولستوي إلى لندن للقاء ألكسندر هيرزن (1812 - 1870)، وهو كاتب ومفكر روسي ذو توجه غربي عُرِف بأبي الاشتراكية الروسية، وأحد أهم رواد الشعوبية الزراعية. عُرِفَ بأنه المسؤول عن إنشاء مناخ سياسي ملائم لتحرر الأقنان في 1861.

وفعلاً ذهبت في شهر كانون الأول/ديسمبر من عام 1881، في يوم بارد هبّت فيه رياح قوية؛ ذهبت إلى مركز الفقر في موسكو، إلى سوق خيتروف. ذهبت في أحد أيام العمل، نحو الساعة الرابعة عصراً. كلما تجولت في السوق لاحظت أكثر وأكثر رجالاً ونساءً يرتدون ملابس غريبة لا تليق بهم، وكانت أحذيتهم أكثر غرابة، وعبّرت وجوههم عن أمراضهم، والأهم من كل هذا أنهم لم يكونوا مبالين بكل ما يحيط بهم.

كان الناس يسيرون بملابسهم الغريبة وغير المتناسقة، وبدا واضحاً أنهم لم يكونوا مهتمين بتاتاً بالطريقة التي ينظر بها الآخرون إليهم. كانوا يسيرون باتجاه واحد. لم أسأل عن الطريق الذي لم أكن أعرفه. ذهبت خلفهم، ووجدت نفسي في وسط سوق خيتروف. رأيت نساءً تسترهنّ ثياب رثة؛ معاطف وبلوزات ممزقة، وأحذية عتيقة، وما أدهشني أنهنَ يتصرفنَ بكلّ حرية، ودون أيّ شعور بالحرج من رداءة ملابسهنّ. يتحدثنَ، ويتبادلنَ بيع بعض الأشياء، ويتشاجرنَ.

كان هناك عدد قليل من الناس في السوق، الذي بدا أنه سيُغلق قريباً؛ حيث خرجت جموع الناس من وسط السوق وأطرافه باتجاه واحد نحو التلة. تبعتهم، وكلما تقدمت أكثر ازداد عدد المارة في ذلك الطريق. كانت هناك امرأتان؛ واحدة مسنة والأخرى شابة، تسيران أمامي، وترتديان ثياباً رمادية بالية، وكانتا تتحدّثان عن شيء ما. لاحظت أنّ هناك كلماتٍ كثيرة دخيلة وغير ضرورية في حوارهما، وهي أكثر الكلمات بذاءة. لم تكونا مخمورتين، وإنّما شُغلتا بأمر ما، ولم يُعِر الرجال، الذين قابلوهما أو ساروا خلفهما أو أمامهما، أيّ انتباه إلى حديثهما الغريب.

يبدو أن الجميع هناك كانوا يتحدثون بعضهم مع بعض بهذه الطريقة. على اليسار كانت هناك مهاجع خاصة اتجه نحوها بعضهم، بينما تابع آخرون السير إلى الأمام. صعدنا إلى الجبل حتى وصلنا إلى مبنى كبير في

الزاوية. توقف الكثير من الناس، الذين كانوا يسيرون معي، عند هذا المبنى: توقفوا على الرصيف فوق الثلج. اصطفت النساء على الطرف الأيمن من المدخل، بينما وقف الرجال في الجهة اليسرى. تجاوزتُ الرجال والنساء (قدّرتُ عددهم ببضع مئات)، ووقفتُ في النقطة التي تنتهي فيها تجمعاتهم. كان المبنى، الذي انتظروا أمامه، عبارة عن مأوى ليلي، وقد اصطفّوا أمامه ينتظرون السماح لهم بالدخول. يُسمح لهم بالدخول في الساعة الخامسة مساءً. دخل أغلب الأشخاص الذين تبعتهم إلى ذلك الملجأ.

توقفت في آخر صفّ الرجال. حدّق فيّ القريبون مني، ونظروا إليّ بدهشة. كانت بقايا الألبسة التي تستر أجسادهم مختلفة، لكنّ نظراتهم إليّ كانت متشابهة. قرأت السؤال التالي في كلّ الوجوه: ما الذي أوقفك هنا، أيها الرجل القادم من عالم آخر، معنا؟ من أنت؟ أأنت رجل ثريّ جاء ليمتّع نظره ويسلّي نفسه بحاجتنا ومآسينا، أم أنك شخص استثنائي لا وجود له في الواقع حقاً؛ شخص أشفق علينا؟ كان هذا السؤال في كلّ الوجوه حولي. ينظر أحدهم نحوي، وتلتقي عيناي بعينيه، ثم يعود بنظره.

أردت أن أتحدث مع أيّ واحد منهم، واستغرق هذا وقتاً حتى امتلكت الشجاعة للقيام بذلك. قربتنا النظرات بعضنا من بعض ونحن صامتون. إذا أهملنا تقسيمات الحياة الاجتماعية، التي أبعدتنا بعضنا عن بعض؛ فإننا، بعد تبادل النظرات لثلاث أو أربع مرات، شعرنا بأننا جميعاً أناسٌ متشابهون، وتوقفنا عن الخوف بعضنا من بعض. كان الأقرب إليّ، رجل ذو لحية حمراء ووجه منتفخ، كان يرتدي قفطاناً ممزقاً وحذاءً بالياً في قدميه العاريتين. كانت الحرارة 8 درجات تحت الصفر. شعرت، في المرة الثالثة أو الرابعة، وأنا أنظر إليه، بالقرب الشديد منه. لم يكن مخجلاً التحدث معه، بل المخجل ألا أتحدث معه. سألته من أين هو، وأجاب بكل محبة، وهذا ما فتح الباب أمام آخرين لكي يقتربوا. كان من «سمولنك»، وجاء للبحث عن عمل من

أجل الخبز ودفع الأتاوى. يقول: «لم أجد عملاً. لقد سيطر العسكر على كلّ شيء، وكما تراني، أتخبط هنا. صدّقني: لم أتناول أي طعام منذ يومين». قال هذه الكلمات بخجل، وهو يحاول أن يبتسم. كان بائع شراب السبيتين[1]، وهو جندي سابق، واقفاً هناك. ناديته، وسكب كأساً من السبيتين. أخذ الرجلُ الكأس الساخن، وراح يدفئ يديه به. لم يفوت هذه الفرصة لكي يشعر بالقليل من الدفء في يديه.

تتشابه مغامرات هؤلاء الأشخاص كثيراً في تفاصيلها. كان لديه عمل ثم فقده، وهنا في الملجأ سُرقت محفظته وجواز سفره ونقوده مع تذكرة العودة إلى بلدته، ولا يمكنه مغادرة موسكو. حكى لي أنه يطوف على الحانات خلال النهار، ويسألهم بعض الطعام؛ أحياناً يطعمونه قطعة خبز متعفنة، وأحياناً يطردونه، ويبيت هنا في هذا المأوى المجاني. إنه ينتظر أن يقبض عليه رجال الشرطة، ويرسلوه إلى بلده لأنّه لا يمتلك جواز سفر. «سمعت أنّ هناك جولة تفتيشية للشرطة يوم الخميس القادم. أنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر». (يمثل الاعتقال والترحيل أقصى أمنياته). وبينما هو يتحدث، أيّد ثلاثة من الرجال كلامه، وقالوا إنّهم يعانون من المشاكل نفسها التي يعانيها.

شاب صغير نحيل، أشقر، وذو أنف طويل، يرتدي قميصاً ممزقاً عند كتفيه، ويضع قبعة ممزقة، ويتقدّم نحوي من بين الجموع. كان يرتجف بلا توقف، لكنَه حاول الابتسام بسخرية من حديث الرجال القرويين محاولاً إظهار ذكائه، وراح ينظر إليّ. طلبت له كأساً من السبيتين، فأمسك به، وراح يدفئ به يديه أيضاً، وما إن بدأ الحديث حتى دفعه جانباً رجل أسود ذو أنف معقوف يرتدي قميصاً متعدد الألوان وصدرية من دون قبعة، ثمّ جاء عجوز طويل، ذو لحية اسفينية، وهو يرتدي معطفاً وحبلاً حول خصره. كان مخموراً. اقترب بعد ذلك شاب صغير ذو عينين دامعتين، وهو يرتدي سترة

---

1 مشروب ساخن مخمر من العسل والتوابل، وهو مشروب روسي قديم.

بنية ممزقة، وتظهر ركبتاه من فتحات السروال الصيفي الممزّق الذي يرتديه، وهما تتلامسان من شدة البرد. لم يستطع الإمساك بالكأس بسبب رجفته، فسكبه على ملابسه. ثم جاء رجل ذو وجه قبيح مدور، يرتدي ثياباً رثة وحذاءً ممزقاً يظهر قدميه العاريتين، ثمّ جاء رجل يبدو كضابط قديم، وآخر مثل رجل دين، ثمّ طلب منّي الجميع أن أحضر لهم شراب السبيتين ففعلت. شربوا السبيتين. طلب أحدهم نقوداً فأعطيته. طلب آخر، وثالث، ثم تجمعوا حولي كلهم. حدثت بلبلة وازدحام. أمر بواب المبنى المجاور أن ينظفوا الرصيف ففعلوا ما أمرهم به. جاء بعضهم، وأرادوا إخراجي من وسط الزحام، لكنّ الجموع، التي امتدّت على طول الرصيف، تمسكوا وتشبثوا بي. كلّهم من دون استثناء كانوا ينظرون إليّ، وكان وجه كلّ منهم مفجوعاً ومتألماً ومثيراً للشفقة أكثر من الآخر. وزعت كلّ النقود التي كانت في حوزتي. لم أكن أحمل معي الكثير من النقود؛ ما يقارب عشرين روبلاً فقط، ودخلت بعد ذلك معهم إلى الملجأ الليلي.

كان الملجأ الليلي كبيراً للغاية؛ يتألّف من أربعة أقسام. الرجال في الأدوار العلوية، والنساء في الأسفل. دخلت في البداية إلى قسم النساء؛ حيث غرفة كبيرة مليئة بالأسرّة الموضوعة بعضها فوق بعض مثل أسرّة الدرجة الثالثة في القطارات. وضعت الأسرة في ثلاثة أدوار بعضها فوق بعض. النساء غريبات الملامح. يرتدين أسمالاً ومعاطف بالية. مسنّات وشابات توزّعن في أماكنهنّ. بعضٌ منهن كنّ يصلّين من أجل من شيّد هذا المبنى، بينما تبادلت أخريات المزاح، وتشاجرن أحياناً. صعدت إلى الأعلى؛ حيث توزع الرجال هناك. رأيت بينهم أحد هؤلاء الذين أعطيتهم نقوداً. شعرت بالخجل الشديد عندما رأيته، وخرجت بسرعة من ذلك المأوى، وعدت إلى البيت، وأنا أشعر بأني ارتكبت جريمة فظيعة. في البيت، صعدت إلى الدور العلوي فوق الدرج المغطى بالسجاد، وجلست على الأرضية المنجّدة بالجوخ. خلعت معطفي،

وبدأت تناول العشاء المؤلّف من خمسة أطباق، والذي أعدّه خادمان يرتديان ثياباً بيضاء نظيفة، ويضعان ربطتي عنق بيضاوين، وكفوفاً بيضاء في أيديهما.

رأيت في باريس، قبل ثلاثين عاماً، بحضور آلاف الأشخاص، كيف قطعوا رأس رجل بالمقصلة. عرفت أنّ ذلك الرجل قد ارتكب أبشع أنواع الجرائم، عرفت كلّ هذه النقاشات التي يكتبون عنها منذ قرون عديدة؛ لكي يبرروا هذه العقوبة. عرفت أنّهم نفّذوها وهم بكامل وعيهم، ولكن في تلك اللحظة، عندما انفصل الرأس عن الجسد، وسقطا في الصندوق، شعرت بالأسف والحسرة، وأدركت، ليس بعقلي وقلبي فحسب، بل بكل كياني، أن كل النقاشات التي سمعتها عن عقوبة الإعدام هي هراء وشر، وأنّ الناس إذا اجتمعوا على قتل شخص ما، مهما سمّوا أنفسهم، فإن القتل هو أبشع ذنب في العالم. إن هذا الذنب قد ارتُكِب أمام ناظري. ولمّا كنت أنا حاضراً، ولم أمانعهم، فإنني أعدُّ نفسي مؤيداً لهذا الفعل الشنيع، ومشتركاً في ارتكابه. كذلك عندما أرى ما يعاني منه آلاف الأشخاص بسبب الجوع والبرد والذل، أدرك، ليس بقلبي وعقلي فحسب، بل بكل كياني؛ أن وجود هؤلاء الآلاف من الناس في موسكو، وفي المقابل هناك الآلاف ممن هم مثلي يتناولون اللحوم كلّ يوم، ويضعون السجاد والجوخ على أرضيات بيوتهم، وحتى فوق ظهور خيولهم، هو جريمة كبيرة. ولو اجتمع كلّ علماء العالم لكي يثبتوا لي أنّ هذه الأشياء ضرورية لحياتي؛ فإنني لن أنظر إليها إلا كجريمة؛ جريمة ترتكب دائماً وباستمرار، وأنا لست متغاضياً عنها فحسب، بل مشارك أساسي فيها أيضاً. الفرق بين الحادثتين هو أنّ كلّ ما كان بإمكاني القيام به كردّ فعل على القتل هو أن أصرخ في وجه القتلة الذين كانوا يقفون بجانب المقصلة، وأقول لهم إنّ ما يفعلونه هو أعظم الشرور. وأن أحاول منعهم بكلّ الوسائل الممكنة، لكنّني عرفت في ما بعد أنني مهما فعلت فإنني لن أستطيع منع القتل. أما هنا فكان بإمكاني عمل أشياء أخرى غير تقديم شراب السبيتين وبعض النقود

التي كانت معي. كان بمقدوري أن أعطيهم معطفي، وكلّ ما لدي في البيت، ولكنّني لم أفعل ذلك، ولذا أنا شعرت وأشعر وسوف يبقى هذا الشعور ملازماً لي بأنّني مشارك دائم في هذه الجريمة، طالما بقي لديّ طعام زائد على حاجتي، والآخرون لا يجدون ما يسكت جوعهم، وطالما أنّ لدي ثوبين، وغيري لا يملك ما يستر جسده.

مواجهة الفقر

حدّثت أحد أصدقائي عن انطباعي عن ملجأ لبينسكي بعد عودتي منه في ذلك المساء. صديقي، وهو من سكان موسكو، راح يحدّثني، بكلّ رضا وقناعة، بأن هذا هو الوجه الحقيقي للمدن، وأنّني أرى فيه شيئاً لافتاً للنظر بسبب نظرتي القروية، وأنّ هذا الحال كان دائماً على هذا النحو، وسوف يبقى، ويجب أن يبقى؛ لأنّ هذا هو الشرط الأساسي للحضارة. الوضع في لندن كان أشدّ فظاعة. ليس هناك ما يدعو إلى الخجل بحسب زعمهم، ولا داعي للقلق أبداً. صرخت بشدة على صديقي إلى درجة أنّ زوجتي جاءت من الغرفة المجاورة لتعرف ما الذي حدث. يبدو أنني، لشدة غضبي وانفعالي، لم أنتبه إلى نفسي وأنا أصرخ بألم. كنت أردّد بغضب: «لا يمكن العيش على هذا النحو. هذا غير ممكن. مستحيل». وبّخوني بسبب غضبي «غير المبرر»، وقالوا إنني سريع الانفعال، ولا أجيد النقاش الهادئ، وأهمّ ما قالوه لي، وبقي عالقاً في ذهني، أنّ وجود مثل هؤلاء البؤساء لا يمكن أن يكون سبباً لتعكير صفو حياة المقربين مني.

كان عليّ أن أوافقهم الرأي. توقّفت عن الكلام، ولكن في أعماق قلبي شعرت بأنّني محق، ولم يرتح ضميري.

أصبحت حياة المدينة غريبة ومقيتة؛ حيث تغيّرت نظرتي نحو حياة الرفاهية التي تنعّمت بها في الماضي، وأصبحت تعذّبني. لم أستطع إيجاد أيّ مبرر لحياتي السابقة. لا أستطيع إلا أن أنظر بضجر وتأفّف من غرفة معيشتي أو غرف غيري، إلى موائدنا النظيفة، إلى العربة مع الحوذي المدرب جيداً، إلى الخيول

والمتاجر والمسارح وأماكن الترفيه. لم أستطع، وأنا أرى كل هذه الأشياء، أن أنسى الجوعَى المنكوبين المتجمدين من البرد في ملجأ لبينسكي. لم أستطعِ إنكار الفكرة التي تقول إنّ هذين الشيئين مرتبطان بعضهما ببعض، وإنّ كلاً منهما هو نتيجة للآخر. إن شعوري بالذنب، الذي لازمني منذ اللحظة الأولى هناك، بقي ملازماً لي، ولكن سرعان ما اختلط به شعور آخر، وحل مكانه وأخفاه.

عندما حدّثت أصدقائي المقربين ومعارفي عمّا رأيته في ملجأ لبينسكي، كانت آراؤهم مطابقةً لما قاله لي صديقي الأول، ولكنّهم عبروا عن تأييدهم لطيبتي ومشاعري النبيلة، ووفّروا لي الفرصة لكي أعتقد أنّ ما رأيته من مشاهد فظيعة في ذلك الملجأ أثّرت فيّ؛ لأنّني، ليف نيكولايفيتش، شخص طيب ومشاعري رقيقة. صدقت ما قالوه لي بكلّ سرور، ولم أستطع أن ألحظ أنّ مشاعر الذنب والندم، التي شعرت بها في البداية، تحولت إلى شعور بالرضا من طيبتي وبرغبتي في أن أعبّر عنها للآخرين.

بدا لي حينها أنّ الذنب ليس ذنبي أنا، وأنّ السبب ليس هو حياة البذخ التي أعيشها، بل السبب هو الشروط الضرورية للحياة. إنّ تغيير نمط حياتي لن يقضي على تلك المصيبة التي رأيت. عندما أغيّر حياتي، سوف أجلب السوء لنفسي وللمقربين مني فحسب، بينما ستبقى تلك المصائب على حالها.

أصبحت غايتي، إذاً، ليس تغيير حياتي، كما بدا لي في البداية، بل التأثير، قدرَ ما أستطيع وما أمتلك من سلطة، في تحسين الأوضاع المأساوية التي سبّبت لي الألم والعذاب. يتلخص الأمر كلّه في أنني إنسان طيّب ونبيل جداً، وأرغب في فعل الخير لمن حولي. بدأت التفكير في خطة إنشاء جمعية خيرية أستطيع أن أنفّذ فيها سعيي نحو الخير بشكل عملي. عندما كنت أفكر في الجمعية الخيرية، شعرت في أعماق قلبي، دائماً، بأنّ هذا ليس هو ما أنشده حقاً، ولكن كما يحدث عادة، إنّ نشاطي العقلي وخيالي أخفتا صوت ضميري الذي كان يعذبني. كان هناك إحصاء سكاني في ذلك الوقت، بدا

لي حينها فرصةً لتأسيس الجمعية الخيرية التي أردت أن تكون تجسيداً عملياً لمشاعري النبيلة. جمعت الكثير من المعلومات عن الجمعيات الخيرية الموجودة في موسكو، لكنّ نشاطها بدا لي خداعاً موجهاً بشكل خاطئ، ولا يمكن مقارنته بما سأقوم به. رأيت أنّ المهم إثارة شعور الشفقة عند الأغنياء تجاه فقراء المدينة، وجمع الأموال، وتجنيد الأشخاص الراغبين في المشاركة في هذا العمل، والتعرّف، خلال عملية الإحصاء السكاني، إلى أوكار الفقر، وإقامة علاقات قريبة مع الفقراء، والتعرّف إلى مشاكلهم واحتياجاتهم عن كثب، ومساعدتهم بالأموال وتوفير العمل والخروج من موسكو، وتشييد المدارس والدور الخاصة بالمسنين والمحتاجين.

اعتقدت، بالإضافة إلى ذلك، أنّ مجتمعاً ثابتاً سيشكّله المشاركون في عملية الإحصاء السكاني، وهذا المجتمع سيتمكّن، من خلال توزيع أعضائه في كل مناطق موسكو، من مراقبة حالات الفقر والعوز والفاقة، وسيعمل على مواجهة حدوثها وهي في بداياتها؛ أي سيعمل على الوقاية منها وليس على علاجها.

تخيلت أن يختفي المتسولون من الشوارع في المستقبل القريب، ولن يبقى محتاجون في المدينة، وأنني وغيري من الأغنياء سنجلس بكل سرور في منازلنا الفاخرة، نتناول الوجبات التي تضمّ خمسة أطباق، ونرتاد المسارح وأماكن الترفيه من دون حرج من رؤية تلك المآسي التي رأيتها في ملجأ لبينسكي.

بعد أن وضعت هذه الخطة، كتبت مقالاً[1] عنها، وقبل أن أرسله للطباعة، ذهبت إلى كلّ معارفي الذين توقّعت منهم التفاعل مع ما أنوي فعله. حدّثت كل الذين قابلتهم في ذلك اليوم (تحدثت بشكل خاص إلى الأغنياء منهم)،

1 هو مقال (حول الإحصاء السكاني في موسكو) كتبه تولستوي في 20 كانون الثاني/يناير 1881.

وأعدت لهم ما كتبته في المقال. اقترحت عليهم أن نستفيد من فرصة الإحصاء السكاني لكي نتعرّف إلى حجم الفقر في موسكو، وأن نقدّم المساعدة بالمال والعمل لكي تختفي هذه الظاهرة في موسكو، وأن نتمتّع -نحن الأغنياء- بملذات الحياة، وضمائرنا مرتاحة.

أنصت إليّ الجميع باهتمام وجدية، لكنّهم جميعاً، من دون استثناء، عندما عرفوا الأمر، شعروا بالارتباك وبنوع من تأنيب الضمير؛ شعروا بوجع الضمير، وبالتفوّق عليّ: لأنني أردّد حماقاتٍ، لكنّها حماقات من ذلك النوع الذي لا يمكن أن تسمّيه، بكلّ صراحة، بالحماقات. كان هناك سبب خارجي جعل المستمعين يتغاضون عن حماقاتي.

تعددت أجوبتهم وتنوعت: أجل، سيكون هذا جيداً. أوافقك الرأي بطبيعة الحال. أجل، إن فكرتك رائعة. خطرت لي مثل هذه الفكرة حقاً. إنّ الناس غير مبالين، ولا أتوقع أن نحقق نجاحاً كبيراً في هذا العمل... ولكن بالنسبة إلي، أنا جاهز، بطبيعة الحال، للمشاركة.

كلهم قدموا إجابات مشابهة لهذه، وأيّدوا فكرتي، لكن تأييدهم لم يكن نابعاً من رغبتهم أو من اقتناعهم بما قلته، لكنّه كان نتيجة سبب خارجي منعهم من معارضة الفكرة. أقول هذا لأنني لم أرَ أيّ واحد من هؤلاء الذين وعدوني بالمشاركة قد حدّد المبلغ الذي يمكن أن يقدّمه، وكان عليّ دائماً أن أحدّد أنا المبلغ الذي يمكن أن يقدّمه كلٌّ منهم: «أنت عليك أن تدفع ثلاثمئة، وأنت مئتين، وأنت مئة، وأنت خمسة وعشرين روبلاً»، ولم يقدّم أيّ منهم نقوداً. أقول هذا لأن الناس عندما يعطون المال مقابل تحقيق ما يرغبون فيه، يسارعون في إعطائه ولا يتمهلون أبداً. الناس اليوم يجمعون الأموال لرؤية سارة برنار[1]. وافق بعضهم فحسب، ممن عبّروا عن تضامنهم

1 سارة برنار (1844 - 1923) ممثلة مسرحية فرنسية ذاع صيتها في أوروبا في أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وتأييدهم لفكرتي، على التبرع بالمال، وعبروا عن رغبتهم في المشاركة في هذه الحملة، ولكن لم يقدّم أيّ منهم نقوداً حتى الآن، بل وافقوا ضمنياً على المبلغ الذي اقترحته.

تفاجأت، في المبنى الأخير الذي زرته اليوم مساء، بوجود تظاهرة احتفالية كبيرة. كان لصاحبة ذلك البيت، الذي شهد التجمع، منذ عدة سنوات، بعض النشاطات في الأعمال الخيرية. توقّفت عدة عربات عند المدخل، كما وقف عدد من الخدم بزيّهم الفاخر. في الصالة الواسعة، جلست النساء والفتيات الصغار بملابسهنّ الفاخرة والمزينة بأبدع الألوان، كما جلس عدد من الشبان بالقرب منهنّ. كانت الدمى التي تصنعها النساء مخصصة للتوزيع على الفقراء.

لقد أزعجني وصدمني جداً منظر تلك الصالة، التي يجلس فيها أولئك الأشخاص المترفون. إن ثروة الأشخاص المجتمعين هناك تساوي الملايين، وإن نسبة قليلة من المال المهدور هنا على الألبسة والأقمشة والبرونز والمشابك والعربات والخيول وأزياء الخدم تساوي مئة ضعف قيمة المنسوجات التي تصنعها تلك النساء. بالإضافة إلى ذلك، إن قيمة مصاريف ذلك الحفل من نفقات السفر لكلّ هؤلاء الرجال والسيدات، وثمن الألبسة والقفازات والأثاث والنقل والمصابيح والشاي والسكر والكعك، تفوق بمئة ضعف ما تخيطه النساء. أدركت حقاً أنني وصلت إلى العنوان الخاطئ، وأنني لن أجد تجاوباً مع حملتي، لكنني ذهبت إلى هناك لأقدّم اقتراحي، وبغضّ النظر عن صعوبة شرح فكرتي لهم، قلت كلّ ما كنت أريد قوله (ذكرت لهم تقريباً كلّ ما كتبته في مقالي).

عرضت امرأة واحدة من بين هؤلاء عليّ نقوداً، وقالت إنّها لا تمتلك القوة للتعامل مع الفقراء، لكنها ستتبرع بالمال، ولم تحدّد كمية وموعد المبلغ الذي ستقدّمه. أعربت امرأة أخرى وشابٌّ عن جاهزيتهما لتفقد أحوال الفقراء، لكنني لم أستفد من خدماتهما.

قال لي أحد الأشخاص المهمين، الذين قابلتهم، إنّ توقّع جمع مبالغ كبيرة هو أمر صعب للغاية بسبب نقص الأموال الشديد. الأموال قليلة لأنّ الأغنياء في موسكو قد أنفقوا كلّ ما في حوزتهم، وقُدِّمت مكافأة المؤسسات الخيرية التي أنشؤوها بالميداليات والأوسمة والامتيازات الأخرى، وهذه كانت الوسيلة الوحيدة لجمع الأموال، وكان الحصول على مميزات وأوسمة جديدة من الحكومة أمراً صعباً للغاية.

وضعت رأسي على الوسادة، بعد عودتي في نهاية ذلك اليوم، ولم يقتصر شعوري على أن فكرتي لن تؤدي إلى نتيجة حقيقية، بل شعرت بالخزي أيضاً، وأدركت أن ما فعلته طوال ذلك اليوم مخزٍ وفظيع. رغم كل هذا، إنني لم أتخلَّ عن فكرتي لسببين: الأول أنني كنت في البداية؛ حيث يمكن للخزي الزائف أن يثنيني عن عملي، والسبب الثاني أن إمكانية متابعة حياتي لم تكن متوقفة على نجاح عملي فحسب، بل يكفي أن أواصل عملي لكي أستمر في الحياة وفق تلك الظروف التي كنت أعيش فيها. إن عدم نجاحي جعلني معرضاً للتخلي عن حياتي السابقة، والبحث عن طرق جديدة للحياة. هذا ما كنت أخشاه في اللاوعي، ولم أصدق صوتي الداخلي، وتابعت تأسيس ما أصبو إليه.

وبعد أن قُدِّم المقال للطباعة، قرأت نسخة محرّرة في مجلس الدوما[1]. تلعثمت في قراءته، وشعرت بارتباك شديد. كان الموضوع محرجاً كما بدا لي عند جميع الحاضرين.

سألت، في نهاية القراءة، حول قبول مسؤولي الإحصاء السكاني أن يستمروا في مناصبهم، ويكونوا وسطاء بين المجتمع والمحتاجين، وكان الرد هو الصمت المحرج. ألقى بعد ذلك شخصان كلمتين كانتا كنوع من التصحيح لشعور الغرابة الذي تسبّبت فيه كلمتي. أودّ أن أشير إلى أنّ الجميع أيّدوا

1 قرأ تولستوي المقال أمام اللجنة المنظمة للإحصاء السكاني في مجلس الدوما في موسكو في 18 كانون الثاني/يناير 1882.

فكرتي، لكنّهم قالوا إنّها غير قابلة للتنفيذ عملياً. تنفّس الجميع الصعداء. في ما بعد، وسعياً مني للوصول إلى غايتي، سألت كلّ المسؤولين عن الإحصاء السكاني، كلّاً على حدة، عن موافقة كلّ منهم على دراسة حاجات الفقراء أثناء عملية الإحصاء السكاني، وأن يبقى في منصبه هناك لكي يؤدي دور الوسيط بين الأغنياء والفقراء. شعروا جميعاً بالارتباك والحرج. قرأت في نظراتهم نحوي: استمعنا للتو إلى حماقاتك، واحترمنا شخصك، ولم نردّ عليك، وها أنت تعود إلى حماقاتك من جديد.

هذا ما عبّرت عنه تعابير وجوههم، لكنّهم أبدوا موافقتهم لي بالأقوال، وعبّر اثنان منهم، كلٌّ منهما على حدة، وكأنهما كانا متفقين، بكلمات متماثلة: «نحن نرى أنّ من واجبنا الأخلاقي فعل ذلك». ترك اقتراحي الانطباع ذاته عند الطلاب المشاركين في الإحصاء السكاني عندما حدّثتهم عن أننا، بالإضافة إلى عملية الإحصاء السكاني، سنسعى في سبيل الأعمال الخيرية. عندما حدثتهم عن ذلك، لاحظت الحرج في نظراتهم وهم ينظرون إلى عيني الشخص الطيب الذي يقول الحماقات. ترك مقالي الانطباع ذاته عند محرّر الصحيفة، وعند ابني وزوجتي، وعند أشخاص آخرين. لا أدري لماذا شعر الجميع بالارتباك والحرج بعد طرح فكرتي عليهم. رأى الجميع ضرورة تأييد فكرتي، لكنهم راحوا، بعد تأييدهم لي، يوضحون شكوكهم حول نجاح خطتي، وناقشوا كلهم، من دون استثناء، اللامبالاة والمشاعرِ الباردة التي يتصف بها أبناء مجتمعنا، وكل الناس. بطبيعة الحال استثنى كلٌّ منهم نفسه.

لم يفارقني الشعور في أعماق قلبي بأنّ هذا العمل ليس هو ذلك العمل الذي لن ينتج عنه شيء، لكن المقال طُبع، وأنا مشارك في الإحصاء السكاني. شرعت في هذا العمل، وأخذني العمل بدوره.

بدايات صعبة

عُيّنتُ للمشاركة في عملية الإحصاء السكاني، بحسب رغبتي، في دائرة خامونيفنيكا، عند سوق سمولينسكي، في زقاق بروتوشني، بين مفرق بيروغوفوي ونيكولسكي. تقع هناك البيوت التي تسمّى بيوت رجانوف أو قلعة رجانوف. كانت هذه البيوت مملوكة للتاجر رجانوف، والآن تتبع لتجار زيميني. سمعت الكثير عن هذا المكان؛ عن أنه أكبر مأوى للفقر والفسوق، ولذلك طلبت من المسؤولين أن يرسلوني إلى هناك.

تحققت رغبتي. بعد أن تسلّمت قرار البلدية، ذهبت بمفردي، قبل عدة أيام من بدء الإحصاء السكاني، إلى منطقتي لتفحصها، وبالاستعانة بالمخطط الذي أعطوني إياه، تمكّنت من إيجاد قلعة رجانوف. دخلت من زقاق نيكولسكي، الذي ينتهي من الجهة اليسرى بمبنى داكن اللون ليس له بوابات دخول من هذه الجهة، وخمّنت من شكل هذا البناء أنّه هو قلعة رجانوف.

عندما نزلت من التلة إلى شارع نيكولسكي، كان بمحاذاتي عدد من الأطفال تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وأربع عشرة سنة، وهم يرتدون المعاطف والبلوزات؛ بعضهم تزلّق على قدميه، وبعضهم على زلاجة واحدة على طول الرصيف المتجمّد أمام ذلك المبنى. كانت ألبستهم ممزّقة، ورأيت فيهم النشاط والجرأة اللذين يتميز بهما أبناء المدن. توقفت لأنظر إليهم. في تلك اللحظات خرجت امرأة ذات خدين صفراوين مترهلين، ثيابها ممزقة، كانت تمشي على التلة إلى شارع سمولينسكي. كانت تتنفس مثل حصان مع بحّة في كل خطوة تخطوها. عندما أصبحت بمحاذاتي، توقفت، وأخرجت

نفساً مبحوحاً. لو أنني قابلتها في أيّ مكان آخر لَطلبت مني نقوداً، لكنّها هناك اكتفت بالتحدّث معي فحسب. قالت وهي تشير إلى الأولاد:

- هل ترى كيف يتسلون ويلعبون ويؤذون؟ هؤلاء هم أولاد «الرجانوفيين»، وسيصبحون مثل آبائهم.

أحد الأطفال، الذي كان يضع قبعة من دون حافة، سمع ما قالته المرأة، فتوقف وقال لها:

- لماذا تشتميننا؟ أنتِ عجوز شمطاء.

سألت ذلك الطفل:

- أنت تعيش هنا؟

- نعم، وهي تعيش هنا أيضاً. لقد سرقت زلاجة.

صرخ الطفل وهو يمدّ ساقه إلى الأمام، وتابع التزلج.

أطلقت المرأة مجموعة من الشتائم على الطفل، ومنعها السعال من الاستمرار.

هبط من التلة، في ذلك الوقت، مسنٌّ شعره أبيض مثل الثلج، مرح، يلوح بيده (كان يحمل في إحدى يديه رزمة من أرغفة الخبز). سار وسط الشارع، وبدا كأنه قد شرب قارورة خمر قبل قليل، ولعلّه سمع شتائم تلك المرأة.

- ماذا تقولون أيها العفاريت؟

وجه كلامه إلى الأطفال، وتظاهر بأنه يتجه نحوهم، طاف حولي، ثم انتقل إلى الرصيف. إذا رأيتَ هذا المسنّ في شارع أربات[1] فسوف تندهش من ضعفه وفقره وشيخوخته، لكنّه هنا يبدو مثل عامل قدِمَ للتو من عمله. مشيت

1 شارع أربات هو أحد الشوارع الرئيسة وسط مدينة موسكو.

خلفه. وصل إلى الزاوية اليسرى في زقاق بروتوشني، وعندما تجاوز المبنى والمدخل اختفى في بوابة الحانة.

عند زقاق بروتوشني هناك مدخلان وعدة أبواب: حانة ومحل لبيع التبغ ومطاعم وأماكن تجارية أخرى. هذه هي قلعة رجانوف. هنا كل شيء وسخ، رائحة كريهة تنتشر في الأبنية والمداخل وعند الناس أيضاً. كان أغلبية الناس الذين رأيتهم هناك يرتدون ثياباً ممزقة، وأشبه بالعراة. بعضهم دخل، وبعضهم الآخر تنقّل من باب إلى آخر. كان هناك بازار بين اثنين منهم حول بعض الملابس البالية. تجوّلت حول المبنى بالكامل من زقاق بروتوشني وعند مفرق بيريغوفوي، وفي النهاية توقفت عند مدخل أحد الأبنية. أردت الدخول إليه، لكنّ ذلك كان صعباً. ماذا سأقول لهم إن سألوني: ماذا تريد؟ دخلت لأتمشى فحسب. ما إن دخلت، حتى شممتُ رائحة نتنة. كان المدخل قذراً جداً. انحرفت نحو الزاوية، وفي تلك اللحظة، ومن الأعلى من جهة اليسار، سمعت وقع أقدام أشخاص يركضون. في البداية على أرضيّة الرواق، ثمّ صعدوا الدرج. تقدّمت في البداية امرأةٌ نحيلة وقد شمّرت عن ساعديها. كانت ترتدي معطفاً وردياً باهتاً وجزمة في رجليها العاريتين من الجوارب. جرى خلفها رجل أشعث يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً واسعاً جداً أشبه بتنورة، ويضع جرموقاً[1] في رجليه.

لحقَ الرجلُ بالمرأة وأمسك بها، وقال وهو يضحك:

- لن تذهبي.

- ألا ترى، إنّه شيطان أحول.

1 هو ما يُلبس فوق الحذاء لمنع البلل أو للوقاية من البرد.

كان واضحاً أنّها كانت سعيدة بهذه المطاردة، لكنّها عندما رأتني صرخت بغضب: من تريد؟ ولمّا لم أكن أبحث عن أحد ارتبكتُ وخرجت. هذه حادثة صغيرة، لكنّها جعلتني أرى عملي الذي أنوي القيام به بطريقة مختلفة، وخاصة بعد مشاهداتي عند المدخل الآخر للبناء من سباب العجوز، إلى المسن المسرور، وصولاً إلى الأطفال المتزلجين على الجليد. وفجأة رأيت أمامي تلك الحادثة. بدأتُ بمساعدة هؤلاء الأشخاص بفضل أغنياء موسكو. أدركتُ للمرة الأولى أن هؤلاء البؤساء، الذين أردت الإحسان إليهم، بالإضافة إلى الوقت الذي ينتظرون فيه السماح لهم بالدخول وهم يرتجفون من البرد، ويتضورون من الجوع، والأوقات الأخرى التي يقضون فيها حاجاتهم، هناك يوم كامل مؤلّف من أربع وعشرين ساعة وأسبوع كامل لم يخطر لي أن أفكّر في الطريقة التي يمضون فيها كلَّ هذا الوقت. أدركت الآن، وللمرة الأولى، أنّ كلَّ هؤلاء الناس، بالإضافة إلى رغبتهم في الدفء والشبع، يجب أن يعيشوا أربعاً وعشرين ساعة كلَّ يوم مثل بقية الناس. أدركت أنّ هؤلاء الناس يجب أن يشعروا، مثل غيرهم، بالغضب والملل والشوق والشجاعة والسرور.

قد يبدو كلامي غريباً إن قلت إنّ عملي، الذي شرعت فيه، لا يمكن اختصاره بتقديم الغذاء واللباس لألف شخص كما لو أنّني أربّي ألف خروف في حظيرة، بل في جعلهم أشخاصاً أسوياء وطيبين. عندما أدركت أنَّ كل شخص من بين هؤلاء الأشخاص هو إنسان مثلي تماماً، له ماضيه وشغفه وإغراءاته وأخطاؤه وأفكاره وأسئلته، التي يبحث عن إجابات لها، وجدتُ أنّ عملي، الذي شرعت فيه، هو في غاية الصعوبة، وشعرت بالعجز المطلق، لكن عملي كان في بداياته، لذا استمررت فيه.

هل الفقر سبب البؤس؟

ذهب الطلاب المشاركون في عملية الإحصاء، في يومها الأول، منذ الصباح. أمّا أنا، المحسن، فلحقت بهم عند الساعة الثانية عشرة. لم أستطع الذهاب قبل ذلك الوقت، فقد استيقظت في العاشرة، ثمّ شربت القهوة ودخّنت السجائر، وأنا أنتظر أن تهضم معدتي ما أكلته. وصلت في الساعة الثانية عشرة عند مدخل بناء رجانوف. دلّني الشرطي على صالةٍ عامة عند مفرق بيروغوف قرّر المشاركون في الإحصاء السكاني أن يُدخلوا كلًّ من يسأل عنهم إليها. دخلت إلى الصالة، التي كانت معتمة ووسخة وتنبعث منها رائحة مقززة. عند المدخل، وإلى اليسار، هناك غرفة فيها طاولات مغطاة بمناديل وسخة، ومن جهة اليمين غرفة ذات أعمدة وفيها الطاولات ذاتها عند النوافذ والجدران. جلس على الطاولات رجال ارتدى بعضهم ثياباً بالية، وبعضهم كانت أزياؤهم مناسبة. كانوا أشبه بعمال أو تجار صغار، كما جلست عدد من النساء. ورغم أن المكان كان شديد القذارة، أكّدَ التعاملُ اللائق للكاتب عند المدخل، وتحضيرُ النادلين السريع للطلبات؛ أكّد أنّه ذو جدوى اقتصادية جيدة. ما إن دخلت حتى جاء أحدهم، وخلع معطفي، وتجهّز لتلقي طلباتي. السرعة في العمل والتميّز لا تخطئهما العين هناك. سألتهم عن المشاركين في الإحصاء السكاني.

«فانيا...». صاح رجل صغير كان يرتدي زياً ألمانياً، ووضع شيئاً ما في الخزانة خلف المدخل.

كان ذلك هو صاحب المكان، إيفان فيدوتيش، وهو رجل من كالوغا، يستأجر نصف الشقق في أبنية زيمنسكي، ويعطيها للسكان.

جاء النادل، وهو شاب في عمر 18 عاماً، نحيل، أنفه حاد، ووجهه أصفر.

«دُلّ هذا السيد على موظفي الإحصاء السكاني. ذهبوا إلى المبنى الكبير، عند البئر».

رمى الصبي المنديل، وارتدى المعطف فوق القميص والسروال الأبيضين، ووضع قبعته الكبيرة ذات الحافة العريضة، وأسرع بخطوات متقاربة بساقيه البيضاوين، ورافقني حتى عبرنا المداخل الخلفية إلى قسم آخر. في المطبخ وفي الممرات اللزجة ذات الرائحة النتنة، قابلنا عجوزاً تحمل برفق بقايا أحشاء ذبيحة إلى مكان ما. نزلنا من تحت المظلة إلى فناء منحدر مصنوع بالكامل من الخشب فوق الأدوار السفلية الحجرية. كانت الرائحة القذرة منتشرة على طول الفناء (الرائحة النتنة تمركزت في المرحاض، ذلك المكان الذي كلما مررت بجانبه وجدت الكثيرين متجمعين هناك. لم يكن المرحاض في حد ذاته مكاناً لقضاء الحاجة، لكنه كان يشير إلى المكان الذي اعتاد الجميع التغوّط بالقرب منه. لا يمكنك إلا أن تلاحظ ذلك المكان وأنت تعبر الفناء. شعرت بالقرف الشديد عندما دخلت في ذلك الجو المخنوق الذي تتسبب فيه الرائحة المقززة).

رافقني الصبي، وهو يحرص على عدم تلويث سرواله الأبيض، عند ذلك المكان، فوق فضلات الصرف السائلة والصلبة، وتوجّه إلى أحد المباني. كل العابرين في الممر والرواق توقفوا للنظر إليّ. كان واضحاً أنّ وجود رجل يرتدي ملابس نظيفة في تلك الأماكن هو حدث نادر وغريب.

سأل الصبي امرأة هناك عن موظفي الإحصاء السكاني، فأجاب ثلاثة أشخاص مباشرةً عن سؤاله: أحدهم قال إنّهم خلف البئر، فيما قال اثنان منهم إنّهم كانوا هنا، لكنهم ذهبوا إلى نيكيتا إيفانوفيتش. قال رجل مسنٌّ يرتدي قميصاً فقط، بعد أن قضى حاجته بالقرب من المرحاض، إنّهم في القسم رقم 30. قرّر الصبي أنّ هذا هو الاحتمال الأكبر، ورافقني إلى عنبر تحت الطابق

السفلي، في العتمة. كانت الرائحة الكريهة هناك أكثر حدة من تلك التي في الفناء. نزلنا إلى الأسفل، ومشينا فوق الأرضية الترابية للممر المظلم. عندما عبرنا الممر، انفتح أحد الأبواب فجأة، وخرج منه عجوز مخمور يرتدي قميصاً، ويبدو أنه ليس من أحد الفلاحين. دفعتْ عاملةُ غسيلٍ ذلك العجوز بصوتها الصاخب، وبيديها المبللتين بالصابون. فانيا، مرافقي، أبعد المخمور، وقال له: «ليس من اللائق إثارة مثل هذه المشاكل... أنت ضابط أيضاً».

وصلنا إلى باب القسم 30. سحب فانيا الباب ففُتح على مصراعيه، وشعرنا بفقاعات نحونا، وبرائحة حادّة لطعام فاسد وتبغ، ودخلنا في مكان معتم تماماً. كانت النوافذ في الجهة المقابلة، فيما توزعت على طول الممر المتعرج من جهتي اليمين واليسار أبوابُ غرف في زوايا مختلفة، مطلية كيفما اتفق بدهان أبيض مائي. تراءت من الغرفة المظلمة على اليسار عاملة تنظيف تحمل حوض غسيل، كما ظهرت عجوز من أحد الأبواب على اليمين. رأينا مسناً كذلك من خلال باب آخر. كان ضخماً ذا وجه أحمر، يجلس على أرضية من الخشب. كان يمسك ركبتيه بيديه، ويحرّك ساقيه اللتين تنتهيان بنعل خفيف، وراح ينظر إليهما بحزن. كان هناك بابٌ في نهاية الممر يؤدّي إلى الغرفة التي جلس فيها الموظفون. كانت تلك هي غرفة صاحبة القسم 30؛ حيث استأجرت القسم كاملاً من إيفان فيدوتيش، وأسكنت فيه النزلاء والمسافرين. جلس في تلك الغرفة الصغيرة، تحت صورة من الورق اللامع، أحد الطلاب المشاركين في الإحصاء السكاني، وفي يده بطاقات، وراح يستجوب، وكأنه محقّق، رجلاً يرتدي قميصاً وبلوزة. كان ذلك الرجل مقرّباً من صاحبة القسم؛ حيث كان ينوب عنها في الإجابة عن الأسئلة. كانت هناك سيدة، وهي عجوز مسنّة، واثنان فضوليان من النزلاء. عندما دخلت أصبحت الغرفة ممتلئة بالكامل. اقتربتُ من الطاولة. ألقينا التحية على الطالب الذي تابع استبيانه، فيما بدأتُ أنا بطرح أسئلتي على سكان تلك الشقة من أجل هدفي الذي أسعى لتحقيقه.

بدا لي واضحاً أنَ كل قاطني ذلك المسكن ليسوا بحاجة إلى مساعدتي. إن صاحبة القسم 30، بغضّ النظر عن فقرها وشقائها، بالإضافة إلى القذارة التي رأيتها هناك، أدهشتني لأنَ ظروف حياتها كانت أفضل من تلك التي يعيشها الفقراء في موسكو، وإذا قارنّاها بظروف حياة الفقراء في الأرياف، يمكننا القول إنها تعيش في بحبوحة. كان لديها فراش وثير، وبطانيات سميكة، وسماور لإعداد الشاي، ومعطف فرو، وخزانة فيها أدوات منزلية، ومثلَ هذه الأشياء امتلك صديقها أيضاً. كان لديه ساعة ذات سلسلة. كان السكان هناك أكثر فقراً منهما، ولكن لم يكن أيُّ أحد منهم بحاجة إلى مساعدة عاجلة. من طلبوا المساعدة هم: المرأة التي تغسل الملابس في الحوض، وامرأة هجرها زوجها ولديها أطفال، وعجوز مطلقة لا تملك أيَ شيء كما قالت، وذلك الرجل المسنّ، الذي قال إنه لم يأكل في ذلك اليوم بتاتاً. اتّضح لي، في ما بعد، من خلال الاستطلاع، أنّ كلّ هؤلاء ليسوا بحاجة إلى المساعدة، ولمساعدتهم يجب التعرّف إليهم عن قرب.

ارتبكت تلك المرأة، التي هجرها زوجها، عندما اقترحت عليها أن ترسل أولادها إلى دار الأيتام، فكّرت قليلاً، وشكرتني، ولكن كان واضحاً جداً أنَ اقتراحي لم يرُقْ لها، فقد كانت تفضل المساعدة المالية. تساعدها ابنتها الكبرى في الغسيل والتنظيف، بينما ترعى ابنتها الصغرى شؤون الطفل. طلبت العجوز بإلحاح أن تذهب إلى دار الرعاية، لكنني عندما تفحصت حالها جيداً، عرفت أنّها ليست فقيرة. كان لديها صندوقٌ فيه بعض الممتلكات، وإبريق شاي ذو مصب من الصفيح، وعلبة على شكل قرص فيها شاي وسكر. كانت تخيط الجوارب والقفازات، وتسلّمت مقابل ذلك مساعدة من أحد المحسنين. الفلاح المخمور، كما بدا واضحاً، لم يكن بحاجة إلى الطعام قدرَ حاجته إلى التغلب على حالة الدوار الذي يلازمه بعد شرب الخمر. كان يصرف كلّ ما يُعطى له في الحانات. لم أجد هناك الكثير من الأشخاص

الذين يحتاجون إلى المساعدة، وكنت أعتقد أنّني سأصادف الكثير منهم، وسوف أشعر بالسعادة عند تقديم المال لهم. كان هناك فقراء لكن يُساورك الشك في أنّهم فقراء حقاً. سجّلت أسماء العجوز والمرأة والمخمور على أنّهم يستحقّون الاهتمام، ولكن بعد أن أنتهي من الاهتمام بالبؤساء، الذين توقّعت أن أقابلهم في أماكن أخرى من ذلك البناء.

رأيت أنَ المساعدة يجب أن تكون وفقَ دور منظّم يبدأ ممن بحاجة إلى مساعدة عاجلة حتى نصل إلى هؤلاء. كان المشهد في المساكن التالية مشابهاً؛ حيث كان ساكنوها بحاجة إلى دراسة موسّعة لأوضاعهم قبل مساعدتهم. لم أصادف أشقياء سيتحوّلون إلى سعداء إن قُدمت لهم النقود.

يبدو لي محرجاً القول إنني شعرت بخيبة أمل في أنني لم أجد أولئك الذين توقعت أن أجدهم.

توقعت أن أرى أناساً يعيشون أوضاعاً خاصة، لكنني دُهشت، عندما تجوّلت في كلَ الشقق، من أنَ ساكنيها لا يعانون من أيّ شيء، وأنّهم يعيشون مثل أولئك الأشخاص الذين عشت بينهم. وكما هو الحال في الوسط الاجتماعي الذي أعيش فيه، هناك بينهم من هو جيد ومن هو سيّئ، وهناك السعيد والشقي. البؤساء بينهم كانوا مثل البؤساء عندنا؛ أي إنّ بؤسهم ليس في الظروف الخارجية لحياتهم، بل البؤس فيهم أنفسهم؛ ذلك البؤس الذي لا يمكن أن تصححه أية ورقة نقدية.

فقراء سعداء

يشكّل سكان هذه المباني نسبة قليلة من سكان موسكو، وقد يصل عددهم إلى أكثر من مئة ألف. هناك ممثّلون في هذا المبنى لمختلف المهن. هنا المُلّاك الصغار والحرفيون والاسكافيون وصناع الفراشي والنجارون والخياطون والحدادون. هنا أيضاً سائقو الأجرة وعمال المغاسل وعمال الخردوات والمياومون والأشخاص الذين ليس لديهم أعمال دائمة، والمتسولون والنساء الفاسقات.

هنا الكثير من الأشخاص مثل أولئك الذين شاهدتهم عند مدخل بناء لبينسكي، لكنهم هنا اختلطوا بالعمال. بالإضافة إلى ذلك، رأيت أولئك في أسوأ حالاتهم، وهم لا يملكون الطعام والشراب، جوعى ومتجمدين من البرد، وبعد أن يُخرَجوا من الحانات، ينتظرون بفارغ الصبر أن يسمح لهم بالدخول إلى الملجأ الليلي المجاني، ومن هناك ينتظرون إرسالهم إلى السجن الموعود، ومن ثم ترحيلهم إلى مناطقهم. هنا رأيت الفقراء وسط أغلبية العمال، وقد يحصلون أحياناً على ثلاثة أو خمسة كوبيكات للمبيت ليلة واحدة، وأحياناً ينالون روبلاً كاملاً ثمناً للطعام والشراب.

قد يبدو كلامي غريباً إن قلت إنّ شعوري هنا كان مختلفاً تماماً عن شعوري في مبنى لبينسكي، بل على النقيض تماماً، فقد شعرنا أنا والطلاب بالارتياح نسبياً مما رأيناه هنا. لماذا أقول: نسبياً؟ كلامي ليس دقيقاً، فتواصلي مع الناس هنا منحني شعوراً مريحاً جداً.

انطباعي الأول هنا أن أغلبية السكان هم عمال وأشخاص طيبون. رأينا أكثر من نصف السكان يعملون؛ رأينا عاملات الغسيل على أحواضهنّ، والنجارين خلف طاولاتهم وكراسيهم، والاسكافيين يصنعون الأحذية ويصلحونها. امتلأت الشقق الضيقة بالناس، واستمر العمل بكل حيوية وبهجة. شممنا روائح عرق العمال، ورائحة الجلد عند الاسكافيين، ونشارة الخشب عند النجارين، وكانت الأغاني تصدح في كلِّ مكان، ورأينا العضلات المفتولة التي تنجز عملها المعتاد بكل نشاط وحيوية.

إن دخولنا إلى الحياة اليومية لهؤلاء الناس لم يكن ذريعة لهم لإظهار أهميتهم، كما حدث في زيارة الموظفين لكلِّ الأماكن التي يعيش فيها ميسورون، وعلاوة على ذلك، إنهم أجابوا عن أسئلتنا بكلِّ رحابة صدر، ولم يعطوا الأمر أكثر مما يستحق.

فتحت أسئلتنا مجالاً للمزاح والتندّر بين بعضهم حول طريقة التسجيل في القائمة، وأن يسجل اثنان على أنهما شخص واحد وهكذا.

وجدنا الكثيرين منهم وهم يتناولون الطعام، أو يشربون الشاي، وفي كل مرة كانوا يرحبون بنا: «هيا تفضلوا الخبز والملح» أو «الشاي والسكر» أجابوا: «أهلاً وسهلاً»، وأحياناً فسحوا لنا المجال لكي نجلس. توقعنا أن يستقبل ذلك المكان نزلاء يتغيّرون باستمرار، ولكن اتّضح أنّه يضمّ العديد من الشقق التي يقطنها أشخاص لفترات طويلة. وجدنا نجاراً وعمالاً واسكافياً وحرفيين يعيشون هنا منذ عشر سنوات. كان المكان الذي عمل فيه الاسكافي ضيقاً ووسخاً، لكن الجميع كانوا مستمتعين ومسرورين بعملهم. أردت أن أستفسر من أحد العمال عن وضعه المادي ومديونيته لصاحبة البناء، لكنه لم يفهمني جيداً، فراح يحدثني عنها وعن حياتها. عاش في إحدى الشقق زوجان مسنّان كانا يعملان في بيع التفاح. كانت غرفتهما دافئة ونظيفة ومفعمة بالطيبة. فرشا الأرضية بالقشّ الذي جلبوه من مخازن التفاح. صناديق وخزانة وأدوات

منزلية. في الزاوية الكثير من الصور الدينية، وهناك مصباحان في الأعلى. معاطف الفرو معلقة على الجدار. يبدو أنّ العجوز ذات التجاعيد، التي تشبه نجمة، حنونة وثرثارة، وتحبّ حياتها الهادئة والبهيجة.

جاء إيفان فيودتيش، صاحب الحانة والشقق، من الحانة وتجوّل معنا. تمازح بودّ مع كلّ أصحاب الشقق، وخاطبهم بكلّ احترام بأسمائهم الكاملة، وأعطانا بعض الصفات المميزة لشخصيّاتهم. كلّ الناس كانوا مثل مارتينا سيمينوفيتش وبيتر بيتروفيتش وماريا إيفانوفنا، لا يرَون أنّهم أشخاصٌ استثنائيون، بل عاديون مثل كلّ الناس.

كنا متجهزين لمشاهدة كلّ ما هو فظيع، ولكن بدلاً من الفظاعة، شاهدنا كلّ ما هو جميل وجيّد، وكلّ ما يستحقّ الاحترام والتقدير. كان هؤلاء الأشخاص الجيدون كثيرين إلى درجة أنّ بعض العاطلين والمشردين والمنكوبين لم يؤثّروا في الصورة العامة لهم.

لم يكن ذلك مدهشاً للطلاب كما هو الحال بالنسبة إلي. هم ذهبوا فقط لتأدية عمل نافع، وكما اعتقدوا، من أجل العلم، وفي الوقت نفسه شاهدوا بعض الأحداث العابرة. أما أنا فكنت فاعل خير، وذهبت لمساعدة البؤساء والمنكوبين والفاسدين، الذين توقعت أن أراهم في ذلك المبنى. وفجأة، بدلاً من مقابلة البؤساء والمنكوبين والفاسدين، وجدت نفسي أمام عمال مجتهدين وهادئين وراضين ومسرورين وودودين وطيبين جداً.

شعرت بهذا خاصةً عندما رأيت في تلك الشقق حاجات الناس المثيرة للاستياء، التي نويت أن أساعدهم في تلبيتها. عندما تعرّفت إلى هذه الحاجات، وجدت دائماً أنّ هناك من تبناها وقدّم تلك المساعدة التي أردت أن أقدّمها. لكن من الذي قدّم تلك المساعدة قبلي؟ أولئك البؤساء والمستضعفون، الذين نويت أن أنقذهم، لكنني لم أجد طريقة مناسبة لذلك.

في أحد الأقبية كان هناك عجوز مرض بالتيفوئيد. لم يكن عنده أيّ أحد إلى جانبه. كانت جارته، وهي مطلّقة مع ابنتها، ولا تربطهما أيّ صلة قرابة، تزوره أحياناً، وتصنع له الشاي، وتشتري له بعض الأشياء من مالها. كانت هناك امرأة في شقّة أخرى تعاني من حمّى ما بعد الولادة.

المرأة، التي كانت عاهرة، هزّت الطفل، ووضعت في فمه المصاصة، ولم تذهب منذ يومين إلى عملها المخزي. الفتاة، التي أضحت يتيمة، تبنّتها عائلة خياط لديه ثلاثة أطفال. بقي أولئك البؤساء والموظفون القدماء والخدم والمتسولون والسكارى والنساء الفاجرات والأولاد الذين لا يمكن أن تعطيهم مساعدة نقدية عاجلة، بل يجب التعرف إلى حياتهم عن قرب، وإعادة بنائها. بحثت ببساطة عن أولئك البؤساء بسبب الفقر، أولئك الذين يمكن تقديم المساعدة لهم، بعد أن نتقاسم معهم ما يزيد على حاجتنا. بسبب فشل من نوع ما، لم نجد هناك مثل هؤلاء الأشخاص. جميعهم كانوا بؤساء جداً، ويحتاجون إلى الكثير من الرعاية والاهتمام.

البؤس الحقيقي

التعساء الذين قيّدتُ أسماءهم انقسموا تلقائياً إلى ثلاثة أقسام:

الأشخاص الذين أضاعوا أملاكهم السابقة، وينتظرون أن تعود أوضاعهم كما كانت (كان هؤلاء من الطبقات الدنيا ومن طبقة النبلاء أيضاً)، ثمّ النساء الفاجرات، اللاتي يوجدنَ هناك بأعداد كبيرة، وأخيراً الأطفال. أكثر من وجدتهم ينتمون إلى النوع الأول؛ أي الذين فقدوا وضعيتهم المادية المريحة، ويرغبون في العودة إليها. هؤلاء كانوا غالباً من النبلاء أو الموظفين، وهم موجودون بكثرة في تلك الأماكن. كان صاحب البناء، إيفان فيدوتيش، الذي رافقنا في جولتنا على تلك المساكن، يقول لنا: «يمكنكم أن لا تدخلوا هنا، ولا تسجلوا أسماء الساكنين في هذه الشقة. هنا يوجد شخص يستطيع شراء كلّ شيء يحتاجه إن توقف عن الشرب».

كان إيفان فيدوديتش ينادي ذلك الشخص بكلّ احترام (باسمه واسم أبيه) مع أنّ ذلك الشخص غالباً من الساقطين، لكنه أضاع ثروته القديمة. واستجابةً لنداء إيفان فيدوديتش غالباً ما يخرج من الزاوية المعتمة رجلٌ كان من النبلاء الأغنياء، أو كان موظفاً، وغالباً ما يكون مخموراً، ودائماً بلا ملابس. إذا لم يكن مخموراً، فإنّه اهتمّ بكلّ تفاصيل ما نطلبه منه، وأومأ برأسه بكلّ اهتمام، وحرّك حاجبيه، ووضع ملاحظاته مستخدماً مصطلحات علمية، وأمسك بحرص شديد في يديه القذرتين المرتجفتين البطاقة النظيفة المطبوعة على الورقة الحمراء، ونظر بكلّ فخر وازدراء إلى جيرانه وكأنّه

يحتفل أمامهم، كما لو أنّه يفتخر بتعليمه وثقافته أمام أولئك الذين أذلّوه مراتٍ عديدة.

من الواضح أنّه شعر بالسعادة بعد أن تواصل مع أشخاص من ذلك العالم، الذي تطبع فيه البطاقات على ورقة حمراء، ذلك العالم الذي كان ينتمي إليه في يوم ما.

غالباً، أجاب ذلك الشخص عن أسئلتي حول حياته بكل سرور، وبالإضافة إلى ذلك، إنه دائماً ما يبدأ بسرد أحداث حياته السابقة التي يحفظها عن ظهر قلب، مثل الصلوات، وتلك المآسي التي واجهته، ووضعه السابق الذي كان يجب أن يكون هناك وفق تربيته التي تلقاها.

التقيت بالكثير من هؤلاء الأشخاص المتوزعين في كلّ أنحاء بناء رجانوف. كانت إحدى الشقق ممتلئة بالكامل بأمثال هؤلاء من الرجال والنساء.

عندما وصلنا إليهم قال لنا إيفان فيدوديتش: «هنا شقة النبلاء». كانت مملتئة، وكانوا جميعاً هناك، وعددهم يقارب أربعين شخصاً. كان أكثرهم من الذين فقدوا ثروتهم ومن البؤساء والمسنين والشباب. تكلّمت مع الجميع تقريباً. كانت قصتهم واحدة، لكنها تختلف في مستوى تطوّراتها. كان كلّ منهم من الأغنياء، ومن إما أبوه وإما أخوه أو عمه كانوا أو مازالوا من الأغنياء، أو أبوه أو هو امتلكا مكانة مرموقة، وحدث بعد ذلك شيء مؤسف تسبّب فيه الحاسدون، أو بسبب طيبته، أو بسبب حدث خاص، بالنتيجة أضاع كلّ ما كان يملكه، والآن يتوجب عليه أن يركض في هذا المكان الكريه وغير الملائم، وثيابه ممزقة، مع السكارى والفاجرين، ويأكل قطعة من الكعك ويهز يديه.

كل أفكار وذكريات هؤلاء الأشخاص كانت حول ماضيهم فحسب. يرون أن ما يعيشونه الآن هو حالة غير طبيعية قبيحة ولا تستحق الاهتمام. لا وجود للحاضر عندهم. هناك ذكريات الماضي وانتظار المستقبل الذي يمكن

أن يأتي في أيّ لحظة، ويلزم القليل لحدوث هذا التغيير وقدوم المستقبل المختلف، لكن هذا القليل غير متوافر، ولا يمكن إيجاده، وهكذا تمضي الحياة، فبعضهم مرت عليه سنة وهو في هذه الحال، وآخر خمس سنوات، وثالث مازال ينتظر منذ ثلاثين سنة. بعضهم يريد أن يرتدي ألبسة لائقة فحسب، لكي يظهر بها أمام الآخرين، وبعضهم يحتاج إلى أن يلبس ويملك ثمن تذكرة الذهاب إلى الأورال، وبعضهم يريد شراء الحاجات الأساسية فقط وأقل الأشياء لكي يستطيع متابعة عمله المفيد، وعندها سيصبح كلّ شيء على ما يرام. يعتقدون جميعاً أنهم ينقصهم شيء ما خارجي لكي يعودوا مرة أخرى إلى أوضاعهم السابقة التي يعدّونها طبيعية وسعيدة.

لو لم يحجب عني شعوري بالفخر بإحساني لاستطعت مراقبة أوضاعهم أكثر، صغارهم وكبارهم، ولاسيما الضعفاء، وأصحاب المشاعر الطيبة، لكي أدرك أن بؤس هؤلاء لا يمكن تصحيحه بوسائل خارجية، وأنهم لا يمكن أن يكونوا سعداء بأيّ حال من الأحوال، إذا بقينا ننظر إليهم على أنهم ليسوا أشخاصاً استثنائيين، بل هم أشخاص عاديون مثل أولئك الذين يحيطون بنا من كل الجهات. أتذكر أنني شعرت بصعوبة شديدة وأنا أتحدث مع هذا النوع من البؤساء، والآن عرفت سبب تلك الصعوبة التي عانيت منها. أنا رأيت فيهم، كما في المرآة، نفسي. لو تأملت حياتي وحياة الناس في بيئتي لما وجدت أيّ فرق بين البؤساء في بيئتي وبين هؤلاء.

إذا أكل أفراد طبقتنا ما لذّ وطاب، ولم يقتصر طعامهم على قطعة كعك أو وجبة سمك رنجة مع الخبز، وهم يعيشون في شققهم الواسعة وفي بيوتهم الكبيرة في مناطق سيفتسيف وفراجكا وديمتروفكا، وليس في مبنى رجانوف، فإنّ كل ترفهم هذا لن يمنعهم من التحول إلى بؤساء. لن يكونوا راضين كذلك عن أوضاعهم، ويتأسفون على ماضيهم، ويتطلعون إلى الأفضل، وهذا الوضع الأفضل الذي يتطلعون إليه مماثل تماماً لما يتطلع إليه سكان مبنى رجانوف؛

أي ذلك الوضع الذي يعملون فيه أقل، ويستخدمون خدمات الآخرين بشكل أكبر.

يكمن الفرق في المستوى والوقت فحسب. لو أنني تفكّرت حينها لأدركت هذا، لكنّني لم أتفكَر، وكلَ ما فعلته هو أنَني سجَلت أسماءهم، مفترضاً أنني بعد أن أعرف تفاصيل حياتهم واحتياجاتهم سوف أساعدهم.

لم أدرك أنّ مساعدة مثل هؤلاء هي في تغيير رؤيتهم للعالم فحسب، ولكي تغيّر رؤية شخص ما للعالم يجب عليك أن تمتلك رؤية أفضل للعالم من رؤيته، وأن تعيش وفق تلك الرؤية، لكنّ حياتي كانت مشابهة لحياة من أسعى لتغيير رؤيتهم للحياة، وعشت وفق تلك الرؤية التي يجب عليّ تغييرها، لكي أنقل حياة هؤلاء الناس من الشقاء إلى السعادة.

لم أكن أعتقد أن سبب تعاستهم ليس عدم تناولهم الطعام المناسب، بل السبب أنّ معداتهم توقفت عن عملها، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الطعام، بل إلى ما يفتح شهيتهم لتناول الطعام. لم أكن أعتقد أنّ مساعدتهم ليست في إعطائهم الغذاء، بل مساعدتهم تكمن في معالجة معداتهم.

ورغم أنني أذهب بعيداً إن قلت إنني لم أساعد أيّ شخص من بين كلّ الذين سجلتهم، بالإضافة إلى أنّ الكثير منهم قد قدّم لهم ما يحتاجون إليه، وما بدا لي أنّ وضعهم تطور إلى الأفضل، كان من بينهم ثلاثة أشخاص أذكرهم جيداً. الثلاثة، بعد فترات من التحسّن والسوء، يعيشون الآن في الحال نفسه الذي كانوا فيه قبل ثلاث سنوات.

هل يستحققنَ المساعدة؟

النوع الثاني من البؤساء، الذين تمنَّيت أن أساعدهم في ما بعد هو النساء الفاجرات. كان عددهنّ كبيراً في مبنى رجانوف، ومن أنواع مختلفة؛ منهنّ الشابات اللاتي يشبهنَ النساء حقاً، ومنهنّ العجائز ذوات الأشكال الغريبة والمرعبة التي لا تشبه أشكال البشر.

لم تكن عندي نيّة لمساعدة هذه الفئة من النساء منذ البداية، لكنّها تولدت بعد الحادثة التي سأرويها الآن.

حدث هذا في وسط جولتنا عندما أتقنّا آلية معيّنة؛ دخلنا إلى مبنى جديد، وبينما كنّا نطرح أسئلتنا على صاحب الشقة، كان أحد زملائنا ينظّف مكاناً لكي يجلس عليه ويسجّل المعلومات، بينما ذهب آخر إلى كلّ أنحاء الشقة، وسأل كلَّ شخص على حدة، وأعطى التقرير للكاتب.

عندما دخلنا إلى إحدى شقق الدور السفلي، ذهب أحد الطلاب للبحث عن صاحبها، بينما بدأتُ بإجراء الاستبيان على كلّ الموجودين في الشقة. كانت الشقة مقسَّمة كما يأتي: في وسط المربع وعلى بعد ستة أرشينات[1]

هناك موقد تتفرّع منه أربعة فواصل على شكل نجمة تشكّل أربعَ غرف صغيرة. في الغرفة الأولى هناك أربعة أسرّة، ويعيش فيها عجوزان، رجل وامرأة. بعدها تتفرّع على شكل نجمة أربعة فواصل لتشكّل أربعَ غرف. يعيش في تلك الغرفة الطويلة صاحب الشقة، وهو شاب ذو مظهر جميل، وجهه

1 مقياس طول روسي قديم يساوي 71 سنتيمتراً.

شاحب مصفر. كان يرتدي معطفاً بنياً من الجوخ. على يسار الزاوية الأولى تقع الغرفة الثالثة، وفيها رجل نائم، يبدو أنّه مخمور، وامرأة ترتدي بلوزة وردية اللون، واسعة من الأمام وضيقة من الخلف.

دخل الطالب إلى غرفة ذلك الشاب، بينما توقّفتُ عند مدخل الغرفة لأجمع المعلومات من العجوزين. كان العجوز صانعاً في مطبعة، ولا يملك الآن قوت يومه. أمّا العجوز فكانت زوجة طباخ. عبرتُ إلى الغرفة الثالثة، وسألتُ المرأة التي ترتدي بلوزة عن الرجل النائم، فقالت إنّه ضيف. سألتها مَن تكون، فقالت إنّها فلاحة من موسكو.

- ماذا تعملين؟ ابتسمت المرأة، ولم تجبني.

- كيف تحصّلين رزقكِ؟ أعدت عليها السؤال ظناً منّي أنها لم تفهمه. قالت:

- أجلس في الحانة. لم أفهم ما قصدتْه، فسألتها من جديد:

- ومن أين تكسبين المال؟

لم تجب عن سؤالي واكتفت بالتبسّم. سمعنا أصوات ضحكات نسائية من الغرفة الرابعة، التي لم نكن قد دخلناها بعد. خرجَ ذلك الشاب من غرفته، وجاء نحونا. كان واضحاً أنه سمع أسئلتي وأجوبة المرأة. نظر بصرامة إلى المرأة وقال لي: «إنها عاهرة».

كان فخوراً بأنّه يعرف هذه الكلمة بمعناها المستخدم في الأوساط الرسمية، وينطقها بشكل سليم. وبعد أن قال هذه الكلمة، وهو يبتسم بطريقة رسميّة لي، توجّه إلى المرأة، وما إن نظر إليها حتى تغيّرت ملامح وجهه تماماً. حدّثها بسرعة، وبلهجة ازدراء، دون أن ينظر إليها، تماماً كما يتحدّث أيّ شخص مع كلبه:

«لماذا تقولين كلاماً فارغاً: «أجلس في الحانة!». تجلسين في الحانة، إذاً، قولي الحقيقة، وهي أنّكِ عاهرة (كرّر هذه الكلمة مرة أخرى). إنّها لا تعرف حتى اسمها».

أزعجتني طريقته في التحدّث معها. تدخّلت، وقلت له:

- يجب ألا نضع اللوم عليها ونوبّخها. لو عشنا كما يأمرنا الله لما أصبحتْ كذلك.

قال الشاب، وهو يتصنّع الابتسام:

- هكذا إذاً.

- يجب ألا نلومهنّ بل نشفق عليهنّ. هل هنّ مذنبات؟

لا أذكر ما قلته بالضبط، لكنّني أذكر أنّني استأت من لهجة الاحتقار التي تحدّث بها ذلك الشاب، صاحب الشقة، في ذلك المكان المليء بالنساء اللاتي سماهنَّ عاهرات، وتأسّفت لحالِ تلك المرة، وعبّرت عن تأسّفي لها، كما عبرت عن استيائي من كلام الشاب. وما إن انتهيت من كلامي حتى سُمع صوت فوق الأسرّة من تلك الغرفة التي سمعنا منها ضحكات النساء قبل قليل، وارتفع فوق الحاجز، دون أن يصل إلى السقف، رأس أشعث لامرأة شعرها مجعّد وعيناها منتفختان، وخلفه رأسُ امرأةٍ أخرى وثالثة... كان واضحاً أنهنّ صعدنَ فوق أسرّتهنَّ، ومددنَ رقابهنَّ، وحبسنَ أنفاسهنَّ، وراقبننا بصمت وباهتمام كبير.

ساد صمت حذر. الطالب، الذي ضحك قبل قليل مما يجري، أصبح جدياً، فيما غضب الشاب صاحب الشقة، وراح ينظر إلى الأسفل. لم تبدِ النساءُ الثلاث أيّ ردة فعل، ورحنَ ينظرنَ نحوي وينتظرنَ ما سيحدث. كنت مستاءً أكثر من الجميع. لم أتوقع أبداً أن تتسبّب كلمةٌ عابرة في كلّ هذا.

أصبح الوضع مشابهاً تماماً لساحة المقتلة المغطّاة بالعظام التي ترتجف إن لامست الروح، وعادت إلى حركتها من جديد[1].

قلتُ كلمة عابرة عن المحبة والشفقة، لكنّها أثّرت كثيراً فيهم، كما لو أنهم انتظروا سماعها لكي يتوقّفوا عن كونهم جثثاً تعود إلى الحياة من جديد. نظروا كلهم نحوي، وانتظروا ما سيحدث. انتظروا لكي أُسمِعَهم تلك الكلمات، وأقوم بتلك الأفعال التي تجعل العظام تلتصق بعضها ببعض، ويكسوها اللحم لتعود إليها الحياة، لكنني شعرت بأنني لا أعرف تلك الكلمات، وبأنني غير قادر على تلك الأفعال التي أستطيع من خلالها أن أكمل ما بدأته. شعرت في أعماق قلبي بأنني كذبت، وبأنني لن أستطيع قول أيّ كلمة أخرى، ورحت أسجّل في البطاقة كلّ أسماء وتفاصيل حياة كلّ ساكني تلك الشقة.

أثّرت فيّ هذه الحادثة، وجعلتني أفكر في مساعدة هؤلاء النساء أيضاً. بدا لي حينها، نتيجة الوهم الذي سيطر على تفكيري، أنّ مساعدتهنّ أمرٌ في غاية البساطة. قلت لنفسي: نحن نسجّل أسماءهنَّ، وعندما ننتهي من تسجيل الجميع، نعود لمساعدتهنّ (لم أحدّد مَن أقصد بقولي: نحن). تخيّلت أننا نحن من أوصلنا ونوصل الآن هؤلاء النساء إلى هذه الحال لعدّة أجيال قادمة، وسنفكّر، في يوم ما، في طريقة تمكّننا من تغيير أوضاعهنَّ، ولكن عندما أتذكّر فقط حديثي مع تلك المرأة الفاجرة، التي كانت تهدهد طفلاً أمّه مريضة، أستطيع أن أدرك أنّ افتراضي هذا هو نوع من الوهم.

---

1 في إشارة إلى قصة النبي حزقيال في الموروثات اليهودية. أخذه اللّه إلى بقعة واسعة، لعلها كانت مكاناً لمعركة أو مقتلة عظيمة، ورأى هناك عظاماً كثيرة، وأكثر من ذلك، يابسة، ما يدل على أنه قد انقضى عليها وقت طويل تحولت معه العظام إلى رميم، وسأل اللّهُ النبيَّ: أتحيا هذه العظام؟ ووقع النبي فى حرج كبير؛ إذ إنه بحسب فهمه البشري لا يمكن أن تقوم هذه العظام وتنهض مرة أخرى.

عندما رأينا تلك المرأة وهي تحمل طفلاً، اعتقدنا أنه طفلها. أجابت عن سؤالنا مباشرة بأنّها عزباء. لم تقل إنّها عاهرة. ذلك السيّد، صاحب الشقة، هو الوحيد الذي تلفَظ بهذه الكلمة الفظيعة. افتراضي أنّ لديها طفلاً جعلني أفكّر في إخراجها ممّا هي فيه فسألتها:

- هل هذا طفلكِ؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا، هو ابن تلك المرأة.

- ولماذا تحملينه إذاً؟

- هي طلبت مني ذلك. هي بين الموت والحياة.

ورغم أنّ افتراضي لم يكن صحيحاً، تابعت الحديث معها على المنوال نفسه. رحت أسألها من هي، ومن أين أتت، وكيف وصلت إلى هذه الحال. أجابت بكل بساطة ورحابة صدر عن أسئلتي، وروت لي قصتها. هي برجوازية صغيرة من موسكو. كان والدها صناعياً. تبنتها عمّتها بعد أن أصبحت يتيمة. كانت ترتاد الحانات خلسةً عن عمتها التي توفيت في ما بعد. عندما سألتها حول رغبتها في تغيير حياتها، بدا واضحاً أنّها لم تهتم أبداً بمثل هذا الأمر. كيف يمكن لشخص أن يهتمّ بشيء مستحيل التحقق؟ ابتسمت وقالت:

- من يأخذني وأنا أحمل الوثيقة الصفراء؟[1] قلت لها:

- قد تجدين من يبحث عن طباخة، أو أيّ عمل آخر.

خطرت لي فكرةُ بحثِها عن عمل؛ لأنها كانت امرأة شقراء قوية، ذات وجه مستدير يوحي بالعمق والطيبة. هذه هي مواصفات الطباخات. كان واضحاً جداً أن كلامي لم يرُقْ لها، فقالت وهي تضحك:

- طباخة؟ أنا لا أجيد حتى صناعة الخبز.

---

1 الوثيقة الصفراء هو تعبير عن الوثيقة التي كانت تُعطى رخصةً لممارسة الدعارة.

قالت إنها لا تجيد الطبخ، لكنني قرأت في ملامحها أنّها لا تريد أن تكون طباخة، وترى أن هذه المهنة لا تليق بها.

ضحّت هذه المرأة، بأبسط شكل ممكن، مثل الأرملة الإنجيلية[1]، بكلّ ما لديها، من أجل المرأة المريضة، لكنها لا تختلف عن رفيقاتها؛ فهي تنظر بازدراء إلى من يعمل في الطبخ، وتعدُّ هذه المهنة وضيعة. تربّت على أن تعيش، من دون أن تعمل، وأن تعيش تلك الحياة التي يعدّها الآخرون طبيعية بالنسبة إليها. هنا تكمن تعاستها، وتعاني، لهذا السبب، الآن مما هي فيه، وهذا ما أدى بها إلى الجلوس في الحانة.

من منّا، سواء أكنّا رجالاً أم نساء، سيصحح لها نظرتها الزائفة للحياة؟ أين هؤلاء المقتنعون بأنّ أيّ عمل هو أكبر قيمة من أيّ كسل وفراغ؟ أين هم من تترسّخ لديهم هذه القناعة، ويعيشون وفقاً لها، ويقدّرون الآخرين ويحترمونهم بما يتناسب مع قناعتهم هذه؟ لو أنني فكّرت حول هذا لاستطعت أن أدرك أنه لا أنا، ولا أي أحد من بين كل الذين أعرفهم، يستطيع أن يعالج هذا المرض.

كان بإمكاني أن أفهم أن تلك الرؤوس الثلاثة، التي ارتفعت فوق الحاجز، بدهشة وتأثر، عبّرت فقط عن دهشة النساء الثلاث من مشاعر التعاطف معهنّ، ولم يكن لديهنّ، بأيِّ حال من الأحوال، أيّ رغبة في تصحيح حياتهنّ الفاجرة. هنّ لا يرين في حياتهنَّ أيّ فجور، بل كل ما يرينه أنّ الناس يحتقرونهنّ ويشتمونهنَّ، لكنهنَّ لا يعرفنَ سبب هذا الاحتقار وهذه الشتائم، ولا يمكنهنَّ معرفته. بدأت حياتهنَّ على هذا النحو منذ طفولتهنَّ، وسط نساء فاجراتٍ مثلهنَّ، وهنَّ يعرفنَ هؤلاء النساء جيداً، وكنَّ دائماً ضروريات، وسيبقى وجودهنَّ ضرورياً للمجتمع إلى درجة أن بعض الموظفين الحكوميين مهمّتهم فقط تنظيم وقوننة وجودهنَّ. بالإضافة إلى ذلك، يدركنَ أنهنَّ يمتلكنَ

---

1 تعبير من الموروثات الدينية المسيحية يُقصد به أن تبرعات الفقراء الزهيدة هي أكبر وأكثر أهمية من تبرعات الأغنياء، لأنّ الفقراء يتبرّعون بكلّ ما يملكون.

السلطة والسيطرة على الناس، ويتفوقنَ في هذا غالباً على باقي النساء. يعتقدنَ أنّ مكانتهنَّ في المجتمع، بغضِ النظر عن الشتائم التي يسمعنَها بشكل دائم، يعترف بها الرجال والنساء والسلطة، ومن ثم، لا يمكنهنَّ أن يشعرنَ بالندم، أو بضرورة تغيير حياتهنَّ. حدّثني طالب في إحدى الجولات أنَّ هناك امرأة في إحدى الشقق تعرض بنتها البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً للبيع. ذهبت إلى تلك بنيّة إنقاذ تلك الفتاة. كانت المرأة وابنتها تعيشان في فقر مدقع. الأم صغيرة الحجم، شعرها أسود، في الأربعينيات من عمرها. كانت عاهرة، ولم تكن قبيحة الهندام فحسب، بل قبيحة بشكل فظيع. أجابت الأم عن أسئلتي غير المباشرة عن حياتهنَّ بعدائيّة وبعدم ثقة. أجابت باقتضاب، وكان واضحاً أنّها تراني عدوّها الذي ينوي إلحاق الأذى بها. لم تجب الفتاة عن أيّ سؤال دون أن تنظر إلى عينيّ والدتها. بدا واضحاً أنّها تثق بها ثقة تامة.

لم تثيرا فيَّ أيّ شفقة، بل الاشمئزاز، لكنّني رأيت أنَ إنقاذ الطفلة ضروري، وعليّ أن أستثير عواطف النساء اللاتي يشعرنَ بالأسف على حال هذه المرأة وأمثالها من النساء الأخريات، وأرسلهنّ إلى هنا. لو تفكّرت في كلَ ماضي المرأة الطويل، وكيف أنها أنجبت الطفلة، وأرضعتها، وربتها وأطعمتها وهي في الحالة التي رأيتها، وربما بلا أدنى مساعدة من الناس، وبتضحيات كبيرة، ولو أنني فكرت أيضاً في رؤية الحياة التي تشكّلت عند هذه المرأة؛ لأدركت أن قرارها لم يكن فيه أيّ جانب سيّئ أو غير أخلاقي، وأنّها فعلت كلّ ما تستطيعه؛ أي إنّها فعلت ما تعدّه الحل الأمثل بالنسبة إليها. يمكن أخذ الفتاة من أمها بالقوة، ولكن لا يمكن إقناع الأم بأنّها مذنبةٌ ومخطئةٌ لأنّها عرضت ابنتها للبيع. إذا كان لا بدّ من إنقاذ، فيجب إنقاذ الأم أولاً، إنقاذها من رؤيتها الزائفة للحياة، التي يؤيدها الجميع، والتي جعلت المرأة تستطيع العيش بلا زواج؛ أي من دون أن تنجب أطفالاً، وأن تعمل وفق ما تتطلّبه مشاعرها فحسب. لو أنني فكرت في هذا؛ لأدركت أنَ الأغلبية من

تلك النساء اللاتي أردت إرسالهنّ لإنقاذ تلك الفتاة، بالإضافة إلى أنهنّ لا ينجبنَ الأطفال، ويعشنَ وفق ما تتطلبه مشاعرهنَّ؛ فإنّهن يربينَ بناتهنَّ لكي يسلكنَ المسار ذاته في حياتهنَّ، فواحدة ترسل ابنتها إلى الحانة، وأخرى إلى الساحات وحفلات الرقص. إن نظرة هؤلاء النساء إلى الحياة هي ذاتها، وهي تكمن في إشباع شهوة الرجل، ولكي يشبعنَ هذه الرغبة، يجب على الرجال إطعامهنّ وكسوتهنّ. كيف لمثل هذه النساء أن يغيّرن حياة تلك المرأة وابنتها؟

خير زائف

كانت علاقتي بالأطفال أكثر دهشة. اهتممت بهم بصفتي محسناً، ورغم رغبتي في إنقاذ هؤلاء الأبرياء، الذين تُقتل طفولتهم في هذا الملجأ السيِّئ، سجلت معلوماتهم لكي أعود إليهم في ما بعد.

أكثر مَن أدهشني من بين هؤلاء الأطفال طفلٌ عمره اثنا عشر عاماً، اسمه سيريوغا. شعرت بالأسف الشديد لحال هذا الطفل الذكي والنشيط، الذي عاش عند أحد الاسكافيين بلا مأوى؛ لأن صاحبه في السجن، وأردت أن أحسن إليه.

سأروي الآن كيف انتهى إحساني إليه؛ لأن قصتي مع هذا الطفل هي أفضل مثال يظهر الجانب الزائف في عمل الخير. أخذته إلى بيتي ووضعته في المطبخ؛ حيث لا يمكنك أن تضع طفلاً مُقمّلاً خارجاً من مأوى فاسد مباشرةً مع أطفالك. عددتُ نفسي طيباً وصالحاً جداً رغم أنّي لم أطعمه بنفسي، بل خدمنا هم من أطعموه، ولأنني أعطيته بعض الملابس القديمة. أقام عندنا مدة أسبوع، وخلال هذا الأسبوع، ذهبت أكثر من مرة خلال جولاتي إلى أحد الاسكافيين، واقترحت عليه أن يأخذ الطفل ويعلّمه صناعة الأحذية. دعاه أحد المزارعين، أثناء زيارته إلي، إلى الريف للعمل والعيش مع أسرته. رفض الصبي واختفى بعد أسبوع. ذهبت إلى مبنى رجانوف للبحث عنه. كان قد عاد إلى هناك، لكنني عندما ذهبت إلى هناك لم أجده؛ حيث ذهب لليوم الثاني إلى حديقة حيوان في منطقة بريسنيسكي للبحث عن عمل هناك مقابل ثلاثين كوبيكاً في اليوم مع بعض الهمج الذين يقودون فيلاً.

كانوا يقدّمون بعض العروض للجمهور. ذهبت إلى هناك، ولكن بدا واضحاً أنّه تهرّب من مقابلتي. لو أنني تأمّلت حياة هذا الصبي وحياتي، لأدركت أنّ هذا الصبي منحرف؛ لأنه تذوّق طعم الحياة السعيدة من دون بذل أيّ جهد وبنبذ العمل. حسناً، وأنا عندما أردت أن أحسن إليه وأغيّر حياته، أخذته إلى بيتي، وماذا رأى هناك؟ رأى أولادي الذين يكبرونه ويصغرونه ويجايلونه، والذين لا يخدمون أنفسهم على الإطلاق، بل هناك من يقدّم الخدمة لهم، بالإضافة إلى ذلك، كانوا يلوّثون ويخربون كلّ ما حولهم، ويأكلون الدهون اللذيذة والحلويات، ويكسرون الأواني المنزلية، ويسكبون ويتركون طعاماً للكلاب لو رآه هذا الصبي لعدّه طعاماً لذيذاً وشهيّاً. لمّا كنت قد أخرجته من المأوى إلى مكان لائق، فمن الطبيعي أن ينظر إلى الحياة وفق المفاهيم التي تتناسب مع ذلك المكان، ومن ثَمَّ، أحد هذه المفاهيم أن الحياة جميلة إذا لم يقم بأيّ عمل، وإذا تناول ما لذّ وطاب من الطعام والشراب. في الحقيقة هو لم يكن يعلم أنّ أولادي يبذلون جهوداً كبيرة وهم يدرسون الاستثناءات والحالات الشاذة في اللغتين اللاتينية واليونانية، ولم يستوعب المغزى من كلّ هذه الجهود، ولا يمكن أن نغفل حقيقة أنه لو أدرك الهدف من دراسة أبنائي، فإنّ هذا المثال سيؤثّر كثيراً فيه، وسيدرك حينها أن أولادي ينشَؤون بطريقة لا يعملون فيها الآن، ويستمرون فيها في المستقبل، وعندما يحصلون على شهاداتهم فسوف يعملون لفترات أقل، ويستمتعون بخيرات الحياة بشكل أكبر. هو أدرك كلّ هذا، ولم يذهب إلى الفلاح لكي يرعى المواشي، ويأكل معه البطاطا مع الكفاس[1]، بل ذهب إلى حديقة الحيوانات بزيٍّ بربري وهو يقود الفيل مقابل ثلاثين كوبيكاً.

---

1 الكفاس هو مشروب روسي تقليدي مصنّع من خميرة الخبز. ويصنّف في روسيا على أنه مشروب غير كحولي.

كان عليّ أن أفهم خرقي وسخافتي حين أربّي أولادي على الكَسل التام والعيش الرغيد، ثمَ أسعى لتغيير حياة الآخرين وحياة أطفالهم، وهم يزدادون سوءاً في المكان الذي أسمّيه مأوى؛ أي في بناء رجانوف، وفي الوقت نفسه، يعمل ثلاثة من بين كلّ أربعة هناك لأجل أنفسهم ولأجل الآخرين، ولكنني لم أفكر في أيَ شيء من هذا القبيل.

هناك الكثير من الأطفال في بناء رجانوف يعيشون في حالة يُرثى لها؛ هناك أولاد العاهرات، واليتامى، والأطفال المشردون في الشوارع الذين يأتي بهم المتسولون. كانوا كلهم مثيرين جداً للشفقة. إنّ تجربتي مع سيريوغا وضّحت لي أنني، بالطريقة التي أعيشها في حياتي، غير مؤهّل لمساعدتهم. لاحظت وأنا أراجع تصرفاتي، في الفترة التي قضاها سيريوغا في بيتنا، أنني أخفي عنه حياتنا، وحياة أولادنا بشكل خاص. شعرت بأن كلّ محاولاتي لتوجيهه نحو الحياة الفاعلة والمثمرة تأثرت بشكل سلبي بما رآه من أمثلة عن حياتنا وحياة أولادنا.

من السهل جداً أن تأخذ طفلاً من عاهرة أو من متسوّل، ومن السهل كذلك، عندما تمتلك المال، أن تغسله وتنظّفه وتلبسه ثياباً نظيفة وتطعمه وتدرّسه العلوم المختلفة أيضاً، ولكن، في المقابل، ليس صعباً فحسب، بل يستحيل علينا أن نعلّمه كيف يأكل من عرق جبينه، ونحن لا نكسب قوتنا بجهدنا نحن، بل نفعل العكس؛ لأن حياتنا والمساعدات المادية التي نقدّمها له، والتي تُعدُّ أشياء زهيدة بالنسبة إلينا، ليست أمثلة جيدة له، بل نحن نعلمه بطريقة معاكسة لما نريده منه.

يمكنك أن تربي جرواً وتهذّبه وتطعمه وتعلمه كيف يمسك الأشياء ويتبعك وتقضي وقتاً ممتعاً معه، ولكن لا يكفي أن تعتني بإنسان وتطعمه وتعلمه اليونانية وغيرها، بل يجب أن تعلّمه كيف يعيش؛ أي أن يأخذ أقلّ مما يعطي الآخرين، ولكن من خلال أسلوب حياتك لا يمكنك أن تعلمه إلا كلّ ما هو مناقض لذلك، سواء أخذته إلى بيتك أم إلى دار الأيتام.

كيس مثقوب

لم أعد أشعر بالتعاطف مع الآخرين وبالنفور والتقزّز من نفسي؛ هذه المشاعر التي عايشتها في مبنى لبينسكي. كانت لديّ رغبةٌ جامحةٌ في إنجاز ما بدأت به؛ أي فعل الخير لهؤلاء الناس الذين سأقابلهم هنا. حدث ما لم أتوقعه؛ حيث كنت أعتقد أنّ عمل الخير وتقديم المال إلى المحتاجين هو سلوك إيجابي، ويجب أن يجعلني أحبّ الناس، لكنّ ما حدث هو العكس؛ حيث تسبّب هذا في سوء النية وانتقاد الآخرين.

رأيت في الجولة الأولى مساءً مشهداً مشابهاً لذلك الذي رأيته في مبنى لبينسكي، لكنه لم يترك في نفسي ذلك الانطباع الذي تركه مبنى لبينسكي، بل أحدث في نفسي شعوراً مختلفاً.

بدأ هذا عندما وجدت في إحدى الشقق واحداً من أولئك البؤساء الذين يحتاجون إلى مساعدة عاجلة. وجدت امرأة جائعة لم تأكل منذ يومين.

حدث هذا عندما سألت عجوزاً في إحدى الشقق الفارغة تقريباً عن وجود أناس فقراء جداً، وليس لديهم ما يأكلونه. تفكّرتِ العجوز وذكرت لي اسمين، ثمّ بدا عليها وكأنّها تتذكر أشخاصاً آخرين:

- نعم، وأشارت إلى إحدى الأسرّة المشغولة، وقالت: هنا تستلقي امرأة، حتى الشاي لم تتناوله.

- هل هذا صحيح حقاً؟ ومن هي هذه المرأة؟

- كانت عاهرة، والآن لا أحد يقبلها في العمل، وليس هناك مكان تذهب إليه. صاحبة الشقة تأسّفت على حالها، والآن تريد أن تطردها...

صاحت العجوز: «أغافيا... أغافيا...».

مشينا نحو ذلك السرير، ورأينا امرأة نصف شعرها أشيب، شعثاء، ونحيلة مثل هيكل عظمي. كانت ترتدي قميصاً واحداً ممزقاً وقذراً، وتنظر إلينا بعينين برّاقتين ثابتتين.

تفحّصتنا بعينيها الثابتتين، وسحبت سترتها بيدها النحيلة لكي تغطي جلد صدرها الذي لم يكن يستره قميصها الممزق، وصرخت:

- ماذا؟ ماذا؟

سألتها عن حالها، لكنّها استغرقت وقتاً طويلاً حتى فهمت سؤالي وقالت:

- لا أعرف. سيطردونني.

سألتها بصوت خافت، دون أن أكتب شيئاً، إن كان صحيحاً أنّها لم تأكل شيئاً، فأجابت بسرعة وبارتباك، دون أن تنظر إلي:

- لم آكل أيّ شيء منذ يوم أمس.

تأثّرت بحال هذه المرأة، ولكن ليس كتأثّري في مبنى لبينسكي؛ حيث شعرت هناك بالخجل من نفسي بسبب شفقتي على أولئك البؤساء. أما هنا فشعرت بالسعادة، لأنني وجدت أخيراً من كنت أبحث عنه، وجدت شخصاً جائعاً.

أعطيتها روبلاً، وأذكر كيف شعرتُ بسعادةٍ كبيرة حيث رآني الآخرون وأنا أعطيها. العجوز بدورها، وبعد أن رأت المشهد، طلبت مني نقوداً. أعطيتها وأنا لم أتأكّد بعدُ من استحقاقها للنقود. رافقتني العجوز إلى الباب، وسمع كلّ الواقفين في الممر كيف شكرتني. لعلّ أسئلتي التي طرحتها حول الفقر رفعتْ سقف توقّعات بعضٍ منهم؛ حيث طلب مني بعضهم نقوداً في الممر.

بدا واضحاً جداً أنّ بعض من سألوني كانوا مخمورين. أثاروا في نفسي مشاعر سلبية، لكن لمّا كنت قد أعطيت العجوز، لم أكن محقاً في رفض إعطائهم كذلك، وأعطيتهم. وبينما كنت أعطيهم، جاء أشخاص جدد، ولحق بهم آخرون، وحدثت بلبلة في كلّ الشقق. وقف الكثيرون على الدرج وفي الأروقة وهم يراقبونني. عندما خرجت إلى الفناء، ركض صبيّ بسرعة من الدرجِ، وهو يدفع الناس. لم يرَني، وصاح بسرعة: «أعطى أغاشكا (أغافيا) روبلاً». انضم الصبي، وهو يركض نحو الأسفل، إلى الجموع التي تمشي خلفي. خرجتُ إلى الشارع، وطلب منّي أشخاصٌ من فئات مختلفة نقوداً. أعطيتهم ما توافر لدي من القطع النقدية الصغيرة، وتوجّهت نحو متجر مفتوح، وطلبت من صاحبه أن يصرف لي عشرة روبلات، وهنا تكرر المشهد الذي رأيته في مبنى لبينسكي.

هنا حدثت بلبلة كبيرة؛ تجمع الرجال والعجائز والخدم والأولاد عند المتجر، ومدّوا أياديهم. أعطيتهم، وسألت بعضاً منهم عن حياته، ودوّنت معلوماتهم في مفكَرتي. كان التاجر يقلّب زوايا ياقة معطفه الفرو إلى الداخل، ويجلس مثل صنم، ويسترق النظر أحياناً إلى الناس، ثم ينظر في اتجاه آخر.

شعرت بالرعب من الفقر الذي رأيته في مبنى لبينسكي، ومن أوضاع الناس المأساوية هناك. شعرت بالذنب، وتولّدت لديّ رغبة وإمكانيّة أن أكون أفضل. هنا تكرر المشهد ذاته، لكنّه أحدث في نفسي مشاعر مغايرة تماماً. شعرت أولاً بالضغينة تجاه الكثيرين من أولئك الذين ألحّوا عليّ في طلبهم، وثانياً شعرت بالقلق حول الانطباع الذي أخذه عنّي الحراس وأصحاب المتاجر هناك.

شعرت بالضيق الشديد بعد عودتي إلى البيت في ذلك اليوم، وبأنّ ما فعلته هو الحماقة بعينها، ولكن، كما يحدث عادةً بعد كلّ اضطراب في داخلي، تحدثت كثيراً عن عملي الذي شرعت فيه، وكأنني لم أشكّ أبداً في نجاحه.

ذهبت بمفردي في يوم آخر إلى كلّ أولئك الذين دوّنت أسماءهم، والذين رأيت أنّهم الأكثر حاجة من بين الجميع، حيث بدا لي أنّ من السهل تقديم المساعدة لهم. كما قلت سابقاً، إنّني لم أساعد أيّ أحدٍ منهم. وجدت أنّ مساعدتهم أصعب مما توقعت. ومهما اختلف السبب، هل كان الأمر صعباً للغاية أو سهلاً، لم أتقنه، بل إنّني تسببت في الضجر لأولئك الناس، ولم أساعد أيّ أحدٍ منهم. ذهبت عدة مرات إلى مبنى رجانوف قبل انتهاء عملية الإحصاء السكاني، وفي كل مرة تكرر المشهد نفسه: حيث اجتمع حولي الكثيرون، وطلبوا مني بإلحاح نقوداً، ووجدت نفسي ضائعاً وسط الزحام. شعرت باستحالة فعل شيء ما؛ لأن أعدادهم كانت كبيرة جداً، ولأنني شعرت بسوء النيّة نحوهم بسبب أعدادهم الكبيرة، وبالإضافة إلى ذلك، لم يُثِر أيٌّ منهم تعاطفي معه. شعرت بأنّ كلّاً منهم على حدة لا يقول الحقيقة أو يقولها منقوصة، ولا يرى فيّ إلا محفظة يسحب منها النقود، وبدا لي، في أحيان كثيرة، أنّ هذه النقود التي يبتزّوني بها لن تساهم في تحسين وضعهم، بل على العكس، ستزيد حالهم سوءاً. كلما تجولت أكثر في تلك الأماكن، وتحدثت مع سكانها الأصليين، توضحت لي استحالة فعل شيء ما، لكنني لم أتخلَّ عن عهدي الذي قطعته على نفسي، واستمررت في مشروعي الذي بدأته حتى الليلة الأخيرة من عملية الإحصاء السكاني.

أشعر بالخزي بشكل خاص عندما أتذكّر الجولة الأخيرة. كنت أذهب وحدي عادةً، ولكن في تلك المرة كنّا عشرين شخصاً. بدأ الراغبون في المشاركة في تلك الجولة الأخيرة بالتوافد منذ الساعة السابعة. كانوا في أغلبيتهم من غير معارفي؛ طلاباً وضابطاً واثنين من معارفي من النبلاء كانا قد قالا لي بالفرنسية: «إنه مثير للاهتمام»، وطلبا مني قبول مشاركتهما بين موظفي الإحصاء السكاني.

ارتدى هذان الرجلان ملابس فاخرة، ومعاطف ثمينة، وأحذية عالية باهظة الثمن، وبتلك الأطقم، التي كانوا يخرجون بها إلى الخارج أو إلى الصيد، وكانت هذه الألبسة، في رأيهم، مناسبة أكثر من ألبستهم العادية. أخذوا معهم أيضاً مفكَرات من نوع خاص، وأقلام رصاص ذات جودة عالية.

خرجوا بتلك الهيئة المثيرة للانتباه التي يذهبون بها إلى الصيد أو المبارزات أو الحرب. كان واضحاً جداً من أشكالهم حجم الحماقة والتصنّع في طبقتنا؛ حيث كنّا جميعاً نتّصف بالحماقة والتصنع.

وقبل أن نغادر عقدنا اجتماعاً يشبه غرفة عمليات عسكرية، وتناقشنا حول: من أين نبدأ، وكيف نتقاسم الأدوار. الاجتماع كان مشابهاً تماماً لاجتماعات اللجان والاتحادات والمجالس الحكومية؛ حيث لم يتحدّث كلّ مشارك عن شيء ما جديد أو ضروري، لكنّه ابتدع كلاماً لا يفصله ويميّزه عن البقية.

شعرت بالحرج لأنّه كان لزاماً عليّ أن أعيد التذكير بالإحسان؛ أي أن نراقب ونسجل، أثناء جولتنا الإحصائية، كلّ هؤلاء الذين يعانون من الفاقة الشديدة. تحرّجت دائماً من الحديث عن هذا الأمر، ولكن هنا، وسط استعداداتنا وحماستنا، تمكّنت بصعوبة من قول ما أريده. أنصت الجميع إلى ما قلته، وبدت عليهم علامات الحزن، وأبدوا تأييدهم لي كلامياً، ولكن كان واضحاً أنّهم مقتنعون بعدم جدوى ما نفعله، واستمرّ هذا الحال حتى حان موعد ذهابنا.

دخلنا إلى استراحة معتمة، نادينا النادلين وفردْنا ملفاتنا. عندما لاحظنا أن الناس قد علموا بمجيئنا، وأنّهم خرجوا من أماكنهم، طلبنا من صاحب المبنى أن يغلق المداخل، وذهبنا إلى الفناء لإقناع من أرادوا الهروب بأن لا أحد سيطلب منهم إبراز وثائقهم الثبوتية. انتابني شعور غريب وثقيل وأنا أرى هؤلاء النزلاء القلقين من قدومنا. كانت ثيابهم ممزقة، ولا تستر نصف

أجسادهم، وبدوا لي طويلي القامة عندما أُضيء المصباح في الفناء المظلم. كانوا خائفين ومرعوبين، ووقفوا في صفوف، وهم يستمعون إلى وعودنا، وبدا أنهم غير واثقين بنا، وأنهم مستعدون، مثل حيوان تمّ اصطياده، لفعل أيّ شيء في سبيل التخلص منا.

أشخاص من فئات مختلفة: ضباط يخدمون في المدن أو القرى، ومحققون وقضاة، يلاحقونهم في المدن والقرى والشوارع والطرق والحانات وفي الملاجئ الليلية، واجتمعوا كلّهم الآن، بعد أن أغلقوا البوابات لكي يحصوا عددهم فحسب. يصعب عليهم تصديق هذا، وحالهم يشبه حال الأرانب، التي لا يمكنها أن تصدّق أنّ الكلاب ما أتت لكي تأكلها، ولكن لكي تحصي عددها. ولمّا كانت الأبواب مغلقة، فإن هؤلاء الخائفين عادوا إلى أماكنهم، بينما توزّعنا نحن في مجموعات، وبدأنا العمل. كان برفقتي اثنان من النبلاء وطالبان. مشى أمامنا، في العتمة، فانيا وهو يرتدي معطفاً وسروالاً أبيض ومعه فانوس، ومشينا خلفه. قصدنا الشقق التي أعرفها. كنت أعرف المكان جيداً، وبعض ساكنيه كذلك، ولكنّ أغلبيتهم كانوا جدداً. كان المشهد جديداً وفظيعاً، وأكثر فظاعة مما رأيته في مبنى لبينسكي. كانت الشقق كلها ممتلئة، والأسرّة مشغولة، وغالباً ما اشترك كلّ شخصين في سرير واحد. كان المشهد مرعباً من حيث الضيق الشديد، ومن حيث اختلاط الرجال بالنساء. نامت النساء اللاتي لم يكنّ في حالة سكر شديد مع الرجال. نامت الكثير من النساء ومعهنّ أطفال في أسرّة ضيقة مع رجال غريبين. كان مشهد هؤلاء الفقراء فظيعاً، وهم يعانون من القذارة وثيابهم ممزّقة، ويسيطر عليهم شعور الخوف. كانت أعدادهم كبيرة جداً. امتلأت شقة بهم، ثمّ شقة أخرى، وثالثة، وعاشرة، وعشرون... ولا نهاية لهذه الشقق. تكررت الظروف ذاتها في كلّ مكان؛ حيث انتشرت الرائحة الكريهة، والشعور بالكتم والاختناق والضيق، واختلاط الجنسين والسكارى من الرجال والنساء،

إلى درجة الاختلال العقلي؛ اختلطوا بعضهم ببعض، كما سادت مشاعر الخوف والذنب والخضوع عند الجميع، وعاد إليّ من جديد شعور وجع وألم الضمير، كما كان في مبنى لبينسكي، وأدركت أنَ ما بدأت به كان نوعاً من التفاهة والحماقة، ومن ثَمَّ لا يمكن مواصلته، لذا لم أدوّن أي اسم، ولم أسألهم أيّ شيء؛ لأنني عرفت أن لا شيء سينتج عن هذا.

كان شعوراً مؤلماً جداً لي. تصرّفت في مبنى لبينسكي بصفتي شخصاً رأى فجأةً جرحاً بليغاً على جسد شخص آخر، وشعر بالأسف والخجل من نفسه؛ لأنه لم يشفق عليه في السابق، لكنَه مازال يأمل مساعدة المريض، لكنني هنا مثل طبيب جاء إلى المريض ومعه العلاج، وكشف عن الجرح، ولكنه أساء للمريض، ويجب أن يعترف لنفسه بأنَ كلَ ما فعله هو بلا جدوى، وأنَ دواءه غير مناسب للمريض.

خيبة أمل

كانت الجولة الأخيرة هي الضربة الأخيرة، التي قضت على كلّ الوهم الذي كنت فيه. اقتنعت، بلا أدنى شك، بأنّ ما أقوم به ليس حماقة فحسب، بل هو شر وسوء كذلك.

ولكن بغضّ النظر عن إدراكي هذه الحقيقة، بدا لي عدم قدرتي على الإعراض عن عملي، وأن عليّ أن أستمر فيه لسببين: الأول أنني أنعشت آمال الفقراء من خلال مقالي الذي كتبته وزيارتي ووعودي، والسبب الثاني أنني حركت مشاعر المحسنين، من خلال مقالي أيضاً وأحاديثي؛ المحسنين الذين وعد الكثير منهم بالمشاركة سواء بالعمل أم بالمال، وتوقّعت أنني سأتوجه إلى نفسي وإلى الفقراء والأغنياء، لكي أقول إنّني قادر على إنجاز ما أخطّط له.

بالنسبة إلى الطلبات التي تلقّيتها من المحتاجين أقول ما يأتي: تلقّيت مئات الرسائل، وكانت كلّها من الفقراء الأغنياء إن جاز التعبير. استجبتُ لبعض الطلبات، وزرت أصحابها، بينما لم أجب على الرسائل الأخرى. لم أستطع فعل أيّ شيء في أيّ مكان كان. كلّ الطلبات التي تلقّيتها كانت من أولئك الذين يعانون من وضع خاص (أقصد بهذه التسمية الأشخاص الذين يأخذون من الآخرين أكثر ممّا يعطون)، الذين فقدوا وضعهم الجيد، ويريدون العودة إليه من جديد.

أحدهم كان يريد مئتي روبل لكي ينقذ تجارته الخاسرة، ولكي يربّي أولاده، وآخر يريد أن يفتتح مشروعاً للتصوير، وثالث لكي يسدّد ديونه ويشتري ملابس مناسبة، ورابع بحاجة إلى بيانو لكي يتقن العزف عليه،

ويعطي دروساً مأجورة للآخرين لكي يطعم أولاده. طلب أكثرهم المساعدة، دون أن يحددوا المبلغ الذي يحتاجون إليه، ولكن عندما اضطرّوا إلى شرح تفاصيل احتياجاتهم، ازدادت الاحتياجات بقيمة المساعدة نفسها، ولم يكن لديهم ولا يمكن أن يكون لديهم اكتفاء. أكرّر أنّ هذا حدث غالباً بسبب عدم كفاءتي في مثل هذا الأمر، ولكنّني لم أعطِ أيّ أحد، بغضّ النظر عن رغبتي في العطاء في بعض الأحيان.

أما في ما يخص تفاعل المحسنين معي، فإنني تفاجأت ودُهشت مما حدث. لم أتسلّم روبلاً واحداً أوزّعه على الفقراء من كلّ الذين وعدوني بتقديم مساعدات نقدية، وحتى من أولئك الذين حدّدوا المبلغ الذي سيتبرّعون به. لو أنّهم أوفوا بوعودهم لاستطعت أن أعطي ألف شخص بمعدّل ثلاثة روبلات لكلّ منهم، ولكن لا أحد منهم تذكّر وعده السابق لي، ولم يعطني أيّ منهم حتى كوبيكاً واحداً. الذين أعطوا نقوداً هم الطلاب فقط؛ حيث تبرّعوا بالمبالغ التي استحقّوها أجرةً لعملهم في الإحصاء السكاني، وكانت تساوي كما أذكر اثني عشر روبلاً.

وهكذا، إنّ مشروعي، الذي يحتاج إلى عشرات الآلاف التي اعتقدت أنّ الأغنياء سيتبرعون بها، وأنّها سوف تنتشل مئات وآلاف الأشخاص من الفقر والفساد؛ اقتصر على توزيعي عدّة عشرات من الروبلات لأولئك الأشخاص الذين طلبوا منّي المساعدة، وبقي لديّ اثنا عشر روبلاً كان قد تبرَع بها الطلاب، وخمسة وعشرون روبلاً كانت مكافأة لي لم أكن أعلم بها من مجلس المدينة على إدارتي في عملية الإحصاء السكاني، ولا أدري حقاً لمن أعطيها. مكتبة سُر مَن قرأ

انتهى العمل، وقبل أن أسافر إلى الريف. ذهبتُ، في صباح يوم الأحد، وقبل أسبوع المرافع[1]، إلى مبنى رجانوف، لكي أتخلّص من السبعة والثلاثين روبلاً قبل مغادرتي موسكو، وتوزيعها على الفقراء. مررت على من أعرفهم في تلك الشقق، ووجدت هناك مريضاً واحداً فقط، وأعطيته خمسة روبلات. لم يكن هناك من يستحقّ العطاء غيره. بطبيعة الحال، الكثيرون راحوا يطلبون مني إعطاءهم، ولمّا كنت لا أعرفهم، ولم أتعرّف إلى أوضاعهم بعد، قررت أن أستشير صاحب المكان، إيفان فيدوديتش، لكي يرشدني إلى من يستحقون أن أوزّع عليهم اثنين وثلاثين روبلاً. كان اليوم الأول من أسبوع المرافع. ارتدوا جميعاً أفضل ما لديهم، وكانوا متخمين، والكثير منهم كانوا سكارى.

وقف رجل في الفناء، عند زاوية المبنى. كان عجوزاً يتاجر بالأشياء العتيقة، يرتدي قفطاناً ممزقاً وحذاءً بالياً، ولايزال نشيطاً. كان يضع ما يجمعه من حديد وجلد وأشياء أخرى في سلة، ويغني أغنية جميلة بصوته القوي الجميل. تحدثت معه. عمره سبعون عاماً، وحيد، ويتعيش من الأشياء القديمة، ولم يقتصر على عدم الطلب، بل أكد أنّه متخم ومخمور. سألته عن أشخاص بحاجة ماسة إلى المساعدة، فقال إنّه لا أحد يستحقّ المساعدة غير المخمورين والعاطلين، لكنّه عندما عرف سبب سؤالي طلب مني خمسة كوبيكات، وذهب إلى الحانة ليشتري شراباً. ذهبت إلى الحانة عند إيفان فيدوديتش لكي يرشدني كيف أوزع النقود الباقية لدي. كانت الحانة ممتلئة. السكارى انتقلوا من باب إلى آخر بملابسهم الأنيقة. كانت كلّ الطاولات

1 أسبوع المرافع أو أسبوع الماسلينيتسا أو أسبوع السمن هو احتفال روسي سلافي يرجع تاريخه إلى عصر الوثنية السلافية، وقد عدّت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أسبوع المرافع من أعيادها؛ حيث إنّ هذا الأسبوع يأتي مباشرة قبل الصوم الأرثوذكسي الكبير .ويحظر المذهب الأرثوذكسي في هذا الأسبوع تناول اللحوم. أمّا الألبان فيمكن تناولها بكثرة. ويشتقّ لفظ الماسلينيتسا من كلمة ماسلو (السمن) الروسية.

مشغولة. كان هناك الكثير من المخمورين، وفي غرفة صغيرة عُزِفت الموسيقا؛ حيث رقص شخصان على أنغامها.

أمر إيفان فيدوديتش، احتراماً لي، بإيقاف الموسيقا، وجلس معي على طاولة غير مشغولة.

طلبت منه، لمّا كان يعرف الذين يقيمون عنده، أن يدلني على أكثر الأشخاص احتياجاً إلى المال؛ حيث يجب عليّ توزيع المال الذي كُلفت بتوزيعه. إيفان فيدوديتش، صاحب الروح الجميلة (الذي توفي بعد عام)، رغم أنه كان مشغولاً بتجارته، ترك كل شيء، وجلس يستمع إلى ما سأقوله له. فكّر قليلاً، وبدا شعوره بالحيرة واضحاً. سمع حوارنا مسنٌّ يعمل نادلاً هناك، وبدأنا باستعراض الأسماء؛ حيث كنت أعرف بعضاً من المحتاجين، لكننا لم نتفق.

- بارامانوف. اقترح النادل اسمه.

- يحدث أن لا يجد بعض ما يأكله، لكنه يشرب.

- وماذا إذاً؟

- سبيريدون إيفانوفيتش. لديه أطفال. وضع إيفان فيدوديتش علامة استفهام حول اسم سبيريدون إيفانوفيتش.

- أكولينا. هي تأخذ معاشاً. وهناك رجل ضرير.

اعترضت على هذا الاسم؛ لأنني رأيته قبل قليل. كان ضريراً عمره ثمانون عاماً بلا عائلة أو أقارب. يبدو للوهلة الأولى أنَ وضعه هو الأكثر سوءاً. كان يستلقي على سريره الوبري العالي، وهو مخمور، ولم يكن يراني، وراح يشتم جارته بلهجة حادة، وبأبشع وأقذر الكلمات. ذكروا أيضاً اسم طفل مقطوع اليدين مع أمه. لاحظت أن إيفان فيدوديتش يجد صعوبة كبيرة لكي يرضي ضميره في تحديد الأسماء، وهو يعرف أنّ هذه النقود، بغض النظر عمّن سيتسلمها، ستعود إليه، وستُصرف في الحانة.

كان عليّ أن أتصرف في الروبلات الاثنين والثلاثين التي تبقت عندي؛ وزعنا نصفها، بطريقة ما، وبشعور بالذنب. كان الأغلبية ممن وزعناها عليهم يرتدون ملابس أنيقة، ولم نجد صعوبة في البحث عنهم، فقد كانوا موجودين في الحانة. جاء الطفل الفاقد يديه، وهو يرتدي حذاء له ثنيات، وقميصاً أحمر وبلوزة.

وهكذا انتهى نشاطي الخيري، وذهبت إلى الريف، وأنا مستاء من الجميع، كما يحدث دائماً عندما أرتكب حماقة ما. انتهى عملي الخيري. أما أفكاري ومشاعري، فبالإضافة إلى أنها استمرت في التدفق، تضاعفت معها قوتي الداخلية.

السكّين المُثلّمة والسكين الحادّة

ما تفسير كل هذا الذي حدث؟

كانت تربطني الكثير من العلاقات مع الفقراء في الأرياف. ليس من باب التواضع، وخلافاً للكبرياء، ولكن لكي أقول الحقيقة التي توضح كل أفكاري ومشاعري؛ أقول، إنني لم أفعل إلا القليل من أجل الفقراء في الريف، ولم تُطلب مني إلا بعض الأشياء المتواضعة، التي كانت كافية لتقديم الفائدة للناس، وصنعت حولي جواً من الحب والتشارك مع الناس كان مهدئاً لشعوري المزعج بعدم أهليّتي للحياة بسبب ترفي الزائد. ذهبت إلى المدينة، وكلي أمل في أن أعيش في مثل هذا الجو، لكنني وجدت فيها حاجة من نوع آخر. كانت الحاجة في المدينة أقل مصداقية، وأكثر تطلّباً وقسوة من الحاجة الريفية. أهم ما ميزها أنها تجمعت في مكان واحد يعج بالناس المحتاجين، وأحدثت في نفسي انطباعاً فظيعاً. خلّف انطباعي الأول للمشهد، الذي رأيته في مبنى لبينسكي، شعوراً بتفاهة حياتي. كان شعوراً صادقاً وقوياً، ولكن بغض النظر عن صدقه وقوته، كنت ضعيفاً في بداية الأمر إلى درجة أنني خشيت من هذا التحول في حياتي، الذي سبب لي هذا الشعور، ووصلت إلى قناعة صدّقت فيها ما قالوه، وما يقولونه منذ وقت؛ إن الغنى ليس شيئاً سيّئاً، وإنه هبة من الله، وإن الأغنياء يمكنهم متابعة حياتهم المترفة ومساعدة الفقراء. صدقت كلّ هذا، وأردت أن أعمل به.

كتبت مقالة دعوت فيها كل الأغنياء للمساعدة. اعترف كل الأغنياء بأن واجبهم الأخلاقي أن يوافقونني، ولكن بدا واضحاً جداً أنهم إما لم يرغبوا وإما لم يستطيعوا فعل أي شيء للفقراء. بدأتُ بالبحث عن الفقراء، ورأيت ما لم أكن أتوقعه أبداً. رأيت من جهة، في تلك الملاجئ، كما أسميتُها، أشخاصاً لم أجدهم يستحقون المساعدة؛ لأنهم كانوا عاملين ومعتادين على العمل والمشقة، ولأنهم عايشوا صعوبة الحياة أكثر مني، ومن جهة أخرى، رأيت البؤساء الذين لم أستطع مساعدتهم؛ لأنهم كانوا مثلي تماماً. أغلبية هؤلاء الذين رأيتهم كانوا من البؤساء الذين فقدوا القدرة والإرادة والعادة على كسب قوتهم؛ أي إن سبب بؤسهم هو أنهم كانوا مثلي تماماً. باستثناء أغافيا، لم أجد أولئك الفقراء من المرضى والجائعين والمتجمدين من البرد، الذين يحتاجون إلى مساعدات فورية. أدركت أنه، نتيجة لابتعادي عن حياة أولئك الناس، الذين أردت مساعدتهم، كان إيجاد أولئك المحتاجين أمراً مستحيلاً تقريباً؛ لأن أولئك الأشخاص، الذين هم المحتاجون الحقيقيون، كانوا يخفون الحاجة الحقيقية، والأهم من هذا أنني أدركت أنَ المال لا يمكنه أن يغير الحياة التعيسة التي يعيشها هؤلاء. كنت مقتنعاً بكل هذا، ولكن، بسبب خجلي الزائف من ترك ما بدأته، وبسبب وهمي بفضل ما أقوم به، استمررت فيما بدأته حتى وصلت إلى اللاشيء، وتخلصت بالقوة، وبمساعدة إيفان فيدوديتش في الحانة في مبنى رجانوف، من السبعة والثلاثين روبلاً التي رأيت أنها ليست من حقي.

كان بإمكاني، بطبيعة الحال، أن أتابع عملي وأستفيد منه لتنظيم أعمال خيرية أخرى. لو أنني طالبت وبإلحاح أولئك الذين وعدوني بالمساعدة، لأجبرتهم على التبرع، ولَجمعت مبالغ أكبر ووزعتها على المحتاجين، وعزّيت نفسي بالخير الذي فعلته، لكنني شعرت من جهة أننا، نحن الأغنياء، لا نريد، ولا نستطيع أن نشارك الفقراء بجزء من ثروتنا الوفيرة (لأن لدينا الكثير من

الحاجات)، وأننا لا نجد من يستحق أن نعطيه المال، إذا أردنا فعل الخير الحقيقي، وليس توزيع المال بشكل عشوائي، كما فعلت أنا في الحانة في رجانوف. تركت كل شيء، وذهبت إلى القرية وأنا محبط ويائس.

حاولت في القرية أن أكتب مقالاً عن كل هذا، أصف فيه ما عايشته، وأوضح أسباب فشل مشروعي، لكنني أردت أن أجيب على انتقاداتهم حول مقالي عن الإحصاء السكاني، وأردت أن أفضح اللامبالاة المنتشرة في المجتمع، وأن أوضح الأسباب التي تقف خلف الفقر في المدن، وضرورة معالجته، وتحديد الوسائل التي أراها ناجعة في ذلك.

عندما بدأت كتابة المقال، شعرت بأنني سأتلكم فيه عن أشياء كثيرة مهمة، ولكن مهما بذلت من جهد، وبغضّ النظر عن وضعي المادي والفائض الكبير من المال الذي امتلكته، وبسبب انزعاجي من تأثيرها في مقالي، وبسبب عدم معايشتي لما سأقوم به، ولكي أتعامل مع كلّ هذا بصدق، والأهم من كل هذا، لأنني ببساطة ووضوح لم أدرك سبب كل هذا، وهو سبب بسيط متجذر في داخلي؛ لم أستطع أن أتابع كتابة المقال، ولم أكمل كتابته حتى هذه السنة (1885).

هناك ظاهرة مدهشة ونادرة الحدوث في عالم الأخلاق. إذا تحدثت مع شخص غير متخصّص في الجيولوجيا وعلم الفلك والتاريخ والفيزياء والرياضيات، فإنّه سيتلقّى معلومات جديدة، ولن يقول لي أبداً: «وما الجديد هنا؟ الكل يعرف هذه المعلومات، وأنا أعرفها منذ فترة طويلة»، ولكن عندما توضح لشخص ما، بطريقة بسيطة وواضحة ومختصرة، الحقيقة الأخلاقية؛ أيّ شخص كان، ولاسيما ذلك الشخص الذي لا يهتم بالقضايا الأخلاقية، وبدرجة أكبر ذلك الشخص الذي لا تهمه الحقيقة الأخلاقية التي تشرحها له، فإنّه سيقول لك: «ومن لا يعرف هذه الحقيقة؟ إنها مشهورة جداً». يبدو له فعلاً أنّ هذه الحقيقة واضحة منذ زمن بعيد. فقط أولئك الذين يقدّرون

ويهتمون بالحقائق الأخلاقية يدركون أهمية وقيمة وحجم الجهد الكبير لتوضيح هذه الحقائق وتبسيطها ونقلها من افتراضية واعية وغامضة وغير محددة، ومن رغبة في تعابير غير محددة وغير مترابطة، إلى تعابير راسخة ومحددة، تتطلب حتماً إجراءات عملية.

اعتدنا التفكير في أن التعاليم الأخلاقية هي مادة تافهة ومملة، ولا يوجد فيها ما هو جديد وما يثير الاهتمام، ولكن في حقيقة الأمر إن الحياة البشرية، مع كلّ نشاطاتها المتنوعة والمعقدة والتي تبدو غير مرتبطة بالأخلاق؛ كل الحقول العلمية والفنية والتجارية والحكومية فيها لا تملك هدفاً أسمى كهدف توضيح وتبسيط وتأكيد الحقيقة الأخلاقية العامة.

أذكر مرةً، عندما كنت في موسكو، أني رأيت أمامي في الشارع رجلاً كان ينظر باهتمام إلى أحجار الرصيف، ثم اختار واحداً منها، وجلس عليه، وبدأ (كما بدا لي) بحكّه وكشطه بكل قوة وضغط. سألت نفسي: «تُرى ما الذي يفعله بالرصيف؟». تقدمت نحوه، وعرفت أنه شاب يعمل في متجر اللحوم، كان يشحذ سكينه على حجر الرصيف. لم يفكر أبداً في الأحجار وهو يتفحصها، وخاصة عندما كان يقوم بعمله ويشحذ السكين. كان عليه أن يسنّ السكين لكي يقطع بها اللحم، واعتقدت أنه يفعل شيئاً ما بأحجار الرصيف. تبدو البشرية كذلك مشغولة بالتجارة والاتفاقيات والحروب والعلوم والفنون، ولكنّ هناك شيئاً واحداً فحسب مهماً لها، وهي لا تفعل سوى شيءٍ واحد، فهي توضح القوانين الأخلاقية التي تعيش وفقاً لها. القوانين الأخلاقية موجودة، والبشرية تشرحها لنفسها فحسب، وهذا الشرح يبدو غير مهم وغير ملاحظ لكل من لا يهتم بالقانون الأخلاقي، ولا يريد العيش وفقاً له. إن توضيح القانون الأخلاقي ليس هو الأمر الأهم فحسب، بل هو الأمر الوحيد الذي يجب على البشرية ألا تنشغل بغيره. إنّ هذا التوضيح غير ملاحظ تماماً مثل الفرق غير الواضح بين السكين المُثلَمة والحادة. السكاكين كلها سواء،

ولا فرق بين المُثلّمة والحادة، بالنسبة إلى الشخص الذي لا يريد أن يقطع بها شيئاً. بالنسبة إلى من يعتقد أن حياته كلها تعتمد بدرجة ما على درجة حدّة السكين، إن أي تطوير لحياته مهم، وهو يعرف أن هذا التطوير ليس له نهاية، وأنّ السكين هي سكين في حالة واحدة فحسب؛ عندما تكون حادة، وعندما تقطع ما نحتاج إلى قطعه.

هذا ما حدث معي عندما بدأت كتابة المقال. اعتقدت في البداية أنني أعرف كل شيء، وأفهم كل ما يتعلق بالأسئلة التي أحدثت في نفسي الانطباعات في مبنى لبينسكي وأثناء الإحصاء السكاني، ولكن عندما حاولت أن أفهمها وأبسّطها، أدركت أن السكين لا تقطع، ويجب شحذها. والآن فقط؛ أي بعد ثلاث سنوات، شعرت بأن السكين حادة إلى درجة أنني أستطيع أن أقطع بها كل ما أريده. لم أعرف الكثير من الأشياء الجديدة. كلّ أفكاري هي ذاتها، لكنها كانت ساذجة ومشتتة ولم تجتمع في فكرة واحدة؛ لم تكن فيها أي حدّة، إلى أبسط وأوضح فكرة، كما هي الآن.

قرويون في المدينة

لازمني شعور دائم طوال فترة تجربتي الفاشلة في مساعدة فقراء المدينة، وهو أنني مثل شخص يحاول انتشال شخص آخر بينما يغرق هو في المستنقع ذاته. أشعرني أيّ جهد بذلته بهشاشة الأرض التي أقف عليها. شعرت بأنني في مستنقع، ولكن هذا الشعور لم يحفزني على النظر تحتي لكي أعرف على ماذا أقف. كنت أبحث دائماً عن وسائل خارجية للمساعدة في التخلص من الشر النابع من داخلي. شعرت حينها بأن حياتي خواء، ولا يمكنني العيش بهذا الشكل، ولأنها كذلك، توصلت إلى استنتاج بسيط واضح جداً وهو ضرورة تطوير حياتي والعيش أفضل، ولكي أحقق هذا الطرح الغريب؛ أي لكي تصبح حياتي أفضل، يجب أن أغيّر حياة الآخرين، وفعلاً بدأت بتغيير حياة الآخرين. عشت في المدينة، وأردت تغيير حياة الناس المقيمين فيها، ولكن سرعان ما أدركت عجزي عن القيام بهذا، وبدأت بتأمل تفاصيل حياة المدينة والفقر المدني. سألت نفسي: ما هي الحياة في المدينة؟ وما هو الفقر فيها؟ ولماذا لم أستطع مساعدة الفقراء هناك؟ وأجبت بأنني فشلت في مساعدة الفقراء لسببين: الأول أنهم تكدسوا بأعداد كبيرة جداً في مكان واحد، والثاني أنهم لم يكونوا مثل الفقراء في القرى. ما سبب تجمعهم في مكان واحد؟ وبماذا يختلفون عن الفقراء في الأرياف؟ الإجابة واحدة لكلا السؤالين.

يجتمع بأعداد كبيرة هنا كل أولئك الذين لا يجدون ما يأكلونه في الأرياف، لكي يكونوا قريبين من الأغنياء، ويختلفون عن الفقراء هناك بأنهم كلهم جاؤوا لكي يكسبوا لقمة عيشهم هنا (وإذا كان بعض هؤلاء الفقراء قد

ولدوا هنا، أو آباؤهم وأجدادهم ولدوا هنا، فإن آباءهم وأجدادهم جاؤوا إلى المدينة لكي يكسبوا رزقهم فيها).

ماذا يعني كسب لقمة العيش في المدينة؟ هناك غرابة وما يشبه الطرفة في قولنا: «أن تكسب لقمة عيشك في المدينة»، عندما تفكر في مغزاها.

كيف يأتون من الأرياف؛ أي من تلك الأماكن، حيث المروج والقمح والمواشي، من الأرض الخصبة إلى المدينة؛ حيث لا أشجار ولا عشب ولا حتى أرض، بل الحجر والرمل فحسب؟ وماذا تعني عبارة «كسب لقمة العيش في المدينة»، التي يرددها دائماً أولئك الذين يتكسبون والذين يعطونهم، وكأن لها معنى واضحاً وثابتا؟

أتذكر مئات وآلاف الناس في موسكو، الأغنياء منهم والفقراء، الذين تحدثت معهم عن سبب قدومهم إلى موسكو، وكلهم بلا استثناء قالوا إنهم جاؤوا من الريف البعيد لكي يكسبوا رزقهم، وإن موسكو لا تزرع ولا تحصد، ولكن الناس فيها أغنياء، وإن موسكو غنية بالفرص، وفقط فيها يمكن أن تحصل على المال لتوفير مستلزمات الحياة في الريف من خبز ومسكن وحصان والاحتياجات الأساسية الأخرى. لماذا نأتي إلى المدينة حتى نحصل على ما هو موجود أساساً في الريف؟ ولماذا، وهذا هو السؤال الأهم، ننقل من الريف إلى المدينة كلّ ما هو ضروري لسكان الريف، من طحين وشوفان وجياد ومواشٍ؟

تحدّثت مئات المرات مع الفلاحين الذين يعيشون في المدينة، واستنتجت، من خلال هذه الأحاديث، ومن خلال مراقبتي لهم، أن تحشّد الفلاحين في المدن هو ضروري نسبياً؛ لأنهم لا يجدون ما يكسبون به قوتهم، ولسبب آخر هو الإغراءات التي تجذبهم في المدينة.

صحيح أن الفلاح لا يمكنه تأمين متطلبات عيشه في الريف إلا من خلال بيع الحبوب وتربية الماشية، وهو يدرك أنها ضرورية له، لكنه يجد نفسه مضطراً، شاء أم لم يشأ، إلى الذهاب إلى المدينة للحصول على الخبز، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن المال، الذي يمكن كسبه بطريقة أسهل، والحياة الرغيدة في المدينة، سوف يجذبانه إليها، وتحت شعار كسب الرزق، سيأتي إلى المدينة لكي يعمل بجهد أقل، ويأكل طعاماً أفضل، ويشرب الشاي ثلاث مرات، ويتزين وحتى يسكر ويمارس الفجور.

سبب هذا وذاك هو انتقال ثروة المنتجين إلى أيدي غير المنتجين وتجمّعهم في المدن. بطبيعة الحال: يأتي الخريف، وتجتمع الثروة والخيرات كلها في القرى بعد الحصاد. تُعلن في ذلك الوقت طلبات الضرائب والريوع والضرائب والتجنيد، وتبدأ حينها إغراءات الفودكا وحفلات الزفاف والأعياد والتجار الصغار الذين يجوبون القرى، وكل الأشياء الأخرى، وتنتقل هذه الثروة الغنية والمتنوعة من الأغنام والعجول والأبقار والجياد والخنازير والدجاج والبيض والدهون والزيوت والقنب والكتان والجاودار والشوفان والحنطة السوداء والبازلاء وبذور القنب وزيت بذر الكتان، إلى أيدٍ أخرى غريبة في مدن الأقاليم، ومن مدن الأقاليم إلى العواصم. يجد ابن الريف نفسه مجبراً على إعطاء كل هذه الأشياء لتلبية وإرضاء احتياجاته واستجابة للإغراءات التي تُعرض أمامه، وعندما يعطي ثروته يصبح محتاجاً، ويجب عليه أن يذهب إلى هناك، حيث نُقلت ثروته، وهناك يحاول أن يكسب النقود اللازمة لتأمين متطلباته الأساسية في الريف، كما أنّه ينجذب نحو إغراءات المدينة، ويبددها مع ثروته التي جمعها.

أعتقد أن في كل أنحاء روسيا، بل في كل أنحاء العالم، وليس في روسيا فحسب، يتكرّر الأمر ذاته؛ حيث تنتقل ثروات المنتجين القرويين إلى أيدي التجار ومُلّاك العقارات والموظفين وأصحاب المصانع، وبعد أن يحصلوا

على هذه الثروات، يريدون استخدامها في حياتهم، ولا يتأتّى لهم هذا إلا في المدينة فحسب. يصعب عليهم هذا في الريف، أولاً بسبب انتشار السكان في أماكن متباعدة، ولا يوجد تنوع في الحرف والمطاعم والمصارف والحانات والمسارح وأيّ أماكن ترفيه عامة، وثانياً لأن الغرور هو أحد أهم الملذات التي تقترن بالغنى، ومرة أخرى، وبسبب الانتشار الواسع للسكان في الريف، يصعب إغراؤهم بهذه الطريقة. هناك القليل ممن يعطون قيمة للرفاهية في الريف، ولا يمكنهم أن ينجذبوا إليها. لا يهتم القرويون بتزيين منازلهم أو بتعليق اللوحات والإطارات على الحوائط أو وضع الأطقم والمراحيض، هذه الأشياء كلها لا تعني الكثير بالنسبة إلى الفلاحين. السبب الثالث هو أن الرفاهية غير مستحبة ومدعاة للقلق في الريف للشخص الذي يمتلك ضميراً. يبدو الاستحمام بالحليب أو تقديمه للجراء تصرفاً مخجلاً وغير لائق في الريف إذا لم يمتلك الجيران حليباً يعطونه لأولادهم، ومن غير اللائق والمخجل تشييد الأسوار والحدائق وسط الجيران الذين تحيط مخلفات الحيوانات ببيوتهم التي لا يجدون ما يدفئونها به. لن يهتم أحد في القرية لأولئك الحمقى، الذين بسبب عدم تعليمهم يقومون بمثل هذه التصرفات.

يجتمع الأغنياء، لهذه الأسباب، ويجدون ظروفاً مناسبة لهم مع أولئك الأغنياء في المدينة، الذين يشاركونهم المتطلبات نفسها، وحيث تتوافر كلّ أنواع الرفاهية التي يقف على حمايتها شرطة بأعداد كبيرة. السكان الأساسيون في المدن هم الموظفون الحكوميون، الذين يحيط بهم كل أصحاب المهن والصناعات، وينضم إليهم الأغنياء. ما على الغنيّ إلا التفكير قليلاً، وكلّ شيء سيتوافر له. العيش في المدينة مناسب للغنيّ أكثر؛ لأنه يستطيع أن يرضي غروره هناك، ويجد من يمتلك ثروة مماثلة لثروته، ومن يمكنه أن يثير إعجابه ويتفوق عليه بثروته. أما السبب الأهم الذي يجعل العيش في المدينة مناسباً للغنيّ فهو أن رفاهيته في الريف غير مقبولة وغير مستحسنة،

أما في المدينة فعلى النقيض تماماً، يبدو من غير اللائق ألا يعيش في رفاهية تضاهي الرفاهية التي يتمتع بها كل من حوله. ما بدا له غريباً وغير لائق في الريف يمثل هنا الشكل الأمثل للحياة. يتجمع الأغنياء في المدينة، وتحت حماية السلطات، يتلذذون بكل الثروات التي جاءت من الريف. يبدو ذهاب ابن الريف إلى هناك ضرورياً بعض الشيء، حيث تتواصل ولائم الأغنياء، وهم يستمتعون بكل ما أخذوه منه، لكي يقتات من تلك الفتاتات التي تسقط من موائد الأغنياء، وضرورياً بعض الشيء أيضاً، لكي يرى حياة الأغنياء المحمية والرغيدة والخالية من المنغصات، والتي يؤيد الجميع المبدأ الذي تقوم عليه، ويبدأ بترتيب حياته حيث يعمل لفترات أقل، ويستفيد أكثر من عمل الآخرين.

وهكذا يبقى في المدينة، ويجد له مكاناً قرب الأغنياء، ويحاول بكل الوسائل أن يستعيد منهم حاجاته الضرورية، ويخضع لكل الظروف التي فرضوها عليه. يعمل على إرضاء كل نزواتهم؛ سنراه وهو يخدم الغنيَّ في الحمامات، وفي الحانات، وفي العربات، وفي أماكن الفجور، وسيصنع للغني ألعاباً ومجسمات وأزياء، وسيتعلم من حياة الغني بعض الأشياء؛ أي أن يكسب المال ليس بجهده، بل من خلال الحيل المختلفة، وابتزاز الأغنياء الآخرين، وسحب بعض ثرواتهم منهم، وبالنتيجة يفسد وتتدمر حياته. مثل هؤلاء الذين أفسدتهم الثروة في المدن، هم الذين يشكلون الفقر المدني الذي لم أستطع أن أساعد في التخلص منه.

في الحقيقة، إذا تأملنا حال هؤلاء القرويين، الذين يذهبون إلى المدن لتحصيل ثمن الخبز وتسديد الضرائب، وهم يشاهدون الجميع حولهم وهم يبذرون الآلاف، ويمكنهم أن يكسبوا المئات بسهولة، وفي الوقت نفسه يجب على القرويين أن يعملوا لساعات طويلة للحصول على بعض الكوبيكات القليلة، فسوف نندهش من وجود أناس آخرين يعملون بجهود كبيرة لكسب

رزقهم، ولا يستخدمون الوسائل السريعة والسهلة في كسب المال مثل التجارة والسرقة والفساد والاحتيال وحتى السلب والنهب.

يمكننا - نحن المشاركين في هذه السفالة المستمرة في المدن فحسب- أن نعتاد على حياتنا، ويبدو لنا طبيعياً أن يعيش أحدنا في خمس غرف كبيرة مدفأة بكمية كبيرة من خشب التامول تكفي لإعداد الطعام وتدفئة عشرين عائلة، والسفر لمسافة نصف فرست[1] على جوادين ومع حوذيين، وتنجيد الأرضية الخشبية السميكة بالسجاد الفاخر، وإنفاق خمسة أو عشرة آلاف في حفلة، بل خمسة وعشرين ألفاً في ليلة رأس السنة. أما بالنسبة إلى الشخص الذي هو بحاجة إلى عشرة روبلات لشراء الخبز لعائلته، أو بالنسبة إلى ذلك الذي يصادرون آخر خروف يمتلكه مقابل سبعة روبلات فحسب؛ لأنه لم يدفع الضرائب، وهو لا يستطيع كسب سبعة روبلات بالعمل الجاد؛ فإنه لن يعتاد حياة المدينة. نحن نعتقد أنّ هذه أشياء طبيعية بالنسبة إلى الفقراء، ولكن هناك بعض الساذجين الذين يقولون بجدية إن الفقراء ممتنون جداً لنا؛ لأننا نطعمهم من خلال رفاهيتنا. إن الفقراء لا يفقدون منطقهم وعقلهم بسبب فقرهم، وهم يفكرون مثلنا تماماً. أول ما يفكر فيه الأغنياء، عندما يعلمون أن شخصاً ما قد أهدر عشرة أو عشرين ألفاً، هو أنه أحمق ومسرف، وأنه بذّر نقوداً بلا فائدة، وكان بإمكانه أن يستخدمها في تحسين مسكنه ووضعه الاقتصادي. كذلك الفقراء، عندما يرون أمامهم الثروات وهي تسرف بلا منفعة، فإنهم سيناقشون بالطريقة نفسها، وبإصرار أكبر؛ لأن هذه الأموال ليست مهمة لهم من أجل أشياء خيالية، بل ضرورية لتلبية حاجاتهم الأساسية التي يُحرمون منها غالباً. نخطئ عندما نعتقد أن الفقراء يفكرون بهذه الطريقة، وأنهم غير مبالين بما يحدث حولهم.

---

1 الفرست هي وحدة قياس روسية قديمة تساوي 1.0668 كيلو متر.

لم يعترفوا أبداً ولن يعترفوا بأن من العدل أن يعيش بعض الناس في مسرات وملذات متواصلة، بينما يصوم آخرون ويعملون. في البداية يندهشون وينفرون من هذا، ثم يعيدون النظر فيه، ويرون أن نظام الحياة هذا قانوني، ويسعون بأنفسهم للتحرر من عملهم، والمشاركة في الملذات. ينجح بعضهم، ويصبحون أعضاء دائمين في الولائم والاحتفالات، وبعضهم الآخر ينجح بعض الشيء في الوصول إلى هذه الحال، أما القسم الثالث فينهارون، قبل أن يصلوا إلى غايتهم، وبعد أن فقدوا اعتيادهم على العمل، يملؤون بيوت الفجور والملاجئ الليلية.

في عام 1883 جلبنا من الريف فلاحاً صغيراً لكي يصبح عاملاً في البوفيه، لكنه لم يتفق مع الخدم، وفصلوه، وراح لخدمة أحد التجار، فأحبه، والآن يمشي وهو يرتدي معطفاً له سلسلة معدنية وحذاءً أنيقاً. وضعنا مكانه فلاحاً آخر. كان متزوجاً، لكنه أدمن الشراب، وأضاع ماله، وجئنا بثالث، فأدمن الشرب هو الآخر، وأضاعِ كل شيء، وأصبح فقيراً في الملجأ الليلي. الطباخ العجوز أصبح كذلك سكيراً في المدينة ومرض. في العام الماضي، جاء خادم كان يدمن الشراب، بعد أن عاش في الريف مدة خمس سنوات من دون خمر، وعاش في موسكو من دون زوجته التي كانت تحفظه من الضياع، لكنه أدمن الشراب وأفسد حياته كلها. شاب صغير من قريتنا يعيش في غرفة الخدم عند أخي. طلب مني جده، وهو عجوز ضرير، عندما كنت في القرية، أن أقنع حفيده، لكي يرسل إليه عشرة روبلات، وإلا فإنه سيضطر إلى بيع البقرة.

«يقول إنه يريد ملابس لائقة، لديه حذاء جيد، وأعتقد أنّ هذا ما يلزمه حقاً، ولكن ربما يريد ساعة أيضاً؟». قال العجوز هذه الكلمات، وهو يعبر لي عن الإسراف المفرط لحفيده، وبدا لي أن رؤيته صحيحة خصوصاً بعد أن عرفت أنه قضى فترة الصوم كلها من دون زيت، وأنه لا يملك ثمن تقطيع خشب التدفئة الذي يبلغ روبلاً وعشرين كوبيكاً. جاءني الصبي وهو يرتدي

معطفاً أسود ضيقاً، وحذاءً يبلغ سعره ثمانية روبلات. قبل عدة أيام أخذ من أخي عشرة روبلات اشترى بها حذاءً. أولادي، الذين يعرفون الصبي منذ الطفولة، أخبروني أنه فعلاً يعدّ ارتداء ساعة أمراً ضرورياً له. هو شاب طيب جداً، لكنه يعتقد أن الآخرين سيسخرون منه إذا لم يكن لديه ساعة، فالساعة مهمة جداً بالنسبة إليه.

في هذا العام، دخلت خادمة، وهي فتاة عمرها ثمانية عشرة عاماً، في علاقة مع الحوذي في بيتنا، وفُصلت. ذكرتني العجوز المربية، التي حدثتها عن هذه المأساة، بفتاة أخرى كنت قد نسيتها؛ حيث دخلت في علاقة مع أحد الخدم أثناء إقامتنا القصيرة في موسكو، وفُصلت هي الأخرى، وانتهى بها المطاف في بيت الدعارة، وتوفيت هناك بسبب مرض الزهري. يكفي أن نلقي نظرة حولنا، لكي نفزع من هول الداء الذي نساهم بشكل مباشر في تفشيه، بالإضافة إلى تفشيه في المصانع والمعامل التي تعمل من أجل رفاهيتنا، بين أولئك الأشخاص الذين نريد مساعدتهم في ما بعد.

يمكنني القول، بعد أن تعمقت في جوهر الفقر في المدن، الذي لم أفلح في تقديم حلول له، إن سبب هذا الفقر هو أننا أخذنا من أبناء الريف كلّ ما هو ضروري لحياتهم، ونقلناه إلى المدينة. السبب الثاني هو أننا هنا في المدينة، وبعد أن نستخدم كلّ ما جئنا به من الريف، برفاهيتنا الحمقاء، سنغري ونفسد كل أولئك القرويين الذين جاؤوا إلى المدينة خلفنا، لكي يسترجعوا، بأية طريقة، ما أخذناه منهم.

جدار فاصل بين الأغنياء والفقراء

توصلت إلى النتيجة ذاتها، لكن وفقاً لمقاربة أخرى. عندما راجعت العلاقات التي كانت تربطني بفقراء المدينة، عرفت أن أحد الأسباب، التي منعتني من مساعدتهم، هي أنهم لم يكونوا صريحين وصادقين معي. لم ينظروا إليّ بوصفي إنساناً، بل بوصفي آلةً تنجز عملها. لم أستطع الاقتراب منهم، وربما كما اعتقدت، لم أحسن التصرف للاقتراب منهم أكثر، ولكن لا يمكن تقديم المساعدة من دون صدق وشفافية. كيف تساعد شخصاً لا يصف لك حاله بوضوح؟ وبّختهم في البداية على هذا (يبدو طبيعياً أن توبّخ شخصاً آخر!)، ولكن كلمة واحدة قالها شخص رائع هو سيوتايف، الذي حَلّ ضيفاً عليّ في ذلك الوقت، شرحتْ كل شيء، وأظهرت لي سبب فشلي. أذكر أن ما قاله سيوتايف كان له وقع خاص في نفسي، ولكنني لم أفهمه إلا في ما بعد. حدث هذا عندما كنت في أوج غروري.

كنتُ في زيارة إلى أختي، وكان عندها سيوتايف، وسألتني أختي عن مشروعي. تحدثت إليها، كما يحدث دائماً عندما لا تؤمن بما تفعله، وبمبالغة شديدة وحماسة وإسهاب عمّا أقوم به، وما سينتج عنه. حدثتها عن كل شيء: عن الكيفية التي سندرس بها حاجة الفقراء في موسكو، وكيف سنعتني بالأيتام والمسنين، وننقل القرويين الفقراء من موسكو، ونمهّد الطريق لتغيير حياة المفسدين، وعندما نفعل كل هذه الأشياء، لن نجد حينها شخصاً واحداً يحتاج إلى المساعدة. تفاعلت أختي مع حديثي، وتحدثنا طويلاً. أثناء الحديث كنت أسترق النظر إلى سيوتايف. توقّعت أن يتفاعل مع حديثي؛ لأنني أعرف

التزامه بحياته المسيحية، وأهمية فعل الخير بالنسبة إليه، وتكلمت قاصداً أن يفهمني؛ تحدثت مع أختي، لكنَ كلامي كان موجهاً إليه أكثر. جلس وهو يرتدي معطفه الفرو الأسود، الذي يرتديه دائماً، مثل كل القرويين، في الخارج وفي غرفة الجلوس، وبدا كأنّه لم يستمع إلينا، وانشغل بأمر آخر. لم تظهر في عينيه الصغيرتين أيّ ردة فعل، كما لو أنه كان ينظر إلى نفسه. توجهت إليه، بعد حديثي الطويل، لكي أستمع إلى رأيه في ما قلت. قال لي:

- هذا كلام فارغ.

- ولماذا؟

أكد ما قاله قبل قليل بثقة:

- إن كل ما تقومون به هو هراء، ولا فائدة مرجوة منه؟

- ولماذا لن ينتج عنه شيء؟ هل مساعدتنا للآلاف، أو على الأقل لمئات البؤساء، هي بلا جدوى؟ هل نخالف تعاليم الإنجيل إن ألبسنا العراة وأطعمنا الجائعين؟

- أعرف كل هذا، ولكن عملكم ليس كما تقول. هل هكذا تكون المساعدة؟ وأنت تمشي، يطلب منك شخص عشرين كوبيكاً، فتعطيه. هل هذا عمل خيري؟ علمه الخير الروحي، ولكن ما الذي فعلته أنت؟ أنت تقول له: «خذ نقوداً وابتعد عني».

- الأمر ليس كذلك. نحن نريد أن نقدّر حجم حاجات الناس، وعندها نساعدهم بالمال وبشكل عملي، ونوفر لهم فرص عمل.

- لا تفعلوا أيّ شيء لهؤلاء الناس.

- وهل نتركهم يموتون من الجوع والبرد؟

- ولماذا يموتون؟ هل هم كثيرون هنا؟

قلت له، وأنا أعتقد أنه سينظر باستخفاف إلى هذا الأمر، لأنه لا يعرف العدد الهائل لهؤلاء الفقراء:

- تريد أن تعرف عددهم؟ وهل تعرف أنّ عدد هؤلاء الجائعين ومن يقتلهم البرد في موسكو وحدها يصل إلى عشرين ألفاً، أضف إليهم عدد أمثالهم في بطرسبورغ وفي المدن الأخرى؟

ابتسم، ثم قال:

- عشرون ألفاً! وكم عدد البيوت عندنا في روسيا؟ مليون؟

- ولماذا تسأل؟

- لماذا أسأل؟

أشرقت عيناه، وتحمس ثم تابع: «لنوزعهم فيما بيننا. لستُ غنياً، لكنني سآخذ اثنين منهم. ذلك الصغير الذي جلبتُه إلى المطبخ دعوته أن يعمل عندي، لكنه رفض. حتى لو كان عددهم أكثر بعشرة أضعاف فلنوزعهم بيننا. أنت تأخذ منهم، وأنا كذلك. سنعمل معاً، سيراني كيف أعمل، وسيتعلم مني كيف يعيش، وسنجلس على الطاولة معاً نأكل ونشرب من الإناء نفسه، وسيستمع إلى كلمة مني وكلمة منك. هذا هو عمل الخير، أما ما قمتم به أنت وجماعتك فهو بلا فائدة».

تأثرت بهذه الكلمات البسيطة، ولم أستطع إلا أن أعترف بصحتها. بدا لي حينها، بغض النظر عن صحة هذه الكلمات، أن مشروعي الذي بدأته قد يكون مفيداً كذلك، ولكن كلما استمررت فيه، واقتربت من الفقراء أكثر، تذكرت هذه الكلمات أكثر، وأخذتْ معنى أكبر في ذهني.

في واقع الأمر، كنت أذهب مرتدياً معطف الفرو الثمين، أو راكباً حصاني، وأحياناً يرون بيتي الذي يكلف ألفي روبل، ويراني من هو بحاجة إلى حذاء. قد يرى ما أملكه الآن، وكيف أعطيته خمسة روبلات من دون

تفكير، فإذا أعطيته مبالغ أكبر، فسوف يعتقد أنني أملك الكثير من المال الفائض عن حاجتي، وأنني لست معتاداً على إعطاء أي روبل لأي شخص، ولكنني أعطيته لأنني حصلت على مالي من الآخرين ومن دون أدنى جهد. كيف سينظر إليّ نظرة مختلفة، وأنني لست من أولئك الذين استولوا على ما يجب أن يكون ملكاً له؟ كيف سيتولد لديه شعور آخر تجاهي غير رغبته في انتزاع أكبر كمية من الروبلات التي سُلبت منه ومن الآخرين؟ أقترب منه وأتمنى ألا يقترب مني؛ حيث إنني لا أستطيع الجلوس معه على سرير واحد، كي لا ينقل القملَ والعدوى إليّ، وأخشى من دخوله إلى غرفتي، وأقول إنه غير صادق معي، كيف سينظر إليّ إذاً، عندما يأتيني وهو شبه عارٍ، وأنا أخشى استقباله في غرفتي، وإذا حالفه الحظ أستقبله في الصالة، أو في الشرفة، ثم أقول إنه هو السبب في عدم تمكني من الاقتراب منه؛ لأنه غير صادق معي.

ليحاول أكثر الرجال قسوة أن يتناول غداءه المؤلف من خمسة أصناف وسط أولئك الذين لا يأكلون إلا القليل، أو يكتفون برغيف واحد من الخبز الأسود؛ لن يستطيع تناول لقمة واحدة وهو يرى الجائعين يقتربون من حوله. هذا يعني أننا لكي نأكل ما لذّ وطاب وسط من لا يجدون ما يأكلونه، فإنّ أول ما يجب أن نفعله هو أن نأكل بعيداً عنهم كي لا يروننا. هذا هو أول شيء يجب أن نقوم به.

ألقيت نظرة سريعة على حياتنا، ووجدت أن صعوبة تقرّبنا من الفقراء لم تأتِ من فراغ؛ لأننا نتقصد أن نعيش حياتنا بشكل يزيد الفجوة التي بيننا وبينهم.

لطالما رأيت، وأنا أتعمق أكثر في حياتنا؛ حياة الأغنياء، أنّ كل ما نعدّه صالحاً في حياتنا يعتمد على، أو على الأقل يرتبط بشكل وثيق بكل ما يبعدنا عن الفراغ. الحقيقة أن كل غاياتنا في حياتنا الرغيدة، من طعام ولباس ومسكن ونظافة وصولًا إلى التعليم، تمتلك هدفاً واحداً هو أن ننفصل عن

الفقراء. وننفق من أجل هذا الانفصال تسعين في المئة من ثروتنا لكي نبني جداراً عازلاً بيننا وبينهم.

أول ما يفعله الغنيّ هو أن يتوقف عن تناول الطعام من إناء واحد، ويضع أمامه أدوات كثيرة، ويبتعد عن المطبخ والخدم. يُطعم الخدم بسخاء، كي لا يسيل لعابهم وهم يرون طعامه اللذيذ. يأكل وحده، ولكن لأنه يشعر بالملل وحده، يبتدع طريقة تخفف عنه هذا الشعور. يزيّن الطاولة، وتتحول طريقة تناوله الطعام إلى مسألة غرور وتكبّر، وأداة للانفصال عن الآخرين. يبدو من غير اللائق بالنسبة إليه أن يدعو الفقيرَ لتناول الطعام معه.

وهذا ما يحدث في موضوع اللباس كذلك. لو ارتدى الغنيّ معطفاً عادياً؛ حيث يستر جسده ويقيه من البرد، لأصبحت المعاطف القصيرة ومعاطف الفرو والأحذية الجلدية الشتوية والسراويل والقمصان أقلّ أهمية له، ولن يستطيع، وهو يملك معطفين، إلا أن يعطي واحداً منهما للشخص الذي ليس لديه معطف، ولكن الغنيّ يبدأ بارتداء الملابس التي تتألف من أجزاء منفصلة، والتي تلائم مناسبات مختلفة، ولذا هي غير مناسبة للفقير. عنده ملابس للسهرات والمناسبات، وسترات وأحذية فاخرة، وأحذية لها كعوب فرنسية، وفساتين مقسمة إلى أجزاء صغيرة، لكي تتوافق مع الموضة، وألبسة للصيد، وسترات باهظة الثمن؛ أي يملك كل الأشياء التي لا تلائم الفقراء، وتميزه عنهم، ويصبح اللباس أيضاً وسيلة لانفصاله عن الفقراء. الموضة، في حد ذاتها، هي التي تفصل الأغنياء عن الفقراء.

يبدو هذا واضحاً أكثر في المسكن. لكي تعيش وحدك في بيت مؤلف من عشر غرف، يجب أن تتخفّى عن أولئك الذين يعيش كلّ عشرة أشخاص منهم في غرفة واحدة. كلّما زاد ثراء شخص ما أصبح الوصول إليه أصعب، وكثرت الحواجز والبوابون بينه وبين الفقراء، وأصبح مستحيلاً عليه استقبال الفقراء ليدوسوا السجاد، ويجلسوا على الكراسي الأطلسية الفاخرة.

كذلك بالنسبة إلى وسائط النقل. يجب على الفلاح، الذي يركب العربة أو الزلاجة، أن يكون فظاً لكي يستطيع منع المشاة من الركوب معه، ولاسيما أن عربات الفقراء فيها عدة أمكنة وتسمح بذلك، ولكن كلما زاد سعر المركبة قلَّت إمكانية اتساعها لعدد أكبر من الركاب. وهناك مقولة متداولة تقول بشكل مباشر إن المركبات الثمينة الأنيقة الضيقة هي «أنانية».

وكذلك يتكرَّر الأمر ذاته في نمط الحياة الذي يُعبَّر عنه بكلمة نظافة.

النظافة! من لا يعرف أولئك الأشخاص، ولاسيما النساء، الذين يعطون قيمة كبيرة للنظافة؟ ومن لا يعرف ترهات مفهوم النظافة التي ليس لها حد، والتي تكتسب من خلال جهود الآخرين؟ مَنْ من الأغنياء لم يعايش صعوبات كبيرة حتى اعتاد تطبيق مفهوم هذه النظافة، الذي يؤيد المقولة الآتية: الأيادي البيضاء تحب جهود الآخرين[1]؟ النظافة اليوم تعني ارتداء قميص مختلف كل يوم، وغداً ستعني ارتداء قميصين مختلفين كلَّ يوم.

النظافة اليوم هي أن تغسل يديك ورقبتك، وسوف تعني غداً أن تغسل رجليك أيضاً، ثمَ جسمك كله، مع التدليك المركز. الآن نبدل غطاء السفرة كل يومين، وغداً مرةً كل يوم، ثم في ما بعد نبدله مرتين يومياً. الآن، لكي نَعُدَّ يدي الخادم نظيفتان يجب أن يرتدي قفازات، ويجب عليه غداً أن يقدم لنا الرسالة وهي موضوعة في صينية نظيفة. وهكذا، إن قواعد النظافة هذه لن تنتهي، وليست ضرورية لأحد، ولكنها وضعت فقط للانفصال والتميّز عن الآخرين، وجعل تواصلنا مع الآخرين صعباً للغاية؛ أي عندما نحصل على النظافة من خلال جهود الآخرين.

بالإضافة إلى ذلك، عندما تعمّقت في كلّ ما سبق، أدركت أن ما يسمى ثقافة ينطبق عليه الكلام ذاته. اللغة لا تخادع، وهي تسمي الأشياء بمسمياتها.

---

1 المقصود بالمثل هو أن من لم يعتد على العمل، يحب أن يخدمه الآخرون.

الناس يطلقون لفظ ثقافة على فساتين الموضة، والخطابات السياسية، والأيدي النظيفة، وأيّ شيء يعبّر عن النظافة. ولكي يميزوا شخصاً ما عن الآخرين يسمونه «مثقفاً». في الأوساط ذات التعليم العالي، يسمون ذلك الشخص مثقفاً، ولكن بشروط أخرى إضافية، مثل إجادته العزف على البيانو، ومعرفته اللغة الفرنسية، والكتابة باللغة الروسية من دون أخطاء إملائية، وأيضاً اعتنائه الكبير بمظهره. في الأوساط المتعلمة أكثر يسمونه مثقفاً، ويضيفون شرط معرفة اللغة الإنجليزية، وأن يكون حاصلاً على شهادة من معهد عالٍ، بالإضافة إلى أناقته. إن الثقافة في الأوساط الثلاثة هي ذاتها. الثقافة هي تلك المعارف التي تميز الشخص عن الآخرين. غاية الثقافة هي ذاتها غاية النظافة؛ أي فصل الذات عن حشود الفقراء كي لا يرونا، وهم جائعون والبرد يقتلهم، وكيف نتلذّذ بحياتنا، ولكن لا يمكننا التخفي، فهم يروننا.

اقتنعت بأنَ سبب فشلنا -نحن الأغنياء- في مساعدة فقراء المدينة، هو فشلنا في الاقتراب منهم، وأنّنا نعمل طوال حياتنا على الابتعاد عنهم من خلال طريقتنا في تلبية متطلبات حياتنا. اقتنعت بأنَ هناك جداراً سميكاً بيننا، نحن الأغنياء، وبين الفقراء، هو جدار النظافة والثقافة، الذي بنيناه من ثرواتنا، ولكي نصبح قادرين على مساعدة الفقراء، يجب علينا، قبل كلّ شيء، أن نهدم هذا الجدار، وأن نعمل ما بوسعنا لكي نطبق اقتراح سيوتايف، وهو أن نوزعهم فيما بيننا. وصلت إلى النتيجة ذاتها، ولكن من زاوية أخرى، عندما فكرت في أسباب فقر المدينة، والأسباب تتلخص في ثروتنا نحن.

الخير الحقيقي

بدأت التدقيق في هذا الأمر من زاوية ثالثة، وهي وجهة نظر شخصية بحتة. لفتت انتباهي ظاهرة مميزة من بين الظواهر الكثيرة التي أدهشتني أثناء قيامي بعملي الخيري. كانت ظاهرة غريبة جداً، ولم أستطع، لفترة طويلة، إيجاد تفسير لها. هذه الظاهرة هي أنني، في كل مرة أعطيت فيها بعض النقود لفقير ما في الشارع، من دون أن أتكلم معه، رأيت، أو بدا لي أنني رأيت، علامات الرضا والشكر على وجه ذلك الفقير، وشعرت بالارتياح وأنا أقوم بهذا النوع من العمل الخيري. رأيت أنني فعلت ما توقعه وأراده مني ذلك الشخص، ولو أنني وقفت مع الفقير، وسألته عن حياته الحالية والماضية، وتعمّق في تفاصيل حياته، لشعرت أن مبلغ ثلاثة أو حتى عشرين كوبيكاً غير كافٍ له، ولبدأت بفرز النقود في محفظتي، ولشككت في كمية ما أعطيه، وأعطيته أكثر، ورأيت دائماً أنه يذهب وهو غير راضٍ. لو أنني تحدثت أكثر مع ذلك الفقير لازدادت شكوكي في الكمية المناسبة من المال له، ومهما أعطيته، فسيكون الفقير غير راضٍ وأكثر تجهماً.

حدث دائماً، كقاعدة عامة، أنني بعد أن أقترب من الفقير، وأعطيه ثلاثة روبلات أو أكثر، دائماً ما رأيت علامات التجهّم وعدم الرضا والشر في محياه، وعندما أعطيه عشرة روبلات، يبتعد، دون أن يقول لي حتى كلمة شكر، كما لو أنني أسأت إليه. شعرت في كلّ مرة بالحرج والخجل وبأنني مذنب. لو أنني اهتممت بفقير ما لأسابيع وشهور وسنين، وساعدته، وشرحت له أفكاري، واقتربت منه، لأصبحت علاقتي به كلّها ألم وعذاب، وسوف يزدريني، ولَشعرت بأنه محق في ذلك.

لو أنني سرت في الشارع، وهو يقف ويطلب مني، بوصفي عابر سبيل مرّ بجانبه، ثلاثة روبلات، وأعطيته، فسينظر إليّ على أني عابر سبيل طيب ومحسن يعطي الخيط الذي يخيط به العاري قميصه، وهو لا يريد أكثر من هذا الخيط، فإنه سيكون ممتنًا لي، ولكن لو أنني توقفت وتحدثت معه، ووضّحت له أنني أريد أن أكون بالنسبة إليه أكثر من عابر سبيل، وإذا بكى، كما حدث هذا غالباً، وروى لي محنته، فإنه لن ينظر إليّ بوصفي عابر سبيل، بل ما أريد أن أكون في عينيه: إنساناً طيباً. لو كنت إنساناً طيباً حقاً، فإن طيبتي لن تتوقف عند عشرة كوبيكات، أو عشرة روبلات أو حتى مئة روبل. لنفترض أنني أعطيته الكثير، ورتبت له أموره، ولبس ووقف على قدميه، وأصبح باستطاعته العيش من دون الحاجة إلى المساعدة، ولكن لأيّ سبب آخر، بسبب سوء حظه أو ضعفه أو فساده، أصبح من جديد بلا معطف، جائعاً، والبرد يقتله، وجاء إليّ ثانية، فلماذا أرفض إعطاءه؟ وإذا أضاع عشرين مرة ما أعطيته إياه في الشراب، وأضحى، من جديد، جائعاً، ومرتجفاً من البرد، وإذا كنتَ إنساناً طيباً حقاً، فإنّك لا يمكنك إلا أن تعطيه في كل مرة، ولا يمكن أن تتوقف عن ذلك، طالما أنّ عندك أكثر ممّا عنده، ولكن لو تراجعت عن موقفك، ولم تعطِه، فإنّك تثبت بهذا أنّك أعطيته في المرة الأولى ليس لأنك إنسان صالح، ولكن لأنك أردت أن تُظهِر، أمام الناس، أنك إنسان صالح.

عندما تراجعت وتوقفت عن إعطاء مثل هؤلاء الأشخاص، وأعرضت عن فعل الخير، شعرت بالخزي المؤلم. كيف كان شعور الخزي هذا؟ كان الخزي ذاته الذي شعرت به في مبنى لبينسكي، وقبل ذلك وبعده في القرية، عندما أصبح لزاماً عليّ أن أعطي الفقراء مالاً أو أيّ شيء آخر، وشعرت به أيضاً أثناء جولاتي على الفقراء في المدن.

حادثة قديمة من هذا النوع من الخزي ذكّرتني وجعلتني أفهم سبب الخزي الذي شعرت به وأنا أعطي المال للفقراء. حدث هذا في القرية، عندما احتجت إلى عشرين كوبيكاً لأعطيها لأحد الجوّالين. أرسلت ابني كي يستدينها من أيّ أحد. أحضر ابني عشرين كوبيكاً، وقال لي إنّه استدانها من الطباخ. بعد عدة أيام جاء جوالون، واحتجت إلى عشرين كوبيكاً من جديد؛ كان عندي روبل، وتذكرت أنّ الطباخ له في ذمّتي عشرون كوبيكاً. ذهبت إلى المطبخ، وأنا آمل أن أجد صرافة للروبل عند الطباخ. قلت له: «أخذت منك عشرين كوبيكاً، خذ هذا روبل». لم أكمل ما قلته، قبل أن ينادي الطباخ على زوجته من غرفة أخرى. «باراشا، خذي». افترضت أنها فهمت ما أريده بعد أن أعطاها الروبل. يجب أن أشير إلى أنّ الطباخ كان قد جاء إلينا حينها قبل أسبوع. رأيت زوجته، ولكنّني لم أتحدث معها أبداً. أردت أن أقول لها أن تردّ إلي الباقي، لكنّها انحنت بسرعة إلى يدي، وأرادت أن تقبّلها مفترضةً أنني أعطيتها روبلاً. تمتمتُ ببضع الكلمات، وخرجتُ من المطبخ. شعرتُ بالخزي، بالخزي المؤلم، الذي لم أشعر به من قبل. تشنجتُ وتصعّر وجهي. تألمت من شدة الخزي الذي شعرت به، وخرجت من المطبخ. شعرت بأنَ هذا لا يهم، وأنّ الشعور المفاجئ بالخزي أدهشني؛ لأنني لم أشعر به منذ مدة طويلة، ولأنني رجل مسنّ، كما بدا لي، عشتُ ولم أشعر بمثل هذا الخزي من قبل. هذا أدهشني كثيراً. حدّثت عائلتي ومعارفي وكلّهم اتفقوا على أنّهم كانوا سيشعرون بشعوري ذاته لو أنهم مرّوا بالظروف ذاتها. رحت أفكر: لماذا شعرت بالخزي؟ الجواب عن سؤالي أعطاني إياه الحدث الذي وقع معي في موسكو.

تفكّرت في ما حدث معي، وعرفت سبب الخزي الذي شعرت به مع زوجة الطباخ، وكلّ لحظات الشعور بالخزي التي عايشتها أثناء قيامي بالعمل الخيري في موسكو، وهذه المشاعر التي تنتابني الآن بشكل دائم. عندما أعطي مالاً لأيّ شخص، ولا أقصد هنا بعض القطع النقدية الصغيرة التي أعطيها

للمتسولين والجوالين، والتي اعتدت إعطاءها، ولا أعدّها عملاً خيرياً، بل هي مجرّد لطف ولباقة. إذا طلب أحدهم منك ضوءاً فأشعلْ له شمعة إذا كنت تمتلكها، وإذا طلب منكم ثلاثة أو عشرين كوبيكاً أو حتى بضع روبلات، يجب عليك أن تعطيه إذا كان لديك. هذه لباقة، لكنها ليست عملاً خيرياً.

حدث ذلك عندما كنت أقطع الخشب مع الفلاحَيْن اللذين تحدّثت عنهما سابقاً. في أحد الأيام، مساءً عند الغروب، يوم السبت، ذهبت معهما إلى المدينة. كانا ذاهبين لتسلّم أجرتهما من صاحب العمل. قابلنا عجوزاً ونحن نعبر جسر دراغوميلوفسكي. طلب منّا بعض النقود، فأعطيته عشرين كوبيكاً. اعتقدت أن سيميون، الذي تحدّثت معه عن أمور دينية، سيتأثّر بهذه الكوبيكات القليلة. سيميون، ذلك المزارع الذي جاء من منطقة فلاديمير، متزوّج ولديه طفلان في موسكو، توقّف، وثنى طرف قفطانه، وأخرج محفظته، وراح يبحث فيها، ثم أخرج قطعة من فئة ثلاثة كوبيكات، وأعطاها للعجوز، وطلب منه أن يعيد إليه كوبيكين. كان العجوز يحمل في يده قطعتين من فئة ثلاثة كوبيكات وكوبيكاً واحداً. نظر إليه سيميون، وهو يريد أن يسترجع منه كوبيكاً، لكنّه فكّر قليلاً، خلع قبعته، ورسم علامة الصليب ومشى، تاركاً للعجوز الكوبيكات الثلاثة. أعرف الوضع المادي لسيميون جيداً. لم يكن لديه بيتٌ أو أيّ مُلكية أخرى. النقود التي كانت لديه في ذلك اليوم هي ستّة روبلات وخمسون كوبيكاً؛ أي أن كلّ ما يملكه هو هذه الروبلات الستة، والخمسون كوبيكاً. أمّا أنا فكان لديّ ما يقرب من ستمئة ألف. أنا عندي زوجة وأولاد، وسيميون كذلك عنده زوجة وأولاد. كان أصغر مني، وعدد أولاده أقلّ من عدد أولادي، ولكنّ أولاده كانوا صغاراً، أمّا أولادي فكان اثنان منهم بالغَين، ويستطيعان العمل؛ أي إنّ وضعي، بغضّ النظر عن المدخرات، مشابهٌ لوضعه، وقد يكون وضعي أفضل. هو أعطى ثلاثة كوبيكات، وأنا أعطيت عشرين كوبيكاً. ما قيمة ما أعطاه هو، وما قيمة ما أعطيته أنا؟ كم كان يجب عليّ

أن أعطي حتى يكون عطائي مساوياً لعطائه؟ كان لديه ستمئة كوبيك، أعطى منها كوبيكاً ثم اثنين في ما بعد، بينما كان لديّ ستمئة ألف، ولكي أعطي مثل ما أعطى سيميون، كان يجب عليّ أن أعطي ثلاثة آلاف روبل، وأنتظر أن يعيد إليّ ألفي روبل، وإذا لم يكن لديه صرافة، أترك له ألفي روبل، وأرسم علامة الصليب، وأتابع طريقي، وأتكلم بهدوء عن حياة العمال في المصانع، وعن سعر الكبد في سوق سمولين. فكرت حينها في كلّ هذا، لكنّني لم أخرج بنتيجة إلا بعد تفكير طويل، وهي تتصل حتماً بما حدث معي. النتيجة تبدو غريبة وغير عادية، وبالرغم من وضوحها من خلال العملية الحسابية، هناك صعوبة كبيرة لتفهمها. يبدو أنّ هناك خطأً ما، ولكن في الحقيقية لا يوجد أيّ خطأ فيها. هناك فقط كمية رهيبة من الأوهام التي نعيش فيها.

هذه النتيجة التي توصلت إليها، واعترفت بصحّتها، وضَحت لي سبب شعوري بالخزي أمام زوجة الطباخ، وأمام كلّ الفقراء الذين أعطيتهم نقوداً.

في واقع الأمر، ما قيمة تلك النقود التي أعطيها للفقراء، والتي اعتقدت زوجة الطباخ أنّني أعطيتها إياها؟ في الغالب هي جزء بسيط ممّا أمتلكه، وهي بالنسبة إلى سيميون وزوجة الطباخ أرقام لا يمكنهم تخيلها. هي غالباً تساوي جزءاً بالمليون أو ما يقاربه من ثروتي. أعطي القليل؛ حيث إن النقود التي أعطيها لا تسبّب لي فاقة، بل هي مجرد لهوٍ أتسلّى به، عندما يخطر لي ذلك. زوجة الطباخ فهمتني على هذا النحو. إذا أعطيت أحد المارة روبلاً أو عشرين كوبيكاً، فلماذا إذاً لا أعطيها هي روبلاً؟ هذا الروبل بالنسبة إلى زوجة الطباخ هو ثمن كعكة عند النبلاء، وهو مجرد لهو عند أولئك الذين يملكون ثروات هائلة «تافهة». إنّ سوء فهم زوجة الطباخ لي أوضح لي مباشرةً تلك النظرة التي يراني بها غير الأغنياء: «يبذر النقود التافهة؛ أي التي كسبها بجهود الآخرين».

في الواقع، ما هي هذه النقود؟ ومن أين حصلت عليها؟ جزء منها جمعته من ثمن إيجار الأرض التي ورثتها عن أبي. باع الفلاح كلّ خرافه وبقرته لكي يسدّدها لي. الجزء الآخر من أموالي كسبتها من مؤلفاتي وكتبي. إذا كانت كتبي ضارة، فإنّني أغويتهم لكي يشتروها، والأموال التي اكتسبتها من ريعها هي أموال لا أستحقّها، ولكن إذا كانت كتبي مفيدةً للناس، فإنّ الأمر أسوأ. أنا لا أعطيها للناس، ولكن أقول لهم: أعطوني سبعة عشر روبلاً كي أعطيكم إيّاها، وكما باع ذلك الفلاح آخر خروف يمتلكه، هنا أيضاً يبيع الطالب الفقير، أو المعلم، أو أيّ شخص آخر فقير، يحرم نفسه ممّا هو ضروري له، كي يدفع لي ثمن كتبي. جنيت الكثير من هذه الأموال، والآن كيف أتصرّف بها؟ أنقلها إلى المدينة، وأعطيها للفقراء بشرط أن يؤمّنوا لي شروط لهوي، ويأتون إلى المدينة لتنظيف الرصيف والمصابيح والأحذية، ويعملون من أجلي في المصانع، ومن أجل هذه النقود أفاوضهم قدر المستطاع؛ أي أحاول قدر الإمكان أن أعطيهم أقلّ وآخذ منهم أكثر. فجأة، وبشكل غير متوقع، أبدأ، ببساطة وبلا مقابل، بتوزيع هذه النقود على الفقراء؛ لا أعطيها لكل الفقراء، بل لأولئك الذين يوافقون هواي فحسب. لماذا لا ينتظر كلّ الفقراء أن يأتي دورهم لكي أتسلى معهم، وأعطيهم من نقودي البلهاء التي كسبتها بجهود الآخرين؟ هكذا يروني كلهم، وكذلك رأتني زوجة الطباخ.

لأيّ درجة وصل بي الوهم وأنا أنتزع من الفقراء بإحدى يديّ ألف روبل، وبالأخرى أعطي كوبيكات تافهة لمن أرغب من بينهم، وأسمي هذا خيراً. ليس غريباً أن أخجل.

قبل أن أفعل الخير يجب أن أتوقّف عن فعل الشر، والابتعاد عن تلك الظروف التي أفعل فيها الشر، وإلا فحياتي كلّها شر. سأعطي مئة ألف، ولكنّني لن أصبح في الوضع الذي يمكّنني من فعل الخير؛ لأن خمسمئة ألف أخرى لاتزال عندي. عندما لا يتبقّى لديّ شيء، فسأكون حينها فقط في وضع

أتمكّن فيه من القيام بأقلّ عمل خيري، حتى لو كان مثل ما فعلته العاهرة وهي تعتني بالطفل الذي مرضت أمّه لمدة ثلاثة أيام. كم استصغرتُ ما قامتْ به! وتجرأتُ على التفكير في عمل الخير! ما حدّثتني نفسي به في المرة الأولى عندما شاهدت الجائعين والمرتجفين من البرد، في مبنى لبينسكي؛ أي إنني السبب في ذلك، وإنّ استمرار حياتي بالشكل الذي عشته مستحيل، ولا يمكن أن يستمر، وهذه هي الحقيقة وحدها.

الاعتراف بالذنب

أنا أنتمي إلى تلك الفئة من الناس، الذين يأخذون، بخدع مختلفة، من العمّال كلّ ما هو ضروري لهم، ويبنون بخدعهم ثروة هائلة لا يمكن تقديرها تغري أولئك البؤساء. أريد أن أساعدهم، ولكن من جهة؛ عليّ أن أتوقف عن سلبهم جهدهم كما أفعل الآن، ومن جهة أخرى، عليّ ألا أغريهم. استخدمت أكثر الوسائل تعقيداً وخداعاً وشراً عبر التاريخ، لكي أبني لنفسي ثروة كبيرة لا يمكن تقديرها؛ أي تلك الثروة التي أستطيع بفضلها ألا أعمل أبداً، وأجلب مئات وآلاف العمال ليعملوا عندي، وما أفعله يبدو لي أنّه يعكس رغبتي وإرادتي في مساعدتهم.

أجلس على رقبة شخص، وأضغط عليه، وأطلب منه أن ينقلني على كتفيه، دون أن أنزل من على ظهره، وأقنع نفسي والآخرين بأنني أتمنى وأريد التخفيف عنه بكلّ الوسائل المتاحة، ولكن من دون أن أنزل عن ظهره. هكذا بكل بساطة. إذا أردت أن أساعد الفقراء؛ أي أن يصبحوا غير فقراء، فإن عليّ ألا أصنع فقراء جدداً، ثمّ أعطي، وفقاً لاختياري، أولئك الذين تاهوا عن طريق الحياة، بضع روبلات والعشرات والمئات، ومن أجل هذه الروبلات أسلب المئات من الآخرين، الذين مازالوا على طريق الحياة، وبهذا أصنع منهم فقراء، وبالإضافة إلى ذلك، أفسدهم.

هذا أمرٌ في غاية البساطة، لكنني وجدت صعوبة بالغة في فهمه من دون تغييرات وتحفّظات تبرّر حالتي، ولكن ما إن اعترفت بذنبي، حتى أصبح كلّ شيء كان غريباً وصعباً وغير واضح ولا يمكن حله واضحاً تماماً وبسيطاً. أهمّ

شيء هو مسار حياتي، الذي تغيّر بعد هذا التفسير، وبدلاً من المسار القديم، التائه والمؤلم وغير القابل للحل، أصبح مساري الجديد بسيطًاً وواضحاً ومقبولاً.

كيف أقضي يومي أنا الذي أريد مساعدة الناس؟ أريد مساعدة الناس، وأنا أستيقظ في الساعة الثانية عشرة بعد ليلةٍ قضيتُها في لعب الورق في غرفة مضاءة بأربعة مصابيح، واهناً، ومنعّماً، أنتظر مساعدة وخدماتٍ يقدّمها لي مئات الأشخاص من هؤلاء الذين سأساعدهم؟ هؤلاء الذين يستيقظون في الخامسة، وينامون على الأرض، وطعامهم القرنبيط مع الخبز، ويجيدون الحراثة، وجزّ الأعشاب، وصناعة الفؤوس، والنسيج، وربط الخيول، والخياطة. أساعد هؤلاء الذين يفوقونني في تحمّلهم ومهاراتهم وقناعاتهم بقسمتهم بمئة مرة! ما الذي يمكن أن أشعر به غير الخجل من نفسي، وأنا أتحدّث مع هؤلاء الناس؟

أضعف شخص بينهم هو ذلك المخمور، الذي يقيم في مبنى رجانوف، والذي يسمّونه كسولاً، لكنّه يفوقني بمئة مرّة في حبّه للعمل. ميزانه؛ أي العلاقة بين ما يأخذه من الناس وما يعطيه لهم، يتفوّق على ميزاني بألف ضعف، إذا حسبت ما آخذه من الناس وما أعطيه لهم، ثمّ أدّعي أنني ذاهب لمساعدتهم.

أنا أساعد الفقراء. من هو الفقير؟ ليس هناك من هو أفقر منّي. أنا شخص خائر القوى، لا يصلح لأيّ شيء، ولا يستطيع العيش إلا في أشدّ الظروف استثنائية، ولا يمكنه العيش إلا عندما يجتمع آلاف الناس للحفاظ على حياته التي لا أهمية لها. أنا تلك القملة، التي تأكل من لحاء الشجر، أريد أن أساعد الشجرة في نموّها وصحتها، وأريد أن أعالجها.

قضيتُ كلّ حياتي على الشكل الآتي: آكل وأتكلّم وأستمع، أو آكل وأكتب وأقرأ؛ أي أتكلّم وأستمع، ثمّ أستلقي للنوم، وهكذا كلّ يوم، ولا أجيد ولا أستطيع فعل أيّ شيء آخر، ولكي أقوم بكلّ هذا، يجب أن يعمل، من

الصباح إلى المساء، كلٌّ من الحارس والفلاح والطباخ والطباخة والخادم والحوذي وعاملة الغسيل. لم أتكلَم بعدُ عن أعمال الأشخاص الضرورية لكي يقوم الحوذي والطباخ والخادم والباقي بأعمالهم، وتكون لديهم تلك الأدوات والمواد التي يعملون بها مثل الفؤوس والبراميل والفراشي والأدوات المنزلية والأثاث والزجاج والشمع والدهانات والكيروسين والحشائش والخشب ولحم البقر. يعمل كلَ هؤلاء الأشخاص في ظروفٍ صعبة طوال النهار وكلَ يوم، لكي أستطيع أنا التحدّث والأمل والنوم. أقنع نفسي، وأنا ذلك العاجز، بأنّني أستطيع مساعدة الآخرين؛ مساعدة أولئك الذين يطعمونني.

ليس غريباً أنني لم أستطع مساعدة أيّ أحد، وشعرت بالخجل من نفسي، لكنّ الغريب هو كيف أتتني هذه الفكرة السخيفة. تلك المرأة التي اعتنت بالعجوز المريض هي من ساعدته. تلك الفلاحة، التي قسمت رغيف الخبز الذي كسبته من عملها في الأرض الخصبة، هي التي ساعدت المتسوّل. سيميون، الذي أعطى ثلاثة كوبيكات من أجره اليومي، هو من ساعد المتسوّل؛ لأن تلك الكوبيكات الثلاثة عبّرا حقيقةً عن جهده، لكنني لم أخدم ولم أعمل عند أيّ أحد، وعرفت جيداً أنّ أموالي لا تعبّر عن عملي، وشعرت بأنّ في الأموال، في الأموال بشكل خاص، في امتلاكها، هناك شيء من السفالة والدناءة، وبأنّ الأموال التي أمتلكها هي أحد أسباب المصائب التي رأيتها أمامي، وتساءلت: ماذا يعني المال؟

ماذا يعني المال؟

ماذا يعني المال؟

المال هو تجسيد للعمل. قابلت أشخاصاً مثقفين أكدوا كذلك أنّ المال يمثّل جهد الشخص الذي يمتلكه. أعترف بأنّني اقتنعت بمثل هذه الفكرة سابقاً، لكنني كنت أتوق بشدة إلى معرفة معنى المال؛ لذا لجأت إلى العلم.

يقول العلم إن المال ليس شيئاً سلبياً وضاراً في حدِّ ذاته، وإنه شرط طبيعي للحياة الاجتماعية، ولتسهيل تبادل البضائع، ولوضع أسس تقييم للأشياء، وللادخار، وللمدفوعات المختلفة.

عندما يكون لدي 3 روبلات في جيبي، فائضة عن حاجتي، أستطيع، بنداءٍ بسيطٍ، في أيّ مدينة متحضرة؛ أستطيع استدعاء المئات الجاهزين لأن يقوموا بأعمال مقزّزة ومهينة لهم من أجل الحصول عليها، والسبب الواضح لهذه الظاهرة ليس المال، بل الظروف الاقتصادية الصعبة جداً في حياة الشعوب.

إن تسلّط بعض الناس على آخرين ليس سببه المال، بل سببه أنّ العامل لا يأخذ الثمن الكامل لجهده. يأخذ العامل القيمة غير الكاملة لجهده بسبب طبيعة رأس المال والإيجارات والرواتب، والعلاقات المعقّدة بينها وبين الإنتاج وتوزيع الثروة. هذا يعني، بكلماتٍ بسيطة، أنّ الناس، الذين يملكون المال، يستطيعون أن يخدعوا ويمكروا بأولئك الذين لا يملكونه.

لكن العلم يقول إنّ الأمر ليس كذلك.

يقول العلم إنّ أيّ مجال إنتاجي يتأثر بثلاثة عوامل: الأرض والأدوات المدخرة (رأس المال) والعمل. العاملان الأوليان؛ أي الأرض ورأس المال، ومن خلال العلاقات المختلفة بينهما، يقعان خارج إرادة العمال، ويتحكّم فيهما أشخاص آخرون. من هنا تتولد سلسلة من الحيل المعقدة، ويتشكّل استعباد بعض الأشخاص لآخرين.

ما سبب استعباد بعض الناس لآخرين؟ كيف قامت هذه المملكة المالية، التي تدهشنا جميعاً بظلمها وقسوتها؟ كيف يتسلط بعض الناس من خلال المال على آخرين؟ يقول العلم إن هذا يأتي من تقسيم عوامل الإنتاج والتعقيدات الناتجة عنها، التي تضطهد العامل. لطالما كانت هذه الإجابة غريبة بالنسبة إلي، ليس لأنها تقتصر على جانب واحد من السؤال فحسب: عن أهمية المال بالضبط، بل لأنها تعزو السبب إلى تقسيم عوامل الإنتاج، التي يبدو أنها مصطنعة، ولا تقدّم إجابة شافية. العلم يقول إنّ عملية إنتاجية تشترك فيها ثلاثة عوامل: الأرض ورأس المال والعمل، ويوضح هذا التقسيم أنّ الثروة (أو قيمتها بالمال) تتوزع بين أولئك الذين يمتلكون عوامل الإنتاج: الإيجارات وقيمة الأرض يحدّدها مالك الأرض. أما النسبة فيحدّدها مالك رأس المال. أما أجرة العمل فيحدّدها العامل.

أليس كذلك؟ أولاً، هل صحيح أنّ هناك ثلاثة عوامل في أيّ عملية إنتاجية؟

تجري الآن حولي، وأنا أكتب هذا، عمليات إنتاج التبن. ممَّ تتكون هذه العملية الإنتاجية؟ يقولون لي: من الأرض التي نبت فيها الزرع، ومن رأس المال الذي تمثّله المناجل والمذاري والشوكات والعربات اللازمة لجمع التبن، ومن العمل. لكنني أرى أنّ كلامهم غير صحيح. بالإضافة إلى الأرض، تشارك في عملية إنتاج التبن عوامل أخرى كالشمس والماء والبنية العامة التي تحمي هذه المروج من أن ترعاها الماشية، ومهارات العمال، وإتقانهم اللغة

وفهمهم للكلمات، وهناك عوامل كثيرة أخرى تؤثّر في الإنتاج، لا أدري لماذا لا تقبلها السياسات الاقتصادية.

قوة الشمس هي عامل مهم في الإنتاج، وأكثر أهمية من الأرض. أستطيع أن أتخيّل حال الناس (في المدينة مثلاً)؛ حيث يُعطي بعضهم نفسه الحقّ في حجب الشمس عن آخرين بالجدران أو بالأشجار. لماذا لا تدخل الشمس في قائمة عوامل الإنتاج؟ الماء بدوره عامل مهم جداً، مثل الأرض، والهواء كذلك. أستطيع أن أتخيّل أيضاً حال بعض الناس، المحرومين من الماء والهواء النقي؛ لأنّ آخرين أعطوا أنفسهم الحقّ في منع الماء والهواء عنهم. السلامة العامة هي عامل ضروري أيضاً. الغذاء ولباس العمال هي أيضاً عوامل إنتاجية، يعترف بها بعض الاقتصاديين. التعليم الذي يتيح إمكانيّة إتقان أعمال مختلفة هو عامل أيضاً. أستطيع أن أكتب مجلداً كاملاً عن تلك العوامل الإنتاجية التي تمّ إغفالها. لماذا اختيرت ثلاثة عوامل إنتاجية، ووضعت في أساسيات العلم؟

لماذا لا تُصنف أشعة الشمس والماء والغذاء والمعرفة على أنها عوامل إنتاج منفصلة؛ حيث تقتصر فقط قائمة تلك العوامل على الأرض وأدوات العمل والعمل؟ هذا فقط لأنّ دعواتٍ لمصادرة حقّ الناس في الاستمتاع بأشعة الشمس وبالماء وبالتحدث والاستماع لم تُطلق إلا في مناسبات قليلة، ولكن الدعوات لتقويض حقّهم في استخدام الأرض وأدوات العمل والعمل تُطلق باستمرار في مجتمعنا.

لا يوجد أساس آخر لهذه الدعوات لسببين: الأول هو أنني أرى أنّ تقسيم عوامل الإنتاج إلى ثلاثة فقط هو تقسيم عفوي، ولا يدخل في جوهر الأشياء. قد يحمل هذا التقسيم معنى للأشخاص الذين يعملون في جوٍ تسوده العلاقات الاقتصادية، وتنقسم عوامل الإنتاج هناك إلى هذه العوامل الثلاثة؟ لِنرَ، هل هذا صحيح. لو نظرت عن كثب إلى حياة المستوطنين الروس من حولي،

الذين يُقدَّر عددهم بمليون شخص. يأتي المستوطنون إلى الأرض، ويقيمون عليها، ويبدؤون العمل، ولا يخطر في بال أحدهم أن من يستخدم الأرض يملك حقاً ما فيها، وأنّها ليست مشاعاً للجميع، بل على النقيض تماماً، إنهم يعترفون ويدركون أنّ الأرض هي مُلكية عامة، ويرون أنّ من العدالة أن يزرع كلّ شخص ويحصد في المكان الذي يريده، وبما تستطيعه قواه. ينتج السكان أدوات العمل، من أجل حراثة الأرض، وإقامة البساتين، وبناء البيوت، ولا يخطر في بال أحدهم أيضاً أن أدوات العمل يمكنها وحدها أن تجلب لهم دخلاً، وأن رأس المال أيضاً لا يعني امتلاك أيّ حق فيه، بل على العكس، يعترف ويدرك السكان أنّ أيّ فائدة يجنونها من أدوات العمل أو رأس المال هي زيادة غير مستحقة. السكان الذين يعملون على أرض مستقلة، ويعملون بأدواتهم أو بأدوات اقترضوها، إنّ أيّ واحد منهم أو كلّهم معاً، في مثل هذا التجمّع، لا يمكنه أن يجد نسبة أو فائدة من رأس المال، أو من أجرة العمل.

الحديث عن مثل هذه المُلكية الجماعية ليس خيالاً، بل إنّني أصف فيه ما حدث دائماً وما يحدث الآن، ليس عند المستوطنين الروس فحسب، بل في كل مكان لايزال فيه الناس على طبيعتهم وفطرتهم. أنا أصف ما يمثّل لكلّ منهم أمراً طبيعياً ومنطقياً. يأتي العمال إلى الأرض، ويُوزَّعون كلّ بحسب العمل الذي يناسبه. إذا وجد الناس أنّ العمل في جماعات مناسب ومريح لهم، فإنّهم يدخلون في جمعيات تعاونية، ولكن ليس في جمعيات منفصلة، مقسمة قسرياً وفقاً لعوامل الإنتاج. سيكون هناك العمل والشروط الضرورية له؛ مثل الشمس التي تدفئ الجميع، والهواء الذي يتنفسه الجميع، والماء الذي يشربونه، والأرض التي يعملون فيها، والألبسة التي يرتدوانها، والغذاء الذي يملأ بطونهم، والأوتاد، والألواح، والمحراث، والآلات التي يعملون بها.

ويبدو واضحاً أن أشعة الشمس والهواء والماء والأرض واللباس والغذاء والأوتاد والألواح والمحارث والمعازق والآلات، التي يستعملونها في الجمعية، لا يمكن أن تنتمي فحسب إلى أولئك الذين يستفيدون من أشعة الشمس، ويتنفسون الهواء، ويشربون الماء، ويأكلون الخبز، ويغطون أجسادهم، ويستعملون المعازق والأدوات المختلفة؛ لأنّ هذه الأشياء مُهِمّة لأولئك الذين يستخدمونها فحسب، وعندما يتصرف الناس بهذا الشكل، نعتقد، كما يبدو لنا من خلال رؤيتنا لهم، أنّ تصرفهم صحيح ومنطقي.

وهكذا، بعد أن تعمّقت في العلاقات الاقتصادية بين الناس، أرى أنّ تقسيم عوامل الإنتاج إلى ثلاثة عوامل لم يكن في محلّه. أنا أرى العكس؛ أرى أن هذا التقسيم ليس في محله وغير منطقي.

لكن قد لا ينتج تقسيم هذه العوامل الثلاثة عن الطبيعة الفطرية للمجتمعات، بل يصبح واقعاً حتمياً عندما يزداد عدد السكان فحسب. وهذا التقسيم قد حدث فعلاً في المجتمعات الأوروبية، ولذلك لا يمكننا إلا أن نعترف به.

لنرَ، أَهذا صحيح أم لا؟

يقولون إنّ عوامل الإنتاج انقسمت في المجتمع الأوروبي؛ أي إن بعض الأشخاص يمتلكون الأرض، والبعض الآخر لديه أدوات العمل، أما القسم الثالث فهم لا يمتلكون الأرض ولا أدوات العمل. العامل محروم من الأرض ومن أدوات العمل.

اعتدنا مثلَ هذه الأفكار إلى درجة أنها لم تعد تدهشنا بغرابتها. إذا تعمقنا في هذه العبارة، فإننا سنرى أنها غير صحيحة وبلا جدوى أيضاً. تتضمن هذه العبارة تناقضاً داخلياً. إن مفهوم العامل يتضمّن الأرض التي يعيش عليها هذا العامل، والأداة التي يعمل بها.

لو أنه لم يعِش على الأرض، ولم يمتلك أداة العمل، لما أصبح عاملاً. ليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك عامل بلا أرض يعيش عليها، وبلا أداة يعمل بها. لم يكن ولا يمكن أن يكون هناك فلاح من دون أرض يعمل فيها، ومن دون مناجل وعربات وأحصنة، ولا يمكن أن نجد إسكافياً من دون بيت مبني على أرض ما، ومن دون الماء والهواء وأدوات العمل التي يعمل بها.

إذا لم يكن عند المزارع أرض وحصان ومناجل، ولم يكن عند الإسكافي بيت وماء ومخرز، فهذا يعني شيئاً واحداً فحسب، هو أن هناك مَن طرد الفلاح من أرضه، وأخذ منه المناجل والعربات والحصان، وهناك من أخذ من الإسكافي المخرز، لكن هذا لا يعني أبداً أنّ هناك مزارعين من دون محاريث، وإسكافيين من دون أدوات.

من غير المعقول أن نرى صياداً في البر، أو من دون أدوات الصيد. هذا لا يحدث إلا إذا طرده شخصٌ ما من البحر، وأخذ منه شباك الصيد. كذلك هو حال المزارع، أو صانع الأحذية، بلا أرض يعيش عليها، وبلا أدوات يعمل بها، وهذا لا يحدث إلا إذا طُردا من الأرض التي يعيشان عليها، أو انتزع شخص ما منهما أدوات عملهما.

قد يكون هناك أشخاص يُطردون من مكان إلى آخر، وآخرون تُسلب منهم أدوات عملهم، وقسم ثالث يُجبَرون على العمل بأدوات لا تناسب عملهم، لكن هذا لا يعني أنّ هذه خاصيّة إنتاجية، بل يعني فحسب أنَ هناك حالاتٍ تُختَرَق فيها الخصائص الطبيعية للإنتاج.

إذا عُدَّ كلُّ ما يفقده العامل، بقوةٍ تُفرض عليه، في قائمة عوامل الإنتاج، فلماذا لا تُعدُّ ادعاءات امتلاك خصوصيّة العبيد ضمن عوامل الإنتاج؟ ولماذا لا تدخل ادعاءات امتلاك الحقّ في استخدام أشعة الشمس والهواء والماء في قائمة عوامل الإنتاج؟

قد نرى شخصاً يبني جداراً، ويحجب الشمس عن جاره، وقد يظهر آخر يحوّل مجرى الجدول إلى بركة ويلوثها، وقد يظهر ثالث يدعي أنه يمتلك شخصاً آخرَ مثله. وكما أنّ ادعاءات هؤلاء الثلاثة، إذا نفذوها بالقوة خاصةً، لا يمكن أن تدخل في قائمة عوامل الإنتاج الأساسية، فإنه من غير المنطقي كذلك قبول الحقوق المصطنعة في امتلاك الأرض وأدوات العمل في القائمة ذاتها. كذلك الحقوق الزائفة في استخدام أشعة الشمس والهواء والماء وامتلاك خصوصية الآخرين، لا يمكنها أيضاً أن تدخل في قائمة عوامل الإنتاج.

قد يدّعي أشخاصٌ امتلاكهم الأرض وأدوات إنتاج العامل، كما ادّعى آخرون امتلاكهم خصوصية العمال، وقد نرى أشخاصاً يدّعون امتلاكهم الخاص لأشعة الشمس والماء والهواء، أو أشخاصاً يطردون العامل من مكان إلى آخر، ويسلبون منه بالقوة منتجاته وأدوات عمله، ويجبرونه على العمل ليس لمصلحة نفسه، بل لمصلحة صاحب العمل، كما يحدث في المصانع. كلّ هذا يمكن أن يحدث، ولكن لا يمكن أن نجد عاملاً بلا أرض يعمل عليها، وبلا أدوات، وكذلك لا يمكن أن نجد شخصاً يمتلك خصوصية شخص آخر، بغضّ النظر عن أنّ الناس قد ادّعوا هذا كثيراً.

وكما أنّ التأكيد على امتلاك خصوصية شخص آخر لن يغيّر من طبيعة العبد الفطرية في أن يبحث عن خيره الشخصي، وليس عن خير سيده، كذلك التأكيد على حقّ امتلاك مكان وأدوات عمل آخرين لا يمكن أن يغيّر طبيعة العامل الفطرية في أن يعيش الحياة ويعمل بأدواته الخاصة أو بأدوات الآخرين، بالشكل الذي يراه مفيداً له.

كل ما يستطيع العلم قوله، عندما يدرس الوضع الاقتصادي الراهن، هو وجود ادعاءات لبعض الناس بامتلاكهم الأرض وأدوات عمل العمال، التي بنتيجتها بالنسبة إلى بعض العمال (وليس كلهم بطبيعة الحال) يجري

انتهاك ظروف العمل الطبيعية؛ لأن العمال يفقدون أماكن وأدوات عملهم، ويُجبرون على استخدام أدوات غيرهم، ولكن لا يمكن القول إنّ هذا الانتهاك الاستثنائي لقانون الإنتاج هو قانون الإنتاج الطبيعي.

إنَ اعتبار الاقتصاديين لتقسيم عوامل الإنتاج على أنّها القانون الأساسي للإنتاج يشبه ما يفعله عالِم الحيوانات، الذي رأى عدداً من طيور الحسون في الأقفاص مكسورة الأجنحة، فاستنتج من هذا المشهد أن القفص والدلو، الذي فيه ماء يصعد إلى الأعلى، هي الشروط الطبيعية لحياة الطائر، وأنّ حياة الطيور تتوقف على هذه العوامل الثلاثة.

مهما كان عدد الطيور في الأقفاص، بأجنحة مكسورة، إن عالِم الحيوان لا يستطيع القول إنّ الأقفاص هي الشرط الطبيعي لحياة الطيور.

مهما كان عدد العمال، الذين يُطردون من مكان إلى آخر، ويفقدون ما أنتجوه، وتُسلب منهم أدوات عملهم، إن الطبيعية الفطرية للعامل في أن يعيش على الأرض ويعمل بها ستبقى هي ذاتها. هناك ادعاءات بامتلاك بعض الناس الأرضَ وأدوات الإنتاج، تماماً كما كانت في العالم القديم دعوات لامتلاك بعض الأشخاص أشخاصاً آخرين. وكما أنه لم يمكنهم، بأيّ حال من الأحوال، تقسيم الناس إلى أسياد وعبيد، كما أرادوا فعل ذلك في العالم القديم، إنّ تقسيم عوامل الإنتاج إلى أرض ورأس مال، كما يريد الاقتصاديون هذا الآن في المجتمع المعاصر، غير ممكن.

يسمي العلم هذه الادعاءات غير القانونية بامتلاك بعض الأشخاص حريةَ آخرين الخصائصَ الطبيعيةَ للإنتاج. بدلاً من يأخذ العلم أسسه من الخصائص الطبيعية للمجتمعات البشرية، أخذ من حالةٍ خاصةٍ، ويريد أن يثبت أسسه بناءً عليها، ويعطي الحقَ لشخصٍ ما في الأرض التي يكسب شخصٌ آخر رزقه منها، كما يعطي الحق في نزع الأدوات التي يعمل بها شخص آخر؛ أي إنَ العلم اعترف بالحقّ الذي لم يكن ولا يمكن أن يكون موجوداً، وفي هذا

تناقض واضح؛ لأن الحق في امتلاك شخص ما أرضاً لا يعمل فيها يعني في جوهره امتلاكه أرضاً لا يستخدمها وليست له، وادعاء ملكيته لأدوات عمل الآخرين يعني ضمنياً ادعاءه مُلكية أدواتٍ لا يستخدمها.

يؤكِّد العلم، بتقسيمه عوامل الإنتاج، أنّ الحالة الاستثنائية للعامل، التي يعيشها الآن، هي الحالة الطبيعية، تماماً مثل ما فعلوا في العالم القديم، عندما قسّموا الناس إلى أسياد وعبيد، وأرادوا إثبات أنّ العبودية هي الحالة الطبيعية للإنسان، في حين أنّها حالة شاذة. العلم يقبل هذا التقسيم لكي يبرر فحسب الواقع الحالي، الذي وضعه أساساً لكلّ دراساته، وهذا الواقع يفعل ما يحاول العلم أن يقوم به بشكل زائف، ويعطي شروحاتٍ خاطئة للظواهر الموجودة، وينكر أبسط وأوضح الأجوبة عن الأسئلة المطروحة؛ أي يعطي أجوبة لا تحمل أيّ معنى.

السؤال الذي يطرحه علم الاقتصاد هو: لماذا يمتلك/يستعبد بعض الأشخاص، بامتلاكهم الأرض ورأس المال، الآخرين الذين ليس لديهم أرض ورأس مال؟

الجواب البديهي أنّ هذا يحدث بسبب المال، الذي يحمل معه خاصيّة استعباد الناس. العلم ينكر هذه الإجابة، ويقول إنّ المال ليس هو السبب، بل السبب أن بعض الأشخاص يمتلكون الأرض ورأس المال، وأن آخرين لا يمتلكونهما. نحن نسأل: لماذا يستعبد الأشخاص، الذين يمتلكون الأرض ورأس المال، أشخاصاً آخرين؟ يجيبوننا بأنّ السبب هو أنهم يمتلكون الأرض ورأس المال. نحن نسأل عن هذا بالضبط. نزع الأرض وأدوات العمل هو استعباد. إن الإجابة تشبه القول إنّ الحبوب المنوّمة تسبب النوم لأنّها حبوب منوّمة.

لكن الحياة لن تتوقف عن طرح السؤال الطبيعي، والعلم بدوره يراه، ويحاول الإجابة عنه، لكنه لن يستطيع الإجابة إذا خرج عن أسسه، وسيبقى يدور في حلقة مفرغة. لكي يقدم العلم الإجابة، ينبغي له، قبل كلّ شيء، أن

يترك التقسيم الزائف لعوامل الإنتاج؛ أي يترك تفسيره لنتائج الظواهر وفق أسبابها البعيدة، بل يجب أن يبحث عن إجابات واضحة وقريبة أولاً، ثم إجابات أبعد وأبعد للظواهر التي تمثّل موضوع دراسته.

ينبغي للعلم أن يجيب عن السؤال الآتي: لماذا يمتلك بعض الأشخاص الأرض وأدوات العمل، بينما يُحرم منها آخرون؟ أو بصيغة أخرى: لماذا تنتقل مُلكية الأرض وأدوات العمل من يد أولئك الذين يحرثون الأرض ويستخدمون أدوات العمل؟

ومتى يضع العلم هذا السؤال أمامه تظهر تصوّرات جديدة تعيد النظر في وضعية العلم القديم، التي تدور حول تأكيد أنّ الفقر، الذي يعيشه العامل، هو بسبب أنه فقير.

يعتقد أبسط الناس أن السبب الأهم لاستعباد بعض الناس لآخرين هو المال، لكن العلم ينكر ذلك، ويؤكد أنّ المال ما هو إلا أداة للتبادل لا تشترك مع استعباد الناس بأيّ شيء.

لنرَ، هل هذا صحيح حقاً؟

قصة شعب فيجي

من أين يأتي المال؟ وما هي الشروط التي تمكّن الشعوب من امتلاكه؟ وما هي الظروف التي لا تحتاج فيها الشعوب إلى المال؟

تعيش بعض القبائل في أفريقيا وأستراليا كما عاشت القبائل السكوثية[1]، وهي تعمل منذ عصور قديمة في رعاية الماشية وفي البساتين.

ظهر الغزاة في المشهد التاريخي منذ القدم، وكان سلوكهم دائماً هو ذاته: يأخذون من الناس كلَّ ما يستطيعون أخذه: الماشية والحبوب والأقمشة، حتى الأسرى والسبايا. يعود الغزاة مرةً أخرى بعد بضع سنوات، فيجدون أنّ الناس لا يزالون يعانون من تبعات الاجتياح السابق، ولا يجدون ما يأخذونه منهم هذه المرة، ويبتكرون أساليب أفضل للاستفادة منهم. هذه الأساليب بسيطة وطبيعية، ويمكن أن تخطر في بال أيّ شخص. الوسيلة الأولى هي الاستعباد؛ هذه الوسيلة لها سلبياتها؛ لأنها تحتم على الغزاة التحكّم في جميع السكان وإطعامهم، ومن هنا تأتي الوسيلة الثانية: إبقاء الناس في أماكنهم، وادعاء أنّ أرضهم ملكٌ للغزاة، ومن ثَمَّ توزيعها على نخبة من العسكريين والأعوان، الذين يجمعون ما ينتجه الشعب، ويعطونه للغزاة. هذه الوسيلة غير مناسبة أيضاً؛ إذ لا يمكن للعسكر حصر كلّ ما ينتجه الشعب، ويأتي هنا دور الوسيلة

1 هم شعب بدوي متنقّل ينحدر من أصول إيرانية، وهم من مملكة سيثيا (سكيثيا)، حلوا محل السيريين الذين كانوا قد جاؤوا من سهول روسيا. وقد نزح السكوثيون من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن الثامن قبل الميلاد.

الثالثة، وهي وسيلة بديهية، مثل الوسيلتين الأولى والثانية، تتلخّص هذه الوسيلة في فرض أتاوى على السكان يدفعونها في أوقات معينة.

إن غاية الغزاة هي سلب أكبر قدرٍ ممكن من إنتاج الشعوب التي يغزونها.

يبدو واضحاً جداً أن الغازي، لكي يحصل على أكبر قدر ممكن من إنتاج الشعب، ينبغي له أن يأخذ المواد ذات القيمة العالية عندهم، وفي الوقت نفسه يجب ألا تكون كبيرة الحجم، وأن تكون مناسبة للحفظ، مثل جلود الحيوانات والذهب. عادةً يفرض الغزاة ضرائب عاجلة من الجلود والذهب على العائلة أو القبيلة، ويستولون على أدوات الإنتاج، من خلال هذه الضرائب، وبأبسط الوسائل. يجمعون تقريباً كل الجلود والذهب من أيدي الشعب؛ لذا يجد الخاضعون أنفسهم مجبرين على بيع كلّ ما يملكونه، بما في ذلك ثروتهم ونتاج عملهم، إلى بعضهم وإلى الغزاة وإلى الأعوان المكلفين بجمع الضرائب، مقابل الذهب. هذا ما حدث في العصور القديمة والوسطى، ويحدث الآن أيضاً. في العالم القديم، أثناء الغزوات المتكررة من بعض الشعوب لشعوب أخرى، وفي ظلّ غياب الوعي بمبدأ المساواة بين الناس، كان الرّقّ هو الوسيلة الأكثر انتشاراً لاستعباد بعض الناس لآخرين، ومثّلَ مركز ثقل هذا الاستعباد.

غيّرَ النظام الإقطاعي؛ أي احتكار مُلكية الأراضي، في العصور الوسطى، ونظام الأقنان المرتبط به، مفهومَ العبودية بصورة نسبية، وانتقل مركز ثقلها من الإنسان إلى الأرض. في العهد الجديد، مع فتح أمريكا، وتطور التجارة، وتدفّق الذهب، الذي أصبح مؤشراً مالياً عاماً، أصبحت الضرائب المالية، بقوة السلطة الحكومية، الأداة الرئيسة لاستعباد الناس، التي تقوم عليها كلّ العلاقات الاقتصادية بين الناس.

في مجلد الأعمال الأدبية هناك مقال للبروفيسور يانجول[1]، الذي يسرد فيه التاريخ الحديث لجزر فيجي[2]. لو حاولتُ أن أرسم صورة واضحة للطريقة التي أصبح بها طلب المال إلزامياً في وقتنا الراهن، وكيف أصبح الأداة الرئيسة لاستعباد بعض الناس لآخرين، لما استطعتُ أن آتي بصورة أوضح وأكثر إقناعاً من قصة تلك الجزر القائمة على الوثائق، والتي حدثت مؤخراً.

يعيش شعب فيجي في جزر على المحيط الهادئ، في بولينيزيا. تتكوّن كلّ مجموعة الجزر، كما يقول البروفيسور يانجول، من جزر صغيرة تشكل بمجموعها ما يقارب 4000 ميل مربع. نصفها آهلٌ بالسكان؛ حيث يعيش فيها 150000 من السكان المحليين و1500 من البيض. ترك السكان المحليون النظام البدائي منذ زمن طويل، وتميّزوا عن باقي سكان بولينيزيا بقدراتهم، ويمثلون شعباً مؤهلاً للعمل والتطور، وأثبتوا، خلال فترة قصيرة، أنهم مزارعون ومربون ناجحون. عاشوا في نعيم، ولكن في عام 1859 وجدت المملكة الجديدة نفسها في وضع بائس؛ حيث أصبح شعب فيجي وممثله كاكابو بحاجة ماسة إلى المال. كانت مملكة فيجي بحاجة إلى 45000 دولار لدفع غرامة أو تعويضٍ فرضته الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب العنف الذي اتّهمتهم باستخدامه على بعض المواطنين الأمريكيين. أرسل الأمريكان لهذه الغاية أسطولاً احتلّ فجأة عدداً من أفضل الجزر، واتّخذوها رهينة، وهدّدوا بتفجير وتدمير المستعمرة، إذا لم تُدفع الغرامة لممثلي أمريكا خلال فترة زمنية محدّدة. كان الأمريكان من أوائل المستعمرين الذين ظهروا في جزر فيجي بالإضافة إلى المبشرين. استولى الأمريكان على أفضل الأماكن،

---

1 ( ) إيفان إيفانوفيتش يانجول (1846 - 1914) اقتصادي روسي ساعد في إنفاذ أول قانون عمل روسي يوفر تدبيراً من الحماية لعمال المصانع الروس.

2 جمهورية جزر فيجي هي دولة جزرية في ميلانيزيا في جنوب المحيط الهادئ نحو 2000 كلم شمال شرق الجزيرة الشمالية لنيوزيلندا.

وأقاموا فيها مزارع القطن والبن، بالاختيار أو بالقوة، وبذرائع مختلفة، واستأجروا عدداً كبيراً من السكان المحليين، وألزموهم بمعاهدات لا يمكن لبدائيين مثلهم أن يفهموها، أو من خلال تبادل السلع عبر تجار ومقاولين.

كان الاصطدام حتمياً بين مالكي تلك المزارع والسكان المحليين؛ حيث نظروا إليهم بوصفهم عبيداً، وأصبح هذا الاصطدام ذريعة لفرض الغرامة الأمريكية. بغضّ النظر عن ثروتهم الجيدة، إن الاقتصاد الطبيعي، الذي انتشر في أوروبا في القرون الوسطى، هو السائد حتى الآن تقريباً عند الفيجيين؛ حيث لم يكن المال وسيلةَ التبادل التجاري، بل امتلكت التجارة عملية تبادلية خاصة؛ أي مقايضة البضاعة ببضاعة أخرى، وفرضت الكثير من الضرائب الحكومية والاجتماعية على المنتجات الزراعية.

ما الذي كان على شعب فيجي وملكهم كاكابو فعله، عندما فرض عليهم الأمريكان 45000 دولار تحت التهديد بعواقب وخيمة إذا لم يدفعوا؟ إن هذا الرقم لم يكن معروفاً عند الفيجين، ولا يستطيعون تخمين قيمته، بالإضافة إلى ذلك، إنهم لم يستخدموا النقود في معاملاتهم، ومن ثَمَّ هم لا يعرفونها.

تشاور كاكابو مع بعض رفاقه، وقرّر أن يطلب المساعدة من المملكة البريطانية. في البداية طلب منهم قبول الجزر تحت الحماية البريطانية، ثمّ طلب التبعية الكاملة لهم. تعامل الإنجليز بحذرٍ مع هذا الطلب، ولم يتسرّعوا في مدّ يد العون للملك البربري في الصعوبات التي تواجهه. أرسل الانجليز، بدلاً من استجابتهم المباشرة للطلب، في عام 1860، بعثة خاصة لدراسة جزر فيجي، ودراسة جدوى ضمّها إلى المملكة البريطانية، بعد دفع الضرائب التي تفرضها أمريكا عليها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

استمرت الحكومة الأمريكية، خلال تلك الفترة، في إصرارها على المطالبة بالضريبة، واستحوذت على أفضل المناطق، ووضعتها تحت سيطرتها الكاملة، كنوع من الرهينة. وبعد أن اطلعت على ثروة شعب فيجي، زادت المبلغ من 45000 إلى 90000 دولار، وهددت بزيادته أيضاً، إذا لم يدفعِ كاكابو المبلغ في أقرب وقت. بدأ حينها المسكين كاكابو، المحاصر من كلِ الجهات، والذي كان جاهلاً بالصيغ التمويلية الأوروبية، بناءً على نصيحة من المستعمرين الأوروبيين، البحثَ عن المال في مالبورن، عند التجار، وفي أيّ مكان، وبأيّ طريقة كانت، حتى لو اضطرّ إلى تسليم المملكة كلّها إلى عدد من وجهائها. وهكذا تشكّلت شركة تجارية في مالبورن، بناءً على طلب كاكابو. وقعت هذه الشركة المساهمة، التي أُطلِق عليها اسم «الشركة البولينيزية»(Polinesian company)، مع مالكي فيجي اتفاقيّة تتضمّن أفضل الشروط المربحة لها.

بعد أن قبلت الشركة بدفع الضريبة التي فرضتها الحكومة الأمريكية خلال فترة محددة، بدأت، تنفيذاً للاتفاقية، بضمّ مئة ثمّ مئتي ألف فدان من أفضل الأراضي إلى ممتلكاتها، بحسب اختيارها، مع إعفاء دائم من أيّ ضرائب لكلِّ نشاطاتها التجارية وعملياتها ومستعمراتها، وامتلاك حقّ حصري خاص بها باستصدار عدد غير محدود من العملات النقدية والورقية.

وجد الفيجيون أنفسهم بعد هذه الاتفاقية، التي وُقعت بشكل نهائي عام 1868، واقعين تحت تأثير حكومة أخرى، إلى جانب ملكهم المحليِ كاكابو، وهي شركة تجارية كبيرة تمتلك مساحات واسعة من الأراضي في كلِّ الجزر، ولها تأثير قويّ على الإدارة.

كانت حكومة كاكابو مقتنعة بما تحصل عليه من السكان من خلال الوسائل المادية المختلفة، مثل الجبايات العينية، وفرض ضرائب جمركية صغيرة على البضائع المستوردة، لكن الظروف الاقتصادية تغيّرت بعد توقيع الاتفاقية، وتأسيس الشركة البولينيزية الكبيرة.

انتقلت مُلكية أفضل الأراضي إلى الشركة، ومن ثَمَّ، نقص حجم الجبايات. ومن جهة أخرى، كما نعلم، أعفت الشركة نفسها من الضرائب على البضائع المستوردة والمصدرة، ومن ثم نقص مردود الجمارك.

إنّ نسبة 0.99 من السكان المحليين لم يكونوا زبائن حقيقيين في الجمارك؛ لأنهم لم يحتاجوا إلى أيّ شيء تقريباً من البضائع الأوروبية، باستثناء بعض الأقمشة والمنتجات المعدنية، والآن، بعد الإعفاء الذي فرضته الشركة البولينيزية على البضائع، أصبح وضع الملك كاكابو أكثر سوءاً، وأصبح لزاماً عليه أن يجد حلولاً لتطويره. بدأ كاكابو التشاور مع أصدقائه البيض لإيجاد حلول يتخلّص بها من الفقر الذي يحدق به، ويأخذ نصيحتهم في أوّل خطوة له في فرض ضرائب في البلاد، ولكي تتم العملية بسهولة، ستكون على الأغلب من خلال جمع النقود بشكل مباشر. الضريبة كانت عامة أو على شكل ضريبة الرؤوس[1] بمعدل جنيه إسترليني على كلّ رجل، وأربعة شلنات[2] على أيّ امرأة في كلّ الجزر.

كما قلت سابقاً، لا يزال يسود نظام الاقتصاد الطبيعي ومقايضة البضائع في مجتمع فيجي. عدد قليل جداً من السكان لديهم المال. تتكوّن ثروتهم من مختلف المواد الخام والماشية، وليست على شكل نقود يدّخرونها. في الوقت نفسه، إن الضريبة الجديدة تتطلّب امتلاك مبلغ كبير من المال يجب دفعه في وقت محدد.

1 ضريبة الرؤوس أو الضريبة على الرأس هي ضريبة كانت تُفرض ضمن نُظم الضرائب القديمة على كل شخص من البالغين، وبالتساوي على كل المواطنين في المجتمع في بعض الدول.

2 الشلن هو عملة تُستخدم في عدد من الدول التي استعمرها الإنجليز في السابق، والشلن البريطاني يساوي واحداً إلى عشرين من قيمة الجنيه الإسترليني.

لم يعتدِ المواطن المحلي واجباتٍ تفرضها الحكومة عليه، باستثناء السُّخْرة، فإنَ كل الجبايات، مهما كان نوعها، جُمعت عن طريق المجتمع أو القرية التي ينتمي إليها، ومن الحقول المشتركة التي يكسب منها دخله الأساسي. بقي أمامه مخرج وحيد هو أن يبحث عن المال عند المستعمرين البيض؛ أي اللجوء إلى التجار، أو إلى المزارعين. يجب عليه أولاً أن يبيع بضاعته بأيّ ثمن؛ لأن الضرائب يجب أن تُدفع في وقتٍ محدد، أو أن يأخذ نقوداً مقابل سلعة ستتوافر لديه في ما بعد، والتاجر، بطبيعة الحال، سيأخذ منه فائدة باهظة، أو أن يلجأ إلى المزارع، ويبيع عمله، أي يصبح عاملًا. كانت الأجور قليلة وزهيدة جداً، ولعلّ السبب هو كثرة العمال؛ حيث لم تتجاوز شلناً واحداً في السنة، وبنتيجة ذلك، وللحصول على النقود اللازمة لدفع الضريبة عن الشخص نفسه فقط، ناهيك عن عائلته، كان يجب على الفيجي أن يترك بيته وعائلته وأرضه وزراعته، ويذهب بعيداً، إلى جزيرة أخرى، ويرهن نفسه عند مزارع، لمدّة نصف سنة على الأقل، لكي يسدّد جنيهاً إسترلينياً واحداً بدل الضريبة الجديدة، ولدفع الضريبة عن كلّ أفراد عائلته، كان عليه أن يبحث عن وسائل أخرى. تبدو النتيجة التالية واضحة ومفهومة: جمع كاكابو من ألفٍ وخمسئة شخص فقط ستة آلاف جنيه إسترليني. بدأت بعدها زيادة الضرائب المفروضة بالإكراه، وهي لم تكن معروفة، بالإضافة إلى سلسلة من التدابير القسرية. بدأت الحكومة المحلية، التي كانت نزيهة قبل ذلك، بالاصطدام السريع مع المستعمرين البيض، الذين بدؤوا يجوبون البلاد. يُحال الفيجيون إلى القضاء، في حال عدم دفعهم، ويُجبرون، بالإضافة إلى التكاليف القضائية، على المكوث في السجن لفترات لا تقلّ عن نصف سنة. كانت السجون هي مزارع البيض؛ حيث يرغب الأبيض في دفع الضريبة والمصاريف القضائية عن المدانين مقابل عملهم عنده. يحصل البيض، بهذه الطريقة، على وفرة في العمالة الرخيصة، وبالعدد الذي يريدونه. سُمح،

في البداية، بهذه الطريقة، بالعمل القسري لمدة نصف سنة، لكن القضاة المرتشين أتاحوا إمكانية إبقاء العمال لمدة سنة ونصف، وأعادوا تجديد العقوبة. تغيّرت صورة الوضع الاقتصادي لسكان فيجي، بسرعة كبيرة، وخلال بضع سنوات، تحوّلت أكثر المناطق ازدهاراً وثروة إلى مناطق فقيرة جداً. عمل كلّ الرجال، باستثناء المسنّين والمرضى، لمصلحة المستوطنين البيض، لكي يدفعوا الغرامة التي فُرضت عليهم، أو سداد المبلغ الذي أقرّته المحكمة. لم تكن الأعمال الزراعية واجبةً على النساء في فيجي. ومع غياب الرجال، أُهمِلت المزارع أو تُركت تماماً. أضحى نصف سكان فيجي، خلال عدة سنوات، عبيداً عند المستعمرين البيض. لجأ الفيجيون مرةً أخرى إلى الإنجليز للتخفيف من معاناتهم.

برزت عريضة جديدة تمثّلت في جمع تواقيع وجهاء وشيوخ القبائل في فيجي حول قبولِ تبعيّتهم للإنجليز، وسُلّمتْ إلى القنصل الإنجليزي. كانت بريطانيا قد تمكّنت، في ذلك الوقت، بفضل بعثاتها العلمية، بالإضافة إلى دراسة الجزر، من إجراء مسح لها أيضاً. بهذا الشكل قيّمت بدقّة الثروات الطبيعية لتلك البقعة الرائعة من الكرة الأرضية. تكلّلت هذه الاتفاقيات بالنجاح. بعد كلّ هذه الأسباب، في عام 1874، ومع امتعاض شديد أبداه المستعمرون الأمريكيون، أعلنت بريطانيا رسمياً ملكيّتها لجزر فيجي، وضمها إلى مستعمراتها. مات كاكابو، وحصل وَرَثتُه على معاشٍ تقاعدي بسيط. أصبحت الجزر تحت سلطة سير روبينزون، حاكم مقاطعة نيو ساوث ويلز الأسترالية.

لم تتمتع فيجي، في السنة الأولى بعد انضمامها إلى بريطانيا، بالإدارة الذاتية، ووقعت تحت سلطة سير روبينزون، الذي عيّنته الحكومة هناك. كان على الحكومة البريطانية، بعد أن أصبحت الجزر تحت سيطرتها، أن تحلّ المشكلة المعقّدة المتمثّلة في تحقيق الآمال المختلفة التي أثارتها في نفوس

الفيجيين. تطلّع السكان المحليون، بطبيعة الحال، في المقام الأول، إلى إلغاء ضريبة الرؤوس القسرية. المستعمرون البيض (ولاسيما الأمريكيين) لم يثقوا بالحكم البريطاني، بينما تطلّع قسم منهم (من ذوي الأصول البريطانية) إلى أيّ نوع من المنافع، كالاعتراف مثلاً بسيادتهم على السكان المحليين، وتكريس حقوقهم في مصادرة الأراضي... الخ. ظهرت الحكومة البريطانية على أنّها تقوم بمهتمها على أكمل وجه، وأوّل إجراء اتّخذته هو إلغاء ضريبة الرؤوس، التي تسببت في عبودية السكان المحليين وخضوعهم لعدد قليل من المستعمرين، بشكل دائم. هنا كان سير روبينزون يواجه معضلة كبيرة. كان إلغاء ضريبة الرؤوس ضرورياً، فقد لجأ الفيجيون من أجله إلى الحكومة البريطانية، ولكن، في الوقت نفسه، ووفقاً لسياسة بريطانيا في إدارة مستعمراتها، كانت المستعمرات مسؤولة ذاتياً عن إدارة اقتصادها؛ أي البحث عن مصادر الدخل لإدارتها ذاتياً.

أُلغيت ضريبة الرؤوس، ونتيجة لذلك، لم يتجاوز الدخل في فيجي من الجمارك ستة آلاف جنيه، بينما تطلّبت إدارة الجزر مبلغاً لا يقل عن سبعين ألف جنيه في السنة. فرض روبينزون، بعد إلغاء ضريبة الرؤوس، فريضة العمل أو السُّخرة، التي كان على الفيجيين الالتزام بها، لكنّها لم تجلب سوى سبعين ألف جنيه تكاد تكفي روبينزون ومساعديه ثمناً لطعامهم. لم يتم الأمر حتى تعيين الحاكم الجديد غوردون، الذي قرّر أن النقود، التي يجب جمعها من السكان لدعمه هو وموظفيه، يجب ألا تُجمع إلا بعد أن تتوافر بكمية كافية في الجزر، ثمّ يأخذ من السكان سلعهم ويبيعها.

هذا المشهد التراجيدي من حياة الفيجيين أوضح وأفضل دليل على معنى المال وأهميته. هنا تجسّدت كلّ أنواع الاستعباد: النار والتهديد والقتل ومصادرة الأراضي، والطريقة المثلى للاستعباد «المال»، الطريقة التي حلت محل الطرق الأخرى. ما ينبغي دراسة تأثيره في المخطط التاريخي للتطور

الاقتصادي لعدة قرون هو ذاته هنا عندما تطوّرت كلّ أشكال العنف النقدي، وتركّزت خلال عشر سنوات.

تبدأ المسرحية عندما ترسل الحكومة الأمريكية سفناً محمّلة بالمدافع إلى شواطئ الجزر التي تريد أن تستعبد سكانها. مسوّغ هذه التهديدات هو المال، لكنّ بداية المسرحية تبدأ بالمدافع الموجّهة نحو جميع السكان، النساء والأطفال والشيوخ وحتى الرجال الذين لا ذنب لهم في أيّ شيء. هذه الظاهرة تتكرر الآن في أمريكا والصين وفي آسيا الوسطى. هذه بداية المسرحية: المال أو الحياة، وهي ذاتها تتكرّر في تاريخ غزوات كلّ الشعوب؛ في البداية طلبت خمسة وأربعين ألفاً ثم تسعين ألفاً، أو القتل. لكنّ هذه المبالغ غير متوافرة. هي عند الأمريكان، وهنا يبدأ الفصل الثاني من المسرحية: يجب اللجوء إلى القتل البطيء، واستبدال القتلِ الأقلّ دموية، لكن الممتد إلى فترة أطول، بالقتل الدموي الرهيب والمركَز في فترة قصيرة. يبحث الناس حينها، ومعهم ممثلوهم، عن طرق لاستبدال عبودية المال بالقتل. يبدأ المال والأشكال الأخرى لاستعباد الناس من خلاله بالتأثير على الفور، مثل جيش منضبط، وبعد خمس سنوات يصبح كلّ شيء جاهزاً: الناس لم يُسلبوا حقّهم في استخدام أراضيهم فحسب، بل فقدوا ثرواتهم، والأهمّ من كلّ ذلك فقدوا حريتهم؛ أي إنهم أصبحوا عبيداً.

يبدأ الفصل الدرامي الثالث. الوضع سيّئ للغاية، وتصل إشاعات إلى أولئك البؤساء بأنّ المالك قد يتغيّر، وبأنهم من ثَمَّ يصبحون عبيداً للآخرين. (لم يعد التفكير في التحرّر من عبودية المال مجدياً). يبحث السكان عن حاكم جديد يخضعون له، آملين أن يحسّن أوضاعهم. يأتي البريطانيون، ويرون أنّ مُلكية هذه الجزر تمنحهم إمكانيّة إطعام الكثير من الطفيليين الانفصاليين، وتأخذ الحكومة البريطانية هذه الجزر مع سكانها ممتلكاتٍ لها، لكنّها لا تأخذهم على أنّهم عبيد، ولا تأخذ حتى أراضيهم، ولا توزّعها على المتعاونين معها.

لكنّ هذه الطرق غير مستخدمة الآن. المهم هو شيء واحد؛ أن يدفعوا الضرائب، وهذه الضرائب يجب أن تكون كبيرة لسببين: الأول أن يبقى العمال في حالة عبودية، والثاني أن يستعينوا بها لإطعام الكثير من الطفيليين.

كان يتوجب على السكان دفع سبعين ألف جنيه إسترليني. هذا هو الشرط الأساسي الذي من دونه لم توافق بريطانيا على تخليص الفيجيين من العبودية للأمريكيين، وهو ذاته يمثّل الشرط الوحيد لاستعباد الناس. لكن يبدو أن الفيجيين لم يكونوا قادرين، ولا بأيّ شكل كان، في الوضع الحالي، على دفع هذا المبلغ. كان هذا مطلباً كبيراً. غيّر البريطانيون هذا المطلب لبعض الوقت، وبدؤوا بتقديم المشاركات العينية، بهدف الوصول إلى السعر المحدد في الوقت المناسب عند توزيع الجبايات. كان سلوك بريطانيا مختلفاً عن سلوك الشركة السابقة التي تصرّفت مثل الغزاة البرابرة الأوائل، عندما يريدون شيئاً واحداً فحسب، وهو أن يسلبوا كلّ ما يمكنهم سلبه، ويذهبون. أمّا بريطانيا فكانت تتمتّع ببعد النظر، فهي لا تقتل مباشرةً الدجاجة التي تبيض ذهباً، بل ربما تطعمها؛ لأنها تعلم أنّها دجاجة بياضة. في البداية أطلقت العنان لنفسها من أجل منفعتها الخاصة، ومن أجل السيطرة على الشعب إلى الأبد، ونقل الفيجيين إلى حالة من العبودية المالية التي تقع تحت سيطرتها الشعوب الأوروبية المتحضرة، والتي لا مناص لهم منها.

هذه الظاهرة تتكرّر الآن في أمريكا والصين وفي آسيا الوسطى. المال هو وسيلة غير ضارّة للتبادل، ولكن ليس في تلك الحالة التي يتمّ فيها جمعه بالقوة؛ عندما تقف قبالة الشواطئ مدافعُ محمّلة بالقذائف، وموجّهة نحو السكان. عندما تُجمع النقود بالقوة، بالاستعانة بالمدافع، إنّ ما حدث في جزر فيجي سيتكرّر حتماً، وتكرّر ويتكرّر دائماً، وفي كل مكان، عند الملوك وعند كل الحكومات وشعوبها. سيقوم أولئك، الذين يملكون القدرة على إخضاع الآخرين، بهذا من خلال طلباتٍ قسرية لكمية كبيرة من المال، تجبر الناس الخاضعين على أن يكونوا عبيداً للمتسلطين عليهم.

بالإضافة إلى ذلك، سيحدث ما حدث بين البريطانيين والفيجيين، بل ما سيحدث بالضبط هو أن المستعبِدين، عندما يطلبون نقوداً، يتجاوزون غالباً الحد الذي يجب أن يبلغه المبلغ المطلوب للاستعباد، لكي يتحقق الاستعباد بسرعة أكبر.

يصلون إلى الحدّ الذي يريدونه ولا يتجاوزونه، عندما تتوافر لديهم حالة من الشعور الأخلاقي، وعندما يكونون مستقلين مالياً، وليسوا بحاجة إلى المال. لكنّهم يتجاوزونه عندما لا يكون لديهم شعور أخلاقي، حتى لو لم يكونوا بحاجة إلى المال. الحكومات دائماً تتجاوز هذا الحد، أولاً لأن الحكومات لا يوجد لديها مشاعر وعواطف، وثانياً لأن الحكومات نفسها، كما نعلم، هي في حاجة ماسة إلى المال، بسبب الحروب، وبسبب حاجتها إلى المال لتعطيه لأعوانها. كلّ الحكومات في حالة مديونية دائمة، ولكن مهما اختلفت هذه الحكومات، لن تستطيع الخروج عن تلك القاعدة، التي عبّر عنها مسؤول حكومي روسي في القرن الثامن عشر، والتي يقول فيها إنّ دور الفلاح يجب أن يُحجّم دوره باستمرار كي لا يترقى.

كل الحكومات هي في حالة مديونية دائمة، وينمو هذا الدين بشكل عام (بغضّ النظر عن الانخفاض الاستثنائي لديون بريطانيا وأمريكا) كلّ عام بمعدّل رهيب. تنمو كذلك الميزانيات؛ أي ضرورة التعاون مع المستبدّين الآخرين، وإعطائهم مدفوعاتٍ نقدية أو أراضٍ لأعوانها في ممارسة العنف، وهكذا ينمو ريع الأراضي. لا تنمو الأجور وفق قانون الريع؛ لأن غاية الضريبة، التي تتمّ جبايتها بالقوة، هي سلب كلّ ما يفيض عن حاجة الناس، ولذلك يُجبرون على بيع عملهم في سبيل دفع الضرائب، ولأن استخدام عملهم هو الغاية التي فُرضت الضريبة من أجلها أساساً. لا يمكن استخدام هذا العمل إلا عندما تُطلب من عامة الناس أموال تفوق قدرة العمال، دون أن يحرموا أنفسهم من الطعام والشراب. كان يمكن لزيادة الأجور أن تقضي

على العبودية، ولذلك، طالما هناك قوة، فإنّها لا يمكن أن تزداد. هذا تأثير بسيط وواضح لتسلّط بعض الناس على آخرين، يسميه الاقتصاديون القانون الحديدي[1]، ويسمون الأداة، التي يتم من خلالها هذا الإجراء، وسيلة التبادل.

المال وسيلة تبادل غير ضارّة بين الناس، وهو ضروريٌّ لعلاقتهم بين بعضهم. لماذا، إذاً، عندما لا يكون هناك ضرائب مفروضة بالقوة لم يكن ولن يكون للمال أيّ معنى حقيقي، بل كانت وستبقى مقايضة البضائع ببضائع أخرى، كما فعل الفيجيون والقرغيز والأفارقة والفينيقيون، وعموماً كلَ الذين لم يدفعوا ضرائب، أو التقييم العشوائي للسلع، مثل الخراف والجلود والفرو والأصداف. من المعروف أنّ المال ينتشر بين الناس فقط عندما تُفرض جبايات على الجميع بالقوة. لا يأخذ المال قيمة ثابتة إلا عندما يصبح ضرورياً لأيّ شخصٍ لدفع الضرائب المفروضة عليه بالقوة. يأخذ المال قيمة حينها ليس لأنه أكثر سهولة في التبادل التجاري، بل لأنّ الحكومة تطلبه. لو طلبت الحكومة الذهب فسيصبح للذهب قيمة، ولو طلبت عظام الماشية فسيصبح لعظام الماشية قيمة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا كان إطلاق وسيلة التبادل هذه ولا يزال من صلاحيات السلطة؟ لنفترض أنّ الفيجيين أوجدوا وسيلة للتبادل، لتركوهم وشأنهم، ليتبادلوا السلع بالطريقة التي يريدونها؛ أنتم يا من تمتلكون السلطة، وأدوات القوة، اتركوهم ولا تعيقوا عملية التبادل هذه.

أنتم تسكّون هذه العملات، ولا تسمحون لأيّ شخص بسكّها. تطبعون العملات الورقية والمعدنية، وتضعون عليها صور الملوك، مع تواقيع خاصة،

---

1 القانون الحديدي للأجور هو القانون المقترح من الاقتصاد، الذي يؤكد أنّ الأجور الحقيقية تميل دائماً، في المدى البعيد، نحو الحد الأدنى للأجور وأنه من هذا القانون المحافظة على حياة العامل. تمت تسمية النظرية لأول مرة من قبل فرديناند لاسال في منتصف القرن التاسع عشر.

وتهدِّدون كلّ من يقوم بتزويرها، وتوزِّعون هذه النقود على مساعديكم، وتطلبونها على شكل ضرائب تفرضونها، وبالتواقيع والصور التي عليها نفسها، ويتحتّم على العامل أن يبيع كلّ عمله، لكي يصل إلى قيمة هذه العملات الورقية أو المعدنية، ثمّ تريدون إقناعنا بأنّها وسيلة للتبادل التجاري. صدّقونا. لسنا بحاجة إليها.

الناس أحرار، ولا يمكن أن تتسلّط فئة منهم على أخرى، وتبقيها في حالة عبودية لها، لكن المال والقانون الحديدي يفعلان فعلتهما في المجتمع؛ حيث يزداد الريع، وتنخفض الأجور إلى أدنى درجة. ما يعاني منه نصف (وأكثر من نصف) مزارعي روسيا من استعبادهم من أجل الضرائب العينية والمباشرة وضرائب الأراضي، وهم يعملون عند مُلّاك الأراضي وأصحاب المصانع، لا يعني أبداً أنّ جباية الضرائب، الشخصية والعينية وضرائب الأراضي، بالقوة، وتسليمها للحكومة ومعاونيها، ولمُلّاك الأراضي، تعني إجبارَ العامل على أن يصبح عبداً عند أولئك الذين يجمعون الضرائب، بل تعني أن المال، الذي هو وسيلة للتبادل، هو ذاته القانون الحديدي.

عندما لم يمتلك الأقنان حريتهم، استطعتُ أن أجبر فانكا على تأدية أيِّ عملٍ أريده، وعندما كان يرفض، كان يمكنني إرساله إلى الشرطي؛ حيث يشرع في ضربه إلى أن يخضع للأوامر. كذلك، إذا أجبرته على القيام بما يفوق قدرته، من دون أن أعطيه أرضاً، أو أطعمه، فإن الأمر سيصل إلى السلطات، ويجب عليّ حينها أن أخضع للمساءلة. الناس الآن أحرار، لكن باستطاعتي أن أجبر فانكا وسيدوركا وبيتروشكا على القيام بأيّ عمل، وإذا رفض أحدهم، فإنني لن أعطيه النقود التي يحتاج إليها لسداد الضرائب، وسيجلدونه حتى يستجيب لأوامري. بالإضافة إلى ذلك، إنني أستطيع أن أجبر ألمانياً أو فرنسياً أو صينياً أو هندياً على العمل لمصلحتي، وادعاء أنه لم يستمع لأوامري، ومن ثَمَّ لن أعطيه المال الذي يشتري به بيتاً وطعاماً؛ لأنه لا يملك بيتاً ولا طعاماً.

إذا أجبرته على العمل من دون إطعامه، وبما يفوق قدرته، فسأرهقه بالعمل، ولن أسمع أيّ كلمة توبيخ من أيّ أحد، ولكن إذا كنت مطلعاً على بعض كتب الاقتصاد السياسي، فإنّني سأقتنع تماماً بأنّ الناس أحرار، وأنّ المال لا يصنع العبودية.

أدرك الفلاحون، منذ فترة طويلة، أنّ الضرب بالروبل مؤلمٌ أكثر بكثير من الضرب بالعصا، لكنّ منظّري السياسات الاقتصادية هم فقط من لا يدركون هذه الحقيقة.

القول إنّ المال لا ينتج العبودية يشبه ما قيل قبل خمسين سنة بأنّ القنانة لا تنتج العبودية. يقول الاقتصاديون السياسيون إنّ المال هو وسيلة غير ضارة للتبادل، على الرغم من أنّ امتلاك شخص ما للمال يمكّنه من استعباد الآخرين. لماذا إذاً لم يكن ممكناً القول، قبل خمسين سنة، إنّ القنانة ليست وسيلة للعبودية، بل هي وسيلة غير ضارة لتبادل الخدمات، رغم أنها تستعبد الإنسان؟

يؤدي البعض أعمالاً شاقة، بينما ينشغل آخرون بالصحة الجسدية والنفسية للعبيد، وتنظيم عملهم. هكذا يبدو، ويبدو لي أنّ هذه العبارة قالها الكثيرون قبلي.

المال وسيلة عنف

لو أنّ هذا العلم الزائف، الاقتصاد السياسي، لم يدافع عن العنف كما فعلت العلوم القانونية، لما فشل في ملاحظة هذه الظاهرة الغريبة، وهي توزيع الثروات وحرمان بعض الناس من الأرض ورأس المال، واستعباد بعضهم لآخرين، وكلّ هذا يعتمد أساساً على المال. بالمال فحسب يستخدم بعض الناس عمل آخرين؛ أي بمعنى آخر يستعبدونهم.

أكرّر القول؛ إنّ الشخص، الذي يمتلك المال، يستطيع أن يحتكر كلّ الخبز، وأن يجوّع الآخرين، ومن ثَمَّ يستعبدهم من أجل الخبز. هذا ما يجري أمام أعيننا، وعلى نطاق واسع.

يبدو لي ضرورةً البحثُ عن العلاقة بين كلّ هذه الظواهر من الاستعباد بالمال. يؤكد العلم، بثقة تامة، أنّ المال ليس له أيَ علاقة باستعباد الإنسان.

يقول العلم إنّ المال سلعة، مثله مثل أيّ سلعة أخرى، له قيمة معيّنة، ولكن الفرق هو أنه اختير كأفضل سلعة تبادليّة لوضع الأسعار وللادّخار، ووسيلة لتبادل المدفوعات: هناك من يصنع الأحذية، وآخر يحرث الأرض، وثالث يربّي الخراف، ومن أجل تبادلهم بسهولة، يأخذون المال، الذي يعبّر عن قيمة أعمالهم، وبذلك يشتري أحدهم حذاءً مقابل كمية من لحم الخروف أو عشرة أرطال من الدقيق.

مناصرو هذا العلم الزائف يحبون كثيراً تخيّل هذه الحالة، لكنّ هذه الحالة لم تكن موجودة في العالم أبداً. هذا الفكرة التخيلية عن المجتمع هي ذاتها الفكرة التي أحبّ الفلاسفة القدماء أن ينظروا من خلالها إلى المجتمع البدائي الفطري. إنّ هذه الفكرة لم تتحقق أبداً. في كلّ المجتمعات البشرية، حيثما وُجد المال، وُجد معه عنف الأقوياء المسلحين تجاه الضعفاء العُزّل، وعندما وُجدَ العنف، فقد المال، الذي يعبّر عن تقييم السلع، فقد هذا المعنى، وأصبح وسيلة لدفع العنف. امتلاك المال -لا شك- له خصائص مفيدة يعدّدها لنا العلم، لكنّ هذه الخصائص لن تتحقّق فعلياً إلا في ذلك المجتمع، الذي لا تُفرض فيه سلطة شخص على آخر؛ أي في المجتمع المثالي: لكن في ذلك المجتمع، الذي يمثل فيه المال مؤشراً عاماً لقيم السلع، فإنّ المال لم يكن ولا يمكن أن يكون له هذا المعنى في كلّ المجتمعات التي تعاني من سلطة الحكومات.

في كلّ المجتمعات التي نعرفها؛ حيث يوجد المال، يأخذ دور التبادل فقط، لأنه يمثل وسيلة للعنف. إنّ دوره الأساسي لا يكمن في كونه وسيلة للتبادل، بل في كونه وسيلة للعنف. المال لا يمكنه أن يكون وسيلة مناسبة للتبادل في حال وجود العنف؛ لأنه لا يمكنه أن يكون معياراً لتقييم السلع؛ فمتى استطاع شخصٌ ما في المجتمع أن يستولي على نتاج عمل شخص آخر، يُنتهَك معيار تقييم السلع. إذا جاؤوا بالجياد والأبقار إلى السوق، بعد أن سلبوها بالقوة من أصحابها السابقين الذين ربوها وأطعموها، فإنّ قيمة كلّ من الأبقار والجياد في السوق لن تتوافق مع الجهد الذي بذله مربّو هذه الحيوانات، وستتغيّر قيمة كلّ المواد الأخرى بالشكل ذاته، ولن يحدّد المال قيمتها الحقيقية. بالإضافة إلى ذلك، إذا كان بالإمكان، باستخدام القوة، امتلاك بقرة وحصان وبيت، يمكن، بالقوة أيضاً، امتلاك المال نفسه، ومن خلال المال يمكن امتلاك أيّ شيء. إذا كان المال نفسه يُمتلك بالقوة،

ويُصرف في شراء المواد، فإنّه يفقد تماماً كلّ الخصائص التي تجعله وسيلة التبادل. المتسلّط الذي يسلب النقود، ويعطيها مقابل العمل، لا يبادل بالمال، بل يأخذ من المال ما يريده فحسب. لنفترض وجود هذا المجتمع الخيالي، الذي لا تفرض فيه الحكومةُ سلطتها على الناس، إنّ المال أو الذهب أو الفضة ستصبح معايير لتقييم السلع، ووسائل للتبادل، ولكن ما إن يظهر العنف في هذا المجتمع حتى تفقد قيمتها بوصفها وسائل للتبادل. يظهر المتسلط في هذا المجتمع في هيئة الغازي. لنفترض أن هذا المتسلط أخذ الأبقار والأحصنة وبيوت السكان، لكنّه ليس بحاجة إلى هذه الأشياء، ولذلك إنه، بطبيعة الحال، سيلجأ إلى سلب الناس ما يمثّل قيمة كبيرة لهم، ويمكن من خلاله مقايضة كلّ الأشياء؛ أي سلبهم المال. يفقد حينها المال، في هذا المجتمع، أهميّته بوصفه معياراً للتقييم؛ لأن معيار تقييم كل المواد سيعتمد، بالدرجة الأولى، على درجة تعسف المتسلط. تلك المادة المهمة للمعتدي، التي يدفع من أجلها نقوداً أكثر، ستأخذ قيمة كبيرة، والعكس صحيح. وهكذا تكتسب أهمية المال، في المجتمع الذي يتعرّض للعنف، صفة عامة على أنّه وسيلة عنف يستخدمها المتسلط، ويبقى وسيلةً للتبادل بالنسبة إلى المضطهَدين فقط بالمقدار والكيفية التي تكون في مصلحة المتسلط.

لنتخيّل هذا في نطاقٍ ضيّق. الأقنان يقدّمون لصاحب الأرض الأقمشة والدجاج والخراف والعمل اليومي. صاحب الأرض يستبدل بالرسوم الطبيعية المال، ويضع السعر لأنواع مختلفة من الرسوم. من لا يملك قماشاً أو قمحاً أو ماشية أو لا يستطيع العمل، يمكنه أن يعطي مبلغاً محدداً من المال. يبدو واضحاً جداً أنّ قيمة المواد في مجتمع المزارعين، عند هذا المالك، تعتمد دائماً على تعسّف المالك. المالك يصرف المواد المجمّعة، بعضها ذات أهمية كبيرة له، وبعضها أقل أهمية، وبناءً على هذا، يحدّد أسعاراً مرتفعة أو منخفضة للمواد. يبدو جلياً أن تعسّف المالك وحاجته هما اللذان يحددان

أسعار المواد بين الدافعين. إذا احتاج المالك إلى الحبوب فإنه سيحدّد سعراً باهظاً لكي يحصل على كمية محددة منها، ويحدّد سعراً منخفضاً كي لا يحضروا له الأقمشة والماشية، ولا يعرضوا عملهم مقابل أجرٍ معين، ولذلك، إنّ أولئك الذين لا يملكون الحبوب سيبيعون الآخرين عملَهم وما يملكونه من قماش وماشية للحصول على القمح وإعطائه للمالك. إذا أراد المالك أن يحوّل كلّ الرسوم إلى نقود، فإنّ أسعار المواد مرةً أخرى لن تعتمد على قيمة العمل، بل ستعتمد أولاً على كمية المال الذي يحتاج إليه المالك، وثانياً على المواد التي هو بحاجة ماسة إليها من منتجات المزارعين، وتعتمد على التصنيف الذي يحدّد أيّ المواد هي التي يدفع عليها نقوداً أكثر، وأيّها أقل.

لن تؤثر الغرامة المالية، التي يفرضها المالك على قيمة المواد بين الفلاحين، إلا إذا تحقّق شرطان: الأول أن يعيش الفلاحون التابعون لهذا المالك في مكان منفصل عن بقية الناس، وألّا تربطهم أيّ علاقات بالآخرين، سوى العلاقات بينهم والعلاقات مع المالك، والثاني عندما يصرف المالك المال ليس على شراء المواد من قريته، وإنما من خارجها.

فقط في حالة تحقّق هذين الشرطين، تبقى قيمة المواد ثابتة نسبياً، على الرّغم من تغييرها ظاهرياً، ويصبح المال معياراً للتقييم والتبادل، لكن أولاً إذا كان للفلاحين علاقات اقتصادية مع سكان القرى المجاورة فإنّ قيمة منتجاتهم ستكون أعلى أو أقلّ من منتجات جيرانهم تبعاً لكميّة النقود التي يطلبها المالك، أهي كبيرة أم صغيرة (إذا كانت النقود المطلوبة من جيرانهم أقلّ مما هي عندهم، فإنّ منتجاتهم ستباع بأسعار أقلّ من أسعار منتجات جيرانهم، والعكس صحيح). ثانياً: لا تؤثر الغرامة المالية، التي يفرضها المالك على الفلاحين في قيمة المنتجات إلا إذا لم يصرف المالك الأموال المجمّعة لشراء منتجات الفلاحين الذين يتبعونه.

إذا صرف المالك النقود على شراء منتجات مزارعيه، فمن الواضح أنّ نسبة الأسعار لمختلف المنتجات بين المزارعين أنفسهم ستتغيّر باستمرار

وفقاً لمعيار شراء المالك لهذا المنتج أو ذاك. لنفترض أنّ مالكاً حدّد قيمة كبيرة للضريبة، بينما طلب جاره ضريبة منخفضة؛ فمن الواضح أنّ المواد في منطقة الأول ستكون أرخص منها في منطقة الثاني، وأنّ الأسعار في المنطقتين الأولى والثانية ستعتمد فقط على ارتفاع أو انخفاض قيمة الضريبة. هذه أحد مظاهر تأثير العنف في الأسعار. تأثير آخر نابعٌ من الأول سيكون في القيم النسبية لكلّ المواد. لنفترض أن مالكاً ما يحبّ الجياد، ويدفع نقوداً كثيرة من أجلها، وآخر يحبّ المناشف، ويدفع من أجلها أسعاراً كبيرة. من الواضح أنّ أسعار الجياد والمناشف ستكون مرتفعةً في كلتا المنطقتين، وسعر هاتين السلعتين لا يتناسب مع سعر الأبقار والقمح. غداً سيموت من يحبّ المناشف، وورثته يحبّون الدجاج. من الواضح أنّ أسعار المناشف ستنخفض، بينما سترتفع أسعار الدجاج.

يخضع المال بشكل مباشر، في المجتمع الذي يشهد اعتداء شخص ما على آخر، إلى تعسّف المتسلّط، ويتحوّل من أداة معيارية لتقييم المنتجات، ليصبح الأداة الأنسب لاستخدام عمل الآخرين. المال بالنسبة إلى المعتدي ليس ضرورياً للتبادل، فهو يأخذ حاجته منه دون أن يبادل به، وليس أداة لوضع الأسعار، لأنه هو من يحدّدها أساساً. إنما المال بالنسبة إليه أداة تسهّل عليه ممارسة العنف؛ لأن المال يُدَّخَر، وهو الوسيلة الأسهل لاستعباد أكبر قدر ممكن من الناس.

إن أخذ كلَ الماشية من الجياد والأبقار والأغنام بصورة دائمة ليس مناسباً؛ لأنها بحاجة إلى الطعام، وكذلك في ما يتعلق بالحبوب؛ لأنها قد تفسد، والعمل كذلك أو السُّخرة، قد يحتاجان أحياناً إلى ألف عامل، وقد لا يحتاجان إلى أي عامل. المال، الذي يُجمع من أولئك الذين لا يملكونه، يتيح إمكانية الاستغناء عن كلّ ما لا يحتاج إليه المتسلط، ويجعله يمتلك ما يحتاج إليه فحسب.

بالإضافة إلى ذلك، إن المستعبِد بحاجة إلى المال كي لا يقتصر حقه في استخدام عمل الآخرين على أشخاص بعينهم، بل يمتد ليشمل كل من هم بحاجة إلى المال. استطاع كل مالك، عندما لم يكن المال موجوداً، أن يستخدم عمل أقنانه فحسب، وعندما اتفق مالكان على أخذ المال من أقنانهما، وهو ما لم يمتلكوه، أصبح المالكان يستخدمان عمل الأقنان بكلّ تلك القوى المتوافرة لديهما، وبلا اختلاف في منطقتيهما، ومن ثم وجد المستعبِد أنَّ الأسلوب الأمثل لإعلان حاجته إلى عمل الآخرين يكون عبر المال، والمال هو المهم له فحسب. لا يمثل المال أداة للتبادل بالنسبة إلى المضطهَد الذي يُسرَق عمله؛ لأنه يبادل البضائع من دون المال، كما فعلت كلّ الشعوب التي لم تكن تحكمها سلطات، وليس لتحديد معايير التقييم؛ لأنها تتحدد أمامه، وليس وسيلة للادخار؛ لأن من يُؤخذ منه نتاج عمله لا يوجد لديه ما يدّخره، وليس وسيلة للمدفوعات؛ لأنّ عليه دائماً أن يدفع أكثر مما يأخذ. وعندما يأخذ، لا يأخذ قيمة ما ينتجه بالمال، بل يأخذ بضاعة مقابل أجرته من متجر سيّده، أو يبادل عمله بحاجاته الأساسية الأولى من متاجر أخرى. يطلبون منه المال، ثمّ يهددونه إذا لم يدفع، إنّهم لن يعطوه بيتاً ولا خبزاً، وسيأخذون منه بقرته وبيته مقابل المال الواجب عليه دفعه، أو يضعونه في السجن. لا يمكنه التخلّص من كلّ هذا إلا إذا باع ما ينتجه، أو باع عمله وعمل أولاده. سيبيع كلّ بضاعته وعمله أيضاً بتلك الأسعار التي لا يحدّدها تبادل البضائع، بل تحددها السلطة التي تطلب منه المال. تتكرّر تأثيرات المدفوعات أو الضرائب، دائماً وفي كل مكان، في ظلّ هذه الظروف، عند المُلّاك في مناطقهم الصغيرة، وعلى نطاق واسع عند الحكومات، في ظلّ الظروف، التي تكون فيها أسباب تغير قيمة البضائع واضحة لكل من يرى ما يحدث خلف الكواليس، ويعرف لماذا ترتفع وتنخفض أرجل الدمى في المسرح. والقول، في ظلّ هذه الظروف، إنّ المال وسيلةٌ للتبادل ومعيار للتقييم هو قولٌ مستهجن على الأقل.

وسائل الاستعباد

إنّ أيّ عملية استعباد تقوم على شيء واحد فحسب هو أن يَحرم شخصٌ ما شخصاً آخر من حياته، ومع التهديد المستمر له، إنّه لا يستطيع الخروج من هذا الوضع البائس، ولا يمكنه أن يؤدي دوره في الحياة.

يمكن القول، بكلّ ثقة، إن سبب الاستعباد؛ أي الوقوف في وجه إرادة شخص ما بفضل آخر، وإجباره على ممارسة سلوكيات لا يرغب فيها، هو العنف فحسب، وهذا الاستعباد يقوم في أساسه على التهديد بالحرمان من الحياة.

إذا باع الإنسان كلّ عمله لآخر، ولم يتناول طعاماً كافياً، وشغّل أطفاله في أعمال شاقة، وخرج من أرضه، وكرّس حياته كلّها لعملٍ لا يحبّه وليس بحاجة إليه، كما يحدث أمام أعيننا، في عالمنا (الذي نسميه عالماً متحضراً، لأنّنا نعيش فيه)؛ يمكننا بالقول إنّه يفعل كلّ هذا نتيجةً لشيء واحد فحسب هو أن حياته مهدّدة بالخطر إذا لم يقم بكلّ هذا. لذلك، أغلبية الناس في عالمنا المتحضر، الذين يعملون في ظروف في غاية الصعوبة، ويؤدّون أعمالاً لا يحبّونها، وليسوا بحاجة إليها؛ هم واقعون في حالة من الاستعباد، مبنيّة على التهديد بفقدان الحياة.

ما هو هذا الاستعباد؟ وكيف يتم التهديد بالحرمان من الحياة؟

كانت وسيلة الاستعباد والتهديد بالحرمان من الحياة في العهد القديم واضحة؛ حيث استُخدمت الوسيلة البدائية لاستعباد الناس، المتمثلة في التهديد المباشر بالقتل بالسيف. المسلّح يقول للأعزل: أستطيع أن أقتلك، كما رأيتَ الآن كيف قتلتُ أخاك، لكنّني لا أريد قتلك لسببين؛ الأول أنني أشفق عليك، ولا أحبّ أن أقتلك، والثاني أنّ من الأفضل لي ولك أن تعمل لصالحي، من أن تصبح مقتولاً، لذا، اعمَل كلّ ما أريده منك، وإذا رفضت، فسوف أقتلك. حينها يخضع الأعزل للمسلح، ويفعل كلّ ما أمره به. الأعزل أدّى عمله، والمسلّح هدّده. هذا هو الرق الذي ظهر في البداية عند كلّ الشعوب، ونراه الآن عند كلّ الشعوب البدائية. هذه هي الوسيلة الأولى لاستعباد الشعوب، لكنّ صورتها تغيّرت مع تعقّد الحياة. أصبحت هذه الوسيلة من الاستعباد، بعد تعقّد الحياة، غير ملائمة للمستعبِد، فلكي يستخدم عمل الضعفاء، يجب عليه إطعامهم وكسوتهم؛ أي الإنفاق عليهم، لكي يصبحوا قادرين على العمل، وهذا ما يقلّل من عدد المستعبَدين؛ بالإضافة إلى ذلك، إنّ الوسيلة الأولية تجبر المستعبِد على التهديد المستمر بالقتل أمام المستعبَدين. ومن هنا ابتُكرت الوسيلة الثانية للاستعباد.

قبل خمسة آلاف سنة، كما هو مذكور في الكتاب المقدس، اكتشف يوسف الوسيم[1]، أكثر الأساليب وأفضلها لاستعباد الناس. هذا الأسلوب هو ذاته المستخدم لترويض الخيول والحيوانات المتمرّدة في وقتنا الراهن. هذه الوسيلة هي الجوع.

1 يشير الكاتب إلى يوسف كما ذُكِرت قصته في سفر التكوين؛ حيث يبيع الناسَ الغذاء مقابل الذهبِ والفضة، وبعد نفاد الذهب والفضة. يأخذ منهم الماشية، ثمّ يأخذ أرضهم ويجعلها ملكا لفرعون، ثمّ يصبحون هم عبيداً لفرعون، وهذه القصة مغايرة تماماً لقصة النبي يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، التي توضّح لنا أنّه وقاهم من مجاعة حتمية حين حثّهم على الزراعة الدؤوبة، وتقنين الاستهلاك؛ لأن هناك سني قحط قادمة بعد سنوات النعيم.

هكذا يتمّ وصف هذه الوسيلة في الكتاب المقدس:

في سفر التكوين، الإصحاح 41:

48: فجمع كلّ طعام السبع سنين، التي كانت في أرض مصر، وجعل طعاماً في المدن. طعام حقل المدينة الذي حواليها جعله فيها.

49: وخزن يوسف قمحاً كرمل البحر، كثيراً جدّاً حتى ترك العدد؛ إذ لم يكن له عدد.

53: ثمّ كملت سبع سني الشبع الذي كان في أرض مصر.

54: وابتدأت سبع سني الجوع تأتي كما قال يوسف، فكان جوع في جميع البلدان. أمّا جميع أرض مصر فكان فيها خبز.

55: ولمّا جاعت جميع أرض مصر وصرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز، قال فرعون لكلّ المصريين: «اذهبوا إلى يوسف، والذي يقول لكم افعلوا».

56: وكان الجوع على كلّ وجه الأرض، وفتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين. واشتدّ الجوع في أرض مصر.

57: وجاءت كلّ الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشتري قمحاً؛ لأن الجوع كان شديداً في كلّ الأرض.

استخدم يوسف الوسيلة الأولى في استعباد الناس، جمع الحبوب في سنوات الخير، وانتظر اسنوات العجاف، التي هي عادة تأتي بعد سنوات الخير؛ حيث يعرف الجميع هذه الحقيقة من دون رؤيا فرعون، وهذه الوسيلة؛ أي الجوع، هي الأقوى والأفضل لفرعون، الذي استعبد المصريين، وكل الشعوب القريبة من مصر، وعندما جاع الناس، بدأ يخطّط لاستعبادهم إلى الأبد، من خلال الجوع.

في سفر التكوين، الإصحاح 47 توصف الحادثة كما يأتي:

13: ولم يكن خبز في كلّ الأرض؛ لأنّ الجوع كان شديداً جداً. فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع.

14: فجمع يوسف كلّ الفضة الموجودة في أرض مصر وفي أرض كنعان بالقمح الذي اشتروا، وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون.

15: فلمّا فرغت الفضّة من أرض مصر ومن أرض كنعان أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين: «أعطنا خبزاً، فلماذا نموت قدامك؟ لأن ليس فضة أيضاً.

16: فقال يوسف: «هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم، إن لم يكن فضة أيضاً».

17: فجاؤوا بمواشيهم إلى يوسف، فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير. فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم.

18: ولمّا تمّت تلك السنة أتوا إليه في السنة الثانية وقالوا له: «لا نخفي عن سيدي أنّه إذا قد فرغت الفضة، ومواشي البهائم عند سيدي، لم يبقَ قدّام سيدي إلا أجسادنا وأرضنا.

19: لماذا نموت أمام عينيك نحن وأرضنا جميعاً؟ اشترِنا وأرضنا بالخبز، فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون، وأعط بذاراً لنحيا ولا نموت، ولا تصير أرضنا قفراً.

20: فاشترى يوسف كلّ أرض مصر لفرعون؛ إذ باع المصريون كلّ واحدٍ حقله؛ لأن الجوع اشتدّ عليهم. فصارت الأرض لفرعون.

21: أمّا الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حدّ مصر إلى أقصاه.

22: إلا أنّ أرض الكهنة لم يشترها؛ إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون، فأكلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعون، لذلك لم يبيعوا أراضيهم.

23: فقال يوسف للشعب: «إنّي قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون؟ هُوَ ذا لكم بذار فتزرعون الأرض.

24: ويكون عند الغلة أنّكم تعطون خُمساً لفرعون، والأربعة أجزاء تكون لكم بذاراً للحقل، وطعاماً لكم، ولمن في بيوتكم، وطعاماً لأولادكم.

25: فقالوا: «أحييتنا. ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيداً لفرعون».

26: فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم: لفرعون الخمس. إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون.

كان فرعون يلجأ قبل ذلك إلى استخدام القوة، لكي يجبر الناس على العمل لمصلحته؛ الآن، عندما توافرت لديه الحبوب والأرض، ما عليه فعله هو حمايتها بالقوة، ويمكنه، من خلال الجوع، أن يجبرهم على العمل لمصلحته.

أصبحت الأرض كلّها ملكاً لفرعون، ومخزون الحبوب (كلّ ما استطاع الحصول عليه منها) دائماً عنده، ولذا بدلاً من أن يسوق كلّ واحد منهم على حدة إلى العمل بقوة السيف، أصبح واجبه الوحيد هو أن يحمي المخزونات بالقوة، وأصبح الناس عبيداً ليس بفضل السيف، بل بسبب الجوع.

يمكن للجميع، في سنوات القحط، ووفقاً لإرادة فرعون، أن يموتوا من الجوع؛ أما في سنوات الخير، فسيموت من الجوع كلّ أولئك الذين ليس لديهم مؤونة من الحبوب بسبب محنٍ مختلفة حلّت بهم.

وهكذا تترسخ الوسيلة الثانية في استعباد الناس ليس بالسيف بشكل مباشر؛ أي لا يحثّ فيها القويُّ الضعيفَ على العمل بقوة السيف، بل بقوة أخرى، عندما يأخذ منهم مؤونتهم، ويحميها بالسيف، ويجبر الضعيف على العمل من أجل أن يأكل.

يقول يوسف للجوعى: أستطيع أن أجوّعكم؛ لأن الخبز عندي، لكنني سأكون رحيماً بكم لسبب واحد، أن الخبز الذي سأعطيكم إياه هو من أجل أن تفعلوا كلّ ما آمركم به.

لا يحتاج القوي في الوسيلة الأولى للاستعباد إلا إلى عسكريين يتجولون باستمرار بين الناس، ويحققون ما يطلبه القوي من خلال التهديد بالموت. لا ينشغل المستبد في الوسيلة الأولى إلا بالعسكريين. أما في الوسيلة الثانية، فبالإضافة إلى العسكريين الذين يحمون الأرض والمخزونات من خطر الجوعى، إن المستبد بحاجة إلى نوع آخر من المساعدين مثل يوسف، وهم منظمو وموزعو الحبوب في المستويات العليا والدنيا للسلطة. يتحتم على المستعبِد هنا أن يتعاون معه، ويعطي يوسف اللباس الفاخر وخاتماً من ذهب، وخدماً، وخبزاً وفضة لإخوته وأقربائه. بالإضافة إلى ذلك، وفي جوهر العملية نفسها، المشاركة في العنف، في الوسيلة الثانية، لا تقتصر على الموزعين وأقربائهم فحسب، بل تضمّ كلّ من لديه مؤونة من الحبوب. كما في الوسيلة الأولى، القائمة على القوة المفرطة، أصبح كلّ من يملك سلاحاً مشاركاً في العنف، كذلك في الوسيلة الثانية، القائمة على الجوع، يشارك في العنف ويتسلط كلّ من لديه مؤونة على كلّ من يفتقدها.

ما هي إيجابيات هذه الوسيلة، بالنسبة إلى المستعبِد، مقارنة بالوسيلة الأولى؟

أولاً هو لم يعد مضطراً إلى استخدام القوة لإجبار الناس على إنجاز ما يريده منهم، بل يأتي إليه العمال بأنفسهم، ويبيعون أنفسهم له؛ والإيجابية الثانية هي أن عدداً قليلاً من الناس من ينجحون في تجنّب عنفه. أما السلبية التي تؤخذ على هذه الوسيلة، بالنسبة إلى المتستعبِد أيضاً، فهي أنه يحتاج لتطبيقها إلى مشاركة عدد كبير من الناس.

أما إيجابيات هذه الوسيلة، بالنسبة إلى المستعبَدين، فهي أنهم غير معرضين للعنف المفرط، ويُترَكون وشأنهم، ويمكنهم دائماً أن يأملوا، وقد تتحقق آمالهم حقاً، إذا ساعدتهم الظروف، في أن ينتقلوا من كونهم مستعبَدين ليصبحوا مستعبِدين. أما ما يأخذونه على هذه الوسيلة فهو أنهم لن يستطيعوا التملص من درجة محددة من العنف. تُستخدم هذه الوسيلة الجديدة عادة مع القديمة، ويقلل القوي من استخدامه لإحداهما، ويتوسع في استخدام الأخرى بحسب الضرورة.

إن وسيلة الاستعباد هذه لا تلبي كل طموحات القوي لسلب أكبر كمية ممكنة من أكبر عدد ممكن من العمل، واستعباد أكبر عدد ممكن من الناس، ولا يتلاءم مع التعقيدات الكبيرة للحياة، ولذلك تُبتكر وسيلة جديدة للاستعباد. الوسيلة الجديدة الثالثة هي وسيلة الضرائب. تقوم هذه الوسيلة، كما هو الحال في الوسيلة الثانية، على الجوع، ولكن بالإضافة إلى أداة استعباد الناس، بحرمانهم من الحبوب، فإنهم يُحرمون أيضاً من الحاجات الأساسية الأخرى. يحدد القوي مبلغاً معيناً من المال ضريبةً يأخذها من العبيد، ولكي يدفعوها، عليهم أن يبيعوا ليس مؤونتهم من الحبوب بكمية أكبر بكثير من الخُمْس التي حددها يوسف، بل حتى المواد الأساسية مثل الزيت والجلود والصوف والألبسة والوقود، وحتى المساكن، ولذلك هو يبقيهم في حالة تبعية دائمة له، ليس من خلال الجوع، بل من خلال حرمانهم من كل هذه الأشياء.

تأتي بعد ذلك الوسيلة الثالثة للاستعباد، الوسيلة المالية، التي يقول فيها القوي للضعفاء: أستطيع أن أفعل ما أريده مع كلّ واحد منكم على حدة: أستطيع أن أقتلكم جميعاً بالسلاح، أو أن أقتلكم بأن آخذ منكم أرضكم التي تقتاتون منها، وأفرض عليكم مبالغ مالية تضطرون، من أجل تسديدها، إلى بيع كل المؤونة التي تأكلون منها، وأبيعها لآخرين غيركم، وأستطيع أن أجوّعكم في أيّ لحظة، وأسلب منكم كلّ ما لديكم: الماشية والمسكن واللباس، ولكن

لا حاجة لي بكل هذه الأشياء، ولا أقبلها، ولذا أنا أعرض عليكم أن تتصرفوا بعملكم ومنتجاتكم بالطريقة التي تريدونها؛ فقط أعطوني المال الذي أطلبه منكم، والذي سأوزعه بحسب «الرؤوس»، أو الأرض التي تقيمون عليها، أو وفق كمية الطعام والشراب، أو اللباس، أو المساكن. أعطوني المبلغ الذي أطلبه منكم، ووزعوا سلعكم بينكم كما تريدون، لكنني أعلمكم بأنّني لن أحمي وأرعى الأرامل ولا الأيتام ولا المرضى ولا المسنين ولا المحترقين، بل سأكون مسؤولاً عن طريقة جمع هذا المبلغ فحسب. سأكون مسؤولاً فقط عن الذي يعطيني المال بالطريقة الصحيحة التي أطلبها، وبالكمية التي أريدها، ولا تهمني الكيفية التي أحصل بها عليه.

يوزِّع هذه الأوراق المالية إثباتاً؛ لأنّ مطالبه قد تحقّقت.

تتلخّص الوسيلة الثانية للاستعباد في أنّ فرعون يأخذ خُمْس المحصول، ويبقي مخزون الحبوب عنده، وبالإضافة إلى العبودية المفروضة بالسيف، تُتاح أمامه هو ومساعديه إمكانيّة التسلّط على العمال في حالة الجوع، وعلى بعضهم في حالات المحن التي يتعرّضون لها. يطلب فرعون من العمال، في الوسيلة الثالثة، مالاً أكبر من قيمة الحبوب التي أخذها منهم، ويمتلك هو ومساعدوه أداة للتسلّط على العمال ليس في أوقات المجاعات والمحن الشديدة فحسب، بل بشكل دائم. تبقى لدى الناس، في الوسيلة الثانية، مؤونةُ من الحبوب تساعدهم في عدم انتقالهم إلى العبودية، ومواجهة سني القحط والجدب والمحن العرضية. أمّا في الوسيلة الثالثة، عندما تُطلب كمية كبيرة من المال، فيؤخذ مقابلها كلّ مخزون الحبوب، وأيّ مخزونات أخرى من المواد الاستهلاكية الأولية. وعندما يتعرّض العامل لأيّ محنة صغيرة، وهو لا يملك قمحاً في بيته، ولا أيّ نوعٍ آخر من المؤونة التي يمكن أن يقايضها به، يصبح عبداً لمن يملك المال.

يحتاج القوي في الوسيلة الأولى فقط إلى مقاتلين يشاركونه ممارسة العنف واستعباد الناس، بينما يحتاج في الوسيلة الثانية، بالإضافة إلى حماة الأرض ومخزون الحبوب، إلى جباةٍ وموظفين لتوزيع هذه الحبوب. أما في الوسيلة الثالثة فلا يمكنه امتلاك كلّ الأرض بنفسه، بل يجب عليه أن يجلب متعاونين معه، بالإضافة إلى الحربيين المدافعين عن الأرض والثروات، مثل مُلّاك الأراضي، وجباة الضرائب وموزّعيها بحسب «الرؤوس» أو بحسب المواد الاستهلاكية، والمراقبين، وموظفي الجمارك، وموزعي المال، والعاملين عليه.

إنّ تنظيم الوسيلة الثالثة أصعب بكثير من الثانية؛ يمكن إعطاء الحبوب، في الوسيلة الثانية، كضرائب للسلطة، كما حدث في الماضي ويحدث الآن في تركيا. يجب تعقيد إدارة الشعب، ومراقبة سلوكياتهم وأفعالهم؛ لأنهم سيحاولون، بعد أن خنقتهم الضرائب، التهرّب منها. لهذا السبب يحتاج القوي في الوسيلة الثالثة إلى مشاركة عددٍ كبير من الناس، بالمقارنة بالوسيلة الثانية. بالإضافة إلى ذلك، وفي جوهر الوسيلة الثالثة، كلّ الذين يملكون المال، سواء من هذه الجهة أم تلك، يستطيعون المشاركة في استعباد الآخرين.

تتميّز هذه الوسيلة، بالنسبة إلى المستعبِد، من الوسيلتين الأولى والثانية، بما يأتي:

أولاً: يمكن من خلال هذه الوسيلة الاستفادة الكبيرة من جهود العمال بطريقة أسهل؛ لأن الضريبة المالية، مثل البرغي، الذي يمكن تثبيته حتى أعمق نقطة، وقد تموت الدجاجة، لكنّها لا تزال تبيض الذهب، فلا حاجة إذاً إلى انتظار سنة الجوع، كما حدث في زمن يوسف، بل ستكون كلّ سنة سنةَ جوع.

ثانياً: يصل العنف في هذه الوسيلة إلى كلّ الذين تهرّبوا سابقاً منه؛ لأنهم لا يملكون أراضٍ، وإلى الذين عرضوا جزءاً من عملهم مقابل الخبز. أمّا الآن، فكلّ هؤلاء مُلزَمون، بالإضافة إلى التخلّي عن جزءٍ من عملهم مقابل الخبز، بأن يتخلوا عن جزء آخر مقابل دفع الضريبة إلى القوي.

أمّا عيبها بالنسبة إلى المستعبِد، فهو مشاركة عددٍ كبير من الناس معه، ولا يقتصر الأمر على مساعديه المباشرين، بل بالدرجة الأولى يشاركه كلّ مُلّاك الأراضي، الذين يظهرون عادةً خلال تطبيق هذه الوسيلة، وثانياً كلّ الأشخاص (وقد يكونون من شعوب أخرى) الذين يملكون الأوراق المالية التي تُطلب من العبيد.

أمّا ميزاتها بالنسبة إلى المستعبَد، بالمقارنة مع الوسيلة الأولى، فهي أنّه يتمتّع باستقلالية شخصية كبيرة عن المستعبِد؛ فهو يستطيع العيش في المكان الذي يحبّ، ويفعل ما يريده، ويزرع ما يشاء من الحبوب، وغير مطلوب منه تقديم تقرير عن عمله. وعندما يمتلك المال، يَعدّ نفسه حراً تماماً، ويأمل دائماً أن يصل، ولو لفترة مؤقتة، عندما يتوافر لديه فائض من المال أو أراضٍ واسعة، ليس إلى الاستقلالية فحسب، بل يصبح مستبداً هو الآخر. أمّا عيبها، فهو أنّ وضع المستعبَدين، في العموم، يصبح أصعب في هذه الوسيلة، ويفقدون جزءاً كبيراً من منتجاتهم؛ لأنّ عدد الأشخاص، الذين يستخدمون عمل الآخرين، يصبح أكبر، ولذلك إنّ صعوبة إعالتهم تهبط إلى أقلّ عدد ممكن من الأشخاص.

الوسيلة الثالثة للاستعباد هي أيضاً قديمة جداً، ويتمّ استخدامها بالتزامن مع الوسيلتين السابقتين، دون إلغائهما تماماً.

تُستخدم كلّ هذه الوسائل الثلاث لاستعباد الناس باستمرار، وهي موجودة في كلّ زمان ومكان. يمكن تشبيه هذه الوسائل الثلاث بثلاثة براغٍ تضغط على لوح مثبّت على ظهور العمال. البرغي الأوسط، الأساسي والرئيس، الذي

لا يمكن للبرغيين الآخرين الثبات من دونه، والذي يُفكّ أولاً، هو برغي العبودية الشخصية، واستعباد بعض الأشخاص لآخرين باستخدام التهديد بالقتل بالسيف؛ البرغي الثاني الذي يتمّ تثبيته بعد الأوسط، هو استعباد الناس بسلب أرضهم ومؤونتهم الغذائية، وهذا السلب يتمّ بالاستعانة بالتهديد الشخصي بالقتل. أمّا البرغي الثالث، فهو استعباد الناس باستخدام أداة الأوراق النقدية التي لا يملكونها، والمدعومة أيضاً بالتهديد بالقتل. البراغي الثلاثة مثبتة، وعندما يُشدّ أحدها بإحكام، فإنّ البرغيين الباقيين يضعفان. البراغي الثلاثة ضرورية للوصول إلى الاستعباد التام للناس، وهذه الوسائل الثلاثة للاستعباد كلّها مستخدمة في مجتمعنا؛ أي أنّ البراغي الثلاثة مثبتة جيداً.

ستبقى الوسيلة الأولى للاستعباد، القائمة على العنف والتهديد بالقتل بالسيف، ولن تختفي طالما هناك أشخاص يستعبدون أشخاصاً آخرين؛ لأنّ أيّ نوع استعبادٍ آخر يقوم أساساً على هذا النوع من الاستعباد. نحن كلّنا مقتنعون، بسذاجة مفرطة، بأنّ العبودية الشخصيّة تقلّصت في عالمنا المتحضّر، وأنّ آثارها الأخيرة اختفت في أمريكا وروسيا، والآن لا وجود للعبودية إلا في المجتمعات البدائية. أمّا عندنا فقد اختفت تماماً. نحن ننسى مسألة بسيطة، وهي أنّ أيّ دولة لا تقوم من دون أن يكون لها جيش عداده مئات الآلاف، وإذا انهار هذا الجيش، فإنّ البناء الاقتصادي للدولة سينهار حتماً. هؤلاء الملايين من الجنود أليسوا عبيداً لأولئك الذين يقودونهم؟ أليسوا مجبرين على تنفيذ كلّ ما يريده مالكوهم وقادتهم تحت التهديد بالتعنيف أو الموت؛ هذا التهديد الذي يدخل غالباً كمكون لما ينجزونه. الفرق فحسب أنّهم يسمّون خضوع هؤلاء العبيد انضباطاً، وماذا عن أولئك الذين يقضون حياتهم منذ ولادتهم حتى موتهم في العبودية المسمّاة خدمة.

إنَ العبودية الشخصية لم تختفِ من مجتمعاتنا المتحضرة، بل يمكن القول إنّ قوّتها ازدادت مع التزامات عسكرية كبيرة لبقائها في الآونة الأخيرة، وكما كان الحال دائماً، يستمرّ الآن، ولكن مع اختلاف بسيط. لا يمكنها أن تتوقّف؛ لأنّه طالما هناك استعباد لشخصٍ ما على آخر، فستأتي هذه العبودية الشخصية تحت التهديد بالسيف، وتدعم الاستعباد بالأرض والاستعباد الضريبي.

قد تكون هذه العبودية؛ أي الجيش، ضرورية جداً، كما يقولون، لحماية الوطن ومجده، لكن هذه الفائدة يشوبها شكّ كبير؛ لأننا نرى كيف يستعبد هذا الجيش الوطن ويهينه عندما يدخل في حروب فاشلة، ولكن لا يمكن الشك أبداً في نفعية هذه العبودية لحماية الاستعباد القائم على الضرائب وامتلاك الأراضي. يستعيد الفلاحون الإيرلنديون أو الروس أراضيهم من الإقطاعيين، ثمّ يأتي الجيش ويأخذها منهم. ابنِ مصنعاً للخمر أو الجعة، ولا تدفع ضريبة الإنتاج، يأتيك الجنود، ويغلقون المصنع. ارفض دفع الضرائب، وستكون النتيجة ذاتها.

البرغي الثاني هو وسيلة استعباد الناس بسلبهم أرضهم ومؤنهم. كانت هذه الوسيلة وستبقى موجودة؛ حيث يُستَعبد الناس، وإذا لم يتغيّر المشهد، فهي ستبقى موجودة في كلّ مكان. تكون الأرض كلها أحياناً ملكاً للحاكم، كما في تركيا، وتذهب نسبة عشرة في المئة من المحصول إلى الخزينة، أو جزء من ذلك، وتُحسب منها الضرائب. تكون الأرض كلّها أحياناً ملكاً لعدد قليل من الناس، ويُصرَف جزءٌ من العمل مقابلها، كما في بريطانيا، وأحياناً تعود مُلكية قسم كبير أو صغير إلى مُلّاك كبار، كما في روسيا وألمانيا وفرنسا.

طالما هناك استعباد، فهناك، في المقابل، سلبٌ للأراضي كنتيجة له. يرتخي برغي الاستعباد هذا أو يُشدّ بعلاقة عكسية لارتخاء أو شدّ البراغي الأخرى. عندما شملت العبودية أغلبية العمال في روسيا، لم تكن هناك حاجة إلى الاستعباد القائم على أساس الأرض، ولكن لم تضعف العبودية الشخصية

إلا عندما قوي الاستعباد بنوعيه الاستعباد بالأرض، والاستعباد الضريبي. قسموا الجميع في مجتمعات، وصعبوا من الحركة والتنقل، وأخذوا الأراضي ووزَعوها على أشخاص محدّدين، ثمّ أطلقوهم نحو «الحرية». في بريطانيا، على سبيل المثال، يفضلون الاستعباد بالأرض، أمّا مسألة تأميم الأرض فتكون عبر شدّ براغي الضريبة، وإرخاء براغي الاستعباد بالأرض.

الوسيلة الثالثة للاستعباد، القائمة على الضرائب، كانت كذلك موجودة مع انتشار الأوراق المالية المتنوعة في الدول المختلفة، وتمتّعت بقوّة خاصة مع قوة السلطة الحكومية. ابتُكرت هذه الوسيلة في وقتنا لكي تسعى إلى استبدال الوسيلة الثانية للاستعباد القائمة على الاستيلاء على الأراضي؛ هذا البرغي الذي يُضعِف، خلال شده، برغيَّ العبودية القائمة على الأرض، وهذا ما يلاحظ بوضوح في كلّ أوروبا. تشهد ذاكرتنا في روسيا انتقالين للعبودية من شكل إلى آخر: عندما حرّروا الأقنان، وأصبح المُلّاك مسؤولين عن جزءٍ من الأراضي. شعر المُلّاك بالقلق من أنّ سلطتهم على عبيدهم ستذهب من بين أيديهم، لكنّهم عرفوا في ما بعد أنّ عليهم ترك العبودية الشخصية، والاستيلاء على الأراضي للانتقال إلى شكل جديد من الاستعباد.

لم يبقَ عند الفلاح مؤونةً يأكل منها، بينما توافرت الأرض والمؤونة عند المالك، ولذلك أصبح الفلاح عبداً.

حدث الانتقال الآخر عندما أحكمت شدّ برغيّ آخر، عندما ضاعفت من شدّ برغي الضرائب، فوجد العمال أنفسهم مجبرين على العمل عند أصحاب المصانع ومُلّاك الأراضي. وهكذا تعرض الشعب لعبودية أشدّ وطأة؛ لأن تسعين في المئة من الشعب الروسي يعملون عند المُلّاك وأصحاب المصانع فقط لأنّهم مجبرون على دفع الضرائب على الأرض والضرائب الحكومية. هذا واضح جداً إلى درجة أنّ الحكومة إذا حاولت لمدّة عام ألا تبحث عن الضرائب العينية والمباشرة والأرضية، فسينتقل العمال إلى حقول ومصانع أخرى.

تسعون في المئة من الشعب الروسي مستأجَرون عند جباية الضرائب. كلّ هذه الوسائل الثلاث للاستعباد كانت موجودة في كلّ الأوقات، وهي الآن موجودة، لكنّ الناس لا يميلون إلى ملاحظة حجج جديدة بهذه الوسائل. الغريب أنّ الوسيلة ذاتها، التي يعتمد كلّ شيء عليها، لا يمكن ملاحظة البرغي الذي تستند إليه.

عندما اعتمد البناء الاقتصادي كلّه في السابق على العبودية الشخصيّة، لم يلحظه أكثر العقول المستنيرة. اعتقد كسينوفون[1] وأفلاطون وأرسطو والرومان أنّ هذه العبودية لا يمكن أن تستمر، وأنها نتيجة حتمية وطبيعية للحرب، ولا معنى للبشرية بدونها.

كذلك في العصور الوسطى، حتى وقت قريب، لم يرَ الناس أهمية مُلكية الأرض، والعبودية الناتجة عنها، التي قام عليها البناء الاقتصادي في العصور الوسطى.

في عصرنا الراهن كذلك، لا أحد يرى، ولا يريد أن يرى، أنّ استعباد أغلبية الناس في وقتنا الحالي يكون من خلال الضرائب المالية الحكومية، والضرائب على الأرض، التي تجمعها الحكومة من مواطنيها، والضرائب التي تجمعها من خلال الإدارات والجيش؛ هذه الإدارات والجيش هي نفسها التي تعتاش على الضرائب.

---

1 كسينوفون (430 ق.م-354ق.م) فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرتزق وكان أحد طلاب سقراط.

أشكال العبودية

لا نستغرب أنّ العبيد، الخاضعين للعبودية منذ القدم، لا يدركون الحالة التي يعيشونها، ويرون أنّ حياتهم في ظل العبودية هي الشرط الطبيعي للحياة الإنسانية، ويشعرون بالراحة في تقبّل العبودية. كذلك ليس مستغرباً أنّ الأسياد يعبّرون صراحةً عن نيّتهم بتحرير العبيد، عندما يرخون أحد البراغي، بعد أن يشدّوا البرغي الآخر. اعتاد كلاهما على هذه الحال، لكنّ العبيد، الذين لا يعرفون معنى الحرية، لا يبحثون إلا عن تخفيف أو تغيير شكل العبودية فحسب؛ الأسياد بدورهم، وفي سعيهم لإخفاء الحقيقة، يحاولون أن يعطوا أهمية خاصة لأشكال العبودية الجديدة، التي يتسلطون بها على الناس بدلاً من الأشكال القديمة. أمّا ما يثير الدهشة حقاً، فهو كيف يخفق العلم، الذي يُسمونه العلم الحر، وهو يدرس الظروف الاقتصادية لحياة الناس، في تحديد الأساس الذي تقوم عليه الظروف الاقتصادية. لعلّ مهمّة العلم هي البحث عن العلاقة بين الظواهر والمسبّب العام لسلسلة من الظواهر. ما يفعله الاقتصاد السياسي هو العكس؛ حيث يواظب على إخفاء العلاقة بين الظواهر وأهميّتها، ويتجاهل باستمرار الإجابة عن أكثر الأسئلة بساطة وأهمية، فهو مثل حصان كسول خامل، يسير جيداً نحو الأسفل، عندما لا ينقل أيّ شيء، ولكن ما إن يضعون الأحمال على ظهره حتى يذهب إلى الجهة المقابلة، ويتظاهر بأنّه ذاهب إلى مكان ما، لحاجة خاصة به. ما إن يُطرح على العلم سؤال جدّي ومهمّ، حتى تبدأ المناقشات العلمية عن المسائل التي لا صلة لها بهذا السؤال، والتي لها غاية واحدة، هي صرف الانتباه عن السؤال.

أنت تسأل: ما سبب هذه الظاهرة غير الطبيعية والقبيحة وغير المنطقية، التي بالإضافة إلى أنّها غير مفيدة هي ضارة بالناس، والمتمثّلة في أنَ فئة من الناس لا يمكنها العمل والأكل إلا وفق إرادة فئة أخرى؟ يجيب العلم بكلَ جدية: لأنَ فئة من الناس هي من تتدبّر أمور العمل والغذاء لفئة أخرى، وهذا هو قانون الإنتاج.

وعندما تسأل: ما هو هذا الحق، الذي بموجبه تستطيع فئة من الناس الاستيلاء على الأرض والغذاء وأدوات الإنتاج؟ يجيبك العلم بكلَ ثقة: يستند هذا الحق إلى حماية العمال؛ أي أنَ تحصين عمل فئة من الناس يتمثّل في امتلاك فئة أخرى لعملهم.

تطرح السؤال الآتي: ما هي هذه النقود التي تطبعها وتسكّها السلطة، وتأخذها بالقوّة من العمال، وبكميات كبيرة، وتفرضها على الأجيال القادمة على شكل ضرائب وديون حكومية؟ أليس لهذه النقود أيّ تأثير في العلاقات الاقتصادية بين الأشخاص الذين يدفعون لجباتها، بعد أن تصل كمّيتها إلى أكبر قدر ممكن من التحصيل؟ يجيبك العلم بكلَ جدية: النقود هي سلعة، مثل السكر والقماش، وتختلف عن بقية السلع بأنّها أسهل للتبادل. لا تؤثر الضرائب في الظروف الاقتصادية للشعب، فقوانين الإنتاج والتبادل وتوزّع الثروة في وادٍ، والضرائب في وادٍ آخر.

أنت تسأل: ألا تؤثر الدولة في الظروف الاقتصادية وهي ترفع الأسعار وتخفضها، وفق رغبتها، وترفع الضرائب وتخفضها، وفق رغبتها أيضاً، وهي بذلك تتيح استعباد كلّ من لا يملك أرضاً؟ يجيبك العلم بكلّ ثقة: ليس كذلك! إنّ قوانين الإنتاج والتبادل وتوزيع الثروة تتبع الاقتصاد السياسي. أمّا الضرائب والاقتصاد الحكومي عامة فهي تتبع علماً آخر هو علم القانون المالي.

تتساءل أخيراً: ألا يعاني أفراد الشعب من عبودية للدولة، التي تستطيع، وفق إرادتها، أن تجعلهم مفلسين، بعد أن تأخذ منهم كلّ ما ينتجونه، وتصرفهم من عملهم، وبعد أن تسوقهم إلى العبودية العسكرية.

تتساءل: ألا يؤثر هذا الحال في الظروف الاقتصادية؟ يجيبك العلم بكلّ بساطة: هذا شأن آخر، هذا هو القانون الحكومي. يدرس العلم، بكلّ جدية، قوانين الحياة الاقتصادية للشعب، وكلّ الإدارات والنشاطات التي تعتمد على إرادة المستعبِد، ويعترف بأنّ تأثير المستعبِد شرط طبيعي لحياة الشعب. العلم يقوم بما يقوم به الباحث في الظروف الاقتصادية لحياة العبيد الذين يتبعون لأسياد مختلفين، ولم يلتفت إلى تأثير إرادة السيّد على حياة هؤلاء العبيد؛ السيد الذي يستطيع، وفق رغبته الخاصة، أن يجبرهم على أداء هذا العمل أو ذاك، ويستطيع، بإرادته أيضاً، أن يطردهم من مكان إلى آخر، ويقرّر أن يطعمهم أو لا يطعمهم، يقتلهم أو يبقيهم أحياء.

يبدو لي أنّ العلم يقوم بكلّ هذا بسبب الغباء، ولكن يكفي أن تتعمق وتبحث في وضع العلم، حتى تقتنع بأنّ هذا لا يأتي من الغباء، لكنّه ناتج عن عبقرية عظيمة. هذا العلم له هدف محدد، وهو يبلغه. هذا الهدف هو تعزيز الخرافات والأوهام عند الناس، وبهذا يكون قد منع البشرية من مواصلة تقدمها نحو الحقيقة والصلاح. وُجدت الخرافات الفظيعة منذ القدم، ومازالت موجودة، وقد خلفت أضراراً أكبر بكثير مما خلفته أكثر الخرافات الدينية فظاعة. يقدم «ما يسمى العلم» كل الدعم والمساندة، بكلّ قوة وحماسة، لهذه الخرافات. هذه الخرافات شبيهة تماماً بالخرافات الدينية التي تؤكّد أنّ الإنسان، بالإضافة إلى واجباته تجاه أخيه الإنسان، عليه واجبات أخرى نحو كائنات تخيّلية. بالنسبة إلى العلوم اللاهوتية إنّ الكائن التخيّلي هو الإله، أمّا بالنسبة إلى العلوم السياسية فالكائن التخيّلي هو الدولة.

تقوم الخرافات الدينية على أنّ الضحايا، وأحياناً أرواح الناس، المقدمة للكائن التخيلي، هي ضرورية، ويستطيع الناس السعي، وعليهم أن يسعوا؛ إليها بكلّ الوسائل، من دون استثناء، بما في ذلك وسيلة العنف. الخرافات السياسية تقوم على أنّ الإنسان عليه واجبات أكثر أهمية للكائن التخيلي، بالإضافة إلى واجباته تجاه إنسان آخر، وتضحيات (غالباً ما تكون أرواح الناس) مقدّمة للكائن التخيلي؛ أي للدولة، ويستطيع الناس السعي، وعليهم أن يسعوا؛ إليها بكلّ الوسائل الممكنة، بما في ذلك وسيلة العنف.

هذه الخرافات، التي عززها الكهنة من مختلف الأديان سابقاً، يعزّزها الآن ما يسمّى العلم.

الناس واقعون تحت نير العبودية في أفظع وأسوأ صورها الآن، والعلم يحاول إقناعهم بأنّ وضعهم هذا ضروريّ، ولا يمكن تغييره.

يجب أن تقوم الدولة لمصلحة الشعب، وتنجز واجباتها في إدارة البلاد، وتحميها من الأعداء. لكي تقوم بهذا هي بحاجة إلى المال والجيش. يجب على كل مواطني الدولة دفع المال، ومن ثَمَّ إنّ كلّ العلاقات بين الناس يجب أن تُؤخذ في الحسبان في الظروف الضرورية للدولة.

يقول الإنسان البسيط، غير المتعلم: أريد أن أساعد والدي في الزراعة، وأريد أن أتزوّج، لكنّهم يرسلوني إلى الخدمة العسكرية في كازان لمدّة ستّ سنوات. أعود من الخدمة العسكرية، وأريد أن أزرع أرضي وأعيل أولادي، ولكن لا أحد يسمح لي، في كلّ المساحة التي تقدر بمئة فرست حولي، بأن أزرعها قبل أن أدفع لهم المال الذي أملكه؛ لأولئك الأشخاص الذين لا يتقنون الزراعة، ويطلبون مبلغاً كبيراً يتوجّب عليّ أن أبيع عملي كله لهم لكي أسدده. أريد أن أعطي كلّ ما أجنيه لأولادي، ولكن يأتيني شُرطي ويسلب مني كلّ ما في حوزتي في صورة ضريبة يفرضها عليّ. أكسب القليل من جديد، فيسلبونه مني. يعتمد كلّ نشاطي الاقتصادي، من دون أي فائض، على المتطلبات

الحكومية، ويبدو لي أنّ تحسين وضعي المعيشي ووضع إخوتي، يجب أن يتم عبر تحرّرنا من المتطلبات الحكومية. لكنّ العلم يقول: أحكامك نابعةٌ من جهلك. ادرسوا قوانين الإنتاج والتبادل وتوزع الثروة، ولا تخلطوا القضايا الاقتصادية بالقضايا الحكومية. إنّ الظواهر، التي تشيرون إليها، لا تمثّل جوهر قيود حريتك؛ بل الجوهر هو تلك التضحيات الضرورية، التي تقدّمها أنت والآخرون من أجل حريتكم وخيركم. يضيف الرجل البسيط: أخذوا ابني، ويتوعدونني بأخذ بقية أولادي إذا انتظرتهم، وسيأخذونهم بالقوة، تحت تهديد السلاح، إلى أرضٍ لم نسمع بها أبداً، ولتحقيق غايات لا نفهمها بتاتاً. لكن الضرائب، التي من أجل سدادها أخذ الشرطي البقرة من جيراني، ستذهب، كما أعلم، إلى ذلك الشرطي نفسه، الذي أخذ بقرتي أيضاً، وإلى أعضاء مختلفين في اللجان والوزارات، الذين لا أعرفهم، والذين لا أصدقهم. كيف لوسائل العنف هذه أن تضمن لي حريتي، وكيف يمكن لكلّ هذه الخرافات أن تجلب الخير لي.

يمكنك إجبار شخص ما على أن يكون عبداً، وأن يقوم بأشياء يَعدّها شراً، ولكن لا يمكنك إجباره على الاعتقاد بأنّه حينما يتحمّل العنف، فهو حر، وأن الشر، الواضح جداً، الذي يتحمّله، يجلب له الخير. هذا يبدو غير منطقي، وهذا ما قاموا به، بمساعدة العلم. الدولة؛ أي أولئك المسلحون والمستعبِدون، يقررون ما يريدونه من أولئك الذين يتسلطون عليهم، كما فعل الانجليز مع الفيجيين، ويقرّرون ما هو حجم العمل الذي يريدونه من عبيدهم، ويقرّرون كم يلزمهم من المساعدين لأداء هذا العمل، وينظّمون مساعديهم في هيئة جنود، وفي هيئة مُلّاك مستقلين للأراضي، وفي هيئة جباة ضرائب. يبذل العبيد كل جهدهم، وبدل أن يقتنعوا بأنهم يفعلون هذا تنفيذاً لإرادة مالكهم، يعتقدون أنّ هذا ضروري في سبيل حريتهم وخيرهم، وأنّ خدمتهم والتضحية بدمائهم هي للإله المسمى «الدولة»، وأنهم أحرار بغضّ

النظر عن هذه الخدمات التي يقدمونها «للإله». يقتنعون بهذا؛ لأن الدين والكهنة قالوه سابقاً، ويكرره العلم والعلماء الآن. يجب فحسب التوقف عن التصديق الأعمى بكلّ ما يقوله الأشخاص الذين يسمّون أنفسهم كهنة أو علماء، لكي تظهر سخافة ما يؤكّدونه بكل وضوح. يقنع المستعبِدون أولئك الأشخاص الذين يتسلطون عليهم بأنّ العنف ضروري لقيام الدولة، وأنّ قيام الدولة ضروري لحرية وخير الناس، ونستنتج من هذا أنّهم يتسلطون على الناس من أجل حريتهم، ويؤذونهم من أجل خيرهم.

لكنّ البشر مخلوقات عاقلة، ويستطيعون إدراك مصلحتهم، ويفعلون هذا بكل حرية. لا يمكن لهذه الأعمال، التي لا يفهمون الفائدة منها، والتي يجدون أنفسهم مجبرين على أدائها بالقوة، أن تكون لمصلحتهم؛ لأن الكائن العاقل لا يَعدّ أيّ عمل لمصلحته إلا بعد أن يجري له محاكمة منطقية في عقله. إذا استميلَ الناسُ إلى الشر، مدفوعين بشغفعم أو غبائهم، فكلّ ما يستطيع أن يفعله الآخرون، الذين لم ينجرّوا إلى الشر، أن يقنعوا أولئك بفعل كلّ ما فيه خير لهم. يمكن إقناع الناس بأنّ حياتهم ستصبح أفضل إذا انتسبوا جميعاً إلى الجيش، وسُلبت منهم أراضيهم، وتخلّوا عن كلّ أجرة عملهم مقابل الضرائب، ولكن طالما أنّهم غير مقتنعين بأنّ كلّ هذه الأعمال التي يقومون بها ليست من أجل مصلحتهم، ولا يقومون بها طواعية وبكلّ سرور، فلا يمكن تسميتها بالمصلحة العامة للناس. المؤشر الوحيد على صلاح أيّ عمل هو أنّ الناس يؤدّونه بكلّ حرية. حياة الناس زاخرة بمثل هذه الأعمال. إذا عمل عشرة عمال في إنتاج البراميل، ولكي يعملوا معاً، فإنهم يقومون بعملهم: حيث يكون مفيداً لهم، لكن لا يمكن الاقتناع بأنّ ما يقومون به فيه كلّ الخير والصلاح، إذا أجبروا عاملاً آخر على المشاركة معهم، وبأنّ مصلحتهم هي ذاتها مصلحة هذا العامل الحادي عشر. كذلك الحال بالنسبة إلى الأسياد النبلاء، الذين يدعون أصدقاءهم إلى العشاء؛ حيث لا يمكن عدُّ هذه الوليمة عملاً صالحاً إذا كانوا سيسلبون عشرة روبلات من أجل تحضيرها.

كذلك بالنسبة إلى الفلاحين الذين قرّروا أن يحبسوا الماء في بركة. بالنسبة إلى أولئك، الذين يرون أنّها أهم من الجهد الذي سيبذلونه في إعدادها، ستكون مفيدة لهم. أمّا أولئك، الذين يرون أنّها أقلّ أهمية من الحقل الذي تأخروا في حصاده، فإنّ هذه البركة ليست نافعة بنظرهم. والشيء نفسه بالنسبة إلى الطرق التي يبنونها والمتاحف وأماكن العبادة وكل الأماكن العامة والأعمال الحكومية المختلفة. كلّ هذه الأعمال يمكن أن تكون نافعة فقط بالنسبة إلى أولئك الذين يعدّونها نافعة لهم، لذلك هم يؤدّونها بكلّ سرور وطواعية، مثل شراء الأدوات بالنسبة إلى الجمعية التعاونية، والغداء بالنسبة إلى السيّد النبيل، والبركة التي يحفرها الفلاحون. الأعمال التي يُساق إليها الناس بالقوة ستصبح غير نافعة وغير عامة بسبب هذه القوة تحديداً.

كلّ هذا بسيط وواضح، ولو لم يكن الناس مخدوعين لما كانت هناك حاجة إلى شرح أيّ شيء.

لنفترض أننا نعيش في قرية، وقرّرنا أن نبني جسراً فوق المستنقع، الذي نغوص فيه كلنا. اتفقنا على، أو وعدنا بـ: أن نأخذ من كل بيت أخشاباً، أو عدداً محدداً من أيام العمل. اتفقنا لأنّ إقامة هذا الجسر أكثر فائدة من العمل الذي سنضيعه عليها، لكنّ هناك بيننا من يعتقدون أنّ عدم إقامة الجسر أكثر فائدة لهم من صرف المال لإقامته، أو يرون أنّه بلا فائدة. هل يمكن لإجبار الناس على بناء هذا الجسر أن يجعل بناءه مفيداً في نظرهم؟ واضح جداً أن الإجابة هي لا؛ لأن هؤلاء، الذين رأوا أن مشاركتهم الاختيارية في بنائه غير مفيدة لهم، من المؤكد سيرون أنّها أقل فائدة عندما يُجبرون على المشاركة في بنائه. لنفترض أيضاً أننا اتفقنا جميعاً من دون استثناء على بناء الجسر، وتعهّدنا بتقديم المال أو العمل من كلّ بيت، ولكن حدث أنّ البعض لم يوفوا بتعهداتهم، إمّا لأن أوضاعهم تغيّرت، وفعلوا ما يرونه أكثر نفعاً له، وإما ببساطة لأنّهم غيروا رأيهم في ما يتعلق ببناء الجسر، أو لأنهم يترقبون أن يبني الآخرون الجسر، من دون أي تضحيات يقدمونها لبنائه، ومن ثمّ يستخدمونه.

هل يمكن لإجبار هؤلاء على المشاركة في بناء الجسر أن يجعل التضحيات الإجبارية التي قدّموها مفيدة بالنسبة إليهم؟ من المؤكد لا؛ لأن هؤلاء إذا لم يفوا بوعودهم بسبب الظروف المتغيرة، ولأن التضحيات لبناء الجسر تثقل كاهلهم، وهي أصعب عليهم من عدم بناء الجسر، فإنّ هذه التضحيات الإجبارية لن تجلب لهم سوى الضرر. إذا كانت نيّة الرافضين للمشاركة هي الاستفادة من خدمات الآخرين، فإنّ إجبارهم على المشاركة ما هو إلا عقوبة لهم على نيّتهم، دون التحقّق منها، وهي عقوبة سابقة للفعل المعاقَب عليه. وبشكل عام، إنّ الإجبار على المشاركة في أيّ عملٍ لا تحبّذه النفس لا يمكن أبداً أن يكون خيراً.

هكذا هو الحال دائماً، عندما تكون التضحيات من أجل قضية واضحة ومقبولة ومفهومة للجميع، مثل إقامة الجسر على المستنقع ليعبره الجميع. كم سيكون إجبار الملايين على تقديم التضحيات جائراً وبلا جدوى؛ حيث إن هدفه غير واضح وغير ملموس، وغالباً ما يكون ضرره مؤكداً، كما يحدث في عمليات التجنيد وفرض الضرائب. وفقاً للعلم، يبدو كلّ ما تعدّه أغلبية الناس شراً هو الخير العام، ويبدو أنّ هناك قلة قليلة من الناس هم وحدهم الذين يعرفون ما هو الخير. وبغضّ النظر عن رأي الأغلبية الباقية، الذين يَعدُّون هذا الخير شراً مطلقاً، إنّ الأقلية هذه، وهي تجبر كلّ الأغلبية الباقية على الشر، ترى أنّ هذا الشر خيرٌ مطلق.

تتمثل في هذا الخرافة الأساسية والوهم الأساسي، اللذين يمنعان تقدّم البشرية نحو الحقيقة والخير. الهدف الرئيس للعلوم السياسية، وبشكل خاص ما يسمى الاقتصاد السياسي، هو تعزيز هذه الخرافة وهذا الوهم؛ هدفها أن تخفي عن الناس حالة الظلم والعبودية التي يعيشون تحت نيرها. الوسيلة التي يستخدمها الاقتصاد السياسي لبلوغ هذا الهدف هي النظر إلى العنف المسبِّب لكلّ الأوضاع الاقتصادية الصعبة للعبيد على أنّه طبيعي وحتمي، ومن ثم خداع الناس وصرف أنظارهم عن السبب الحقيقي لبؤسهم.

اندثرت العبودية منذ فترة طويلة. أُلغِيت في روما، وفي أمريكا، وعندنا، لكنّها اختفت ظاهرياً فحسب، وليس عملياً.

العبودية هي تحرّر فئة من الناس من واجب عملهم الضروري لتلبية حاجاتهم الأساسية، باستخدام العنف الذي بموجبه ينقلون هذا الواجب إلى الآخرين. وتتجلى العبودية أيضاً حين نرى شخصاً لا يعمل، ولكن ليس لأنَ آخرين يعملون طواعية ونيابة عنه، بل عندما يكون قادراً على العمل، لكنَه يجبرهم على العمل بدلاً منه. العبودية منتشرة على نطاق واسع جداً في كلَ المجتمعات الأوروبية؛ حيث تستفيد فئة من الناس، باستخدام العنف، من عمل آلاف الأشخاص، وترى أنّ هذا من حقّها، بينما يرى هؤلاء الآلاف، الخاضعون للعنف، أنّ هذا العمل واجبٌ عليهم.

العبودية موجودة، ولكن ما هي هذه العبودية؟ ما هو سبب بقائها، الذي لا يمكنها أن توجد من دونه؟

يكمن السبب في العنف الذي يمارسه القوي المُسلح على الضعفاء والعُزّل.

العبودية بأشكالها الثلاثة الأساسية للعنف الممارس على الأفراد: الجندية، والضرائب على الأرض المدعومة من العسكر، والضرائب المباشرة العينية والنقدية المفروضة على الجميع والمدعومة كذلك من العسكر، هي موجودة حقاً كما في السابق. نحن لا نراها؛ لأن كلّ شكلٍ من أشكالها أخذ حجة جديدة حجبت عنّا حقيقته. العنف الذي يطبقه المسلحون على العُزّل هو ذريعة لحماية الوطن من أعداء وهميين، ويتضمّن في جوهره المعنى القديم؛ أي خضوع المضطَهدين للغزاة. كان العنف المستخدم للاستيلاء على الأراضي هو ذريعة للمكافأة من أجل المصلحة العامة، ويعزّزه حقّ الميراث، وفي جوهره هو ذاته الاستيلاء على الأراضي واستعباد الناس الذي مارسه الجيش. أخيراً، العنف الضريبي المالي، وهو أقوى وأهم أشكال العنف

في الوقت الحالي، وهو يفرض بذريعة غريبة هي حرمان الناس من ثروتهم وحريتهم وكلّ خيرهم، يجري باسم الحرية والصالح العام. في جوهره هو عبودية أيضاً، لكنها عبودية غير مطبقة مباشرةً على الأفراد.

عندما يأخذ العنف شكلاً قانونياً، تلك هي العبودية بذاتها. هل هناك عنف في أن يذهب الحاكم ومعه حرّاسه إلى القرى، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ، ويشعل النار في القرى؛ أو عندما يحصّل السيّد العمل والضرائب على الأرض من العبيد، ويستدعي العسكر في حال رفضهم؛ أو عندما تخنق فئة من الناس آخرين بالضرائب، ويجبونها وهم يتجوّلون في القرى مدججين بالسلاح؛ أو وزارة الداخلية عندما تكلّف عمدة المقاطعات والشرطة بجباية الضرائب من الناس، وإذا رفضوا فإنّها ترسل تعزيزات عسكرية. بكلمة واحدة، لن يكون هناك أيّ توزيع عادل للثروة بين الناس، طالما هناك عنف مدعوم بالحِراب، فحينها سيصبح كلّ شيء تحت تصرّف المستبدين.

يُعبّر مشروع جورج[1] عن تأميم الأرض عن الصورة الحقيقية لهذا الاقتراح. يقترح جورج أن تعود مُلكية الأرض كلّها إلى الدولة، ولذا كلّ الضرائب، العينية والنقدية، تُستبدَل بايجارات الأراضي؛ أي كلّ من يستخدم الأرض عليه أن يدفع قيمة استئجارها للدولة. ماذا لو حدث ذلك؟ ستندثر العبودية على أساس الأرض داخل حدود كلّ دولة؛ أي تصبح الأرض ملكاً للدولة: إنجلترا لها أرضها، وأمريكا لها أرضها.. الخ؛ أي ستنتشر العبودية تبعاً لمساحة الأراضي المستخدمة.

1 هنري جورج (1839 - 1897) هو عالم اقتصاد سياسي وصحفي أمريكي. طوّر مفهوم الضريبة المفردة على الأرض. استوحى فلسفة الاقتصاد المعروفة باسم الجورجية معتمداً على الاعتقاد بأنّ الناس يجب أن يمتلكوا ما ينتجونه بأنفسهم، ولكن يجب أن تكون القيمة الاقتصادية المستمدّة من الأرض متضمنة ما فيها من موارد طبيعية.

وقد يؤدي هذا إلى تحسين وضع بعض العمال (الذي يدفعون الضرائب على الأرض)، ولكن متى فُرِضَت الجباية القسرية لضرائب استئجار الأرض، فإنَ هذا يعني العبودية. صاحب الأرض، إذا خسر محصوله، ولم يستطع دفع الايجار الذي يطلبونه منه بالقوة، وبهدف ألا يُحرَم من كلّ شيء، عليه أن يقع تحت رحمة ذلك الشخص الذي يملك المال كي لا يفقد أرضه.

إذا سرّب الدلو الماء فهو غالباً مثقوب. إذا نظرنا إلى قعر الدلو، فقد يبدو لنا أنّ الماء يتسرّب من عدة ثقوب، ولكن طالما أنّنا سدّدنا الثقوب الظاهرة من الخارج، فإنّ الماء سيستمر في التسرّب منه. علينا أن نجد المكان الذي يتسرب منه الماء من داخل الدلو ونسدّه حتى يتوقّف تدفق الماء. الكلام نفسه يُقال حول الإجراءات المقترحة لوقف التوزع غير العادل للثروة؛ حيث يجب سدّ تلك الثقوب التي تتسرّب منها ثروة الشعب.

يقولون: أنشئوا اتحاداتٍ للعمال، واجعلوا رأسَ المال ملكاً عاماً، وأمّموا الأراضي. كلّ هذا هو سدٌّ للثقوب من الخارج، التي يُخيل إلينا أنّ الماء يتسرب منها. لكي نوقف انتقال الثروة من العمال إلى من لا يعملون، علينا أن نجد ذلك الثقب الداخلي، الذي تتسرّب من خلاله الثروة؛ وذلك الثقب هو العنف الذي يمارسه القوي المسلّح على العُزّل؛ عنف العسكر، الذي يسلبون به جهود الشعب، ويستولون على أراضيهم ومنتجاتهم. طالما هناك شخص يحمل السلاح، ويعتقد أنّ من حقّه قتل أيّ شخص آخر كائناً من كان، سيبقى التوزع غير العادل للثروة؛ أي العبودية.

خطوة للتخلص من العبودية

تدهشني دائماً هذه الكلمات التي كثيراً ما أسمعها: نعم، هذا كلام نظري، ولكن كيف يتمّ تطبيقه عملياً؟ تماماً كما لو أنّ التنظير جميل جداً، وضروري للكلام، ولكن ليس من أجل تحويله إلى واقع عملي؛ أي إنّ كلّ العمل يقوم حتمياً على أساس نظري. سنكون بالتأكيد أمام عدد كبير من النظريات الغبية إذا ناقشنا بمثل هذا الأسلوب المدهش. النظرية هي كلّ ما يتخيّله الشخص عن شيء ما، أمّا التطبيق العملي فهو ما يفعله. كيف يستقيم، إذاً، أن يعتقد الشخص بضرورة فعل شيء ما، ويفعل عكسه؟ إذا كانت النظرية تقول إنّ تحضير الخبز يجب أن يتمّ بعجنه أولاً، ثمّ خبزه بعد ذلك، فلن يقوم أحد، باستثناء المجانين، ممّن يعرفون كيف يُحضَر الخبز، بفعل العكس. ولكن جرت الموضة على أن نقول هذا من الناحية النظرية، ولكن ماذا عن التطبيق العملي؟

تأكد لي، من خلال المادة التي شغلتني دراستها، ما اعتقدته دائماً، وهو أن التطبيق العملي ينبع حتماً من النظرية، ولا يبرهنها فحسب، ولكن لا يمكن أن يخرج عنها. وإذا لم أفهم المادة التي أفكّر فيها، فإنني لا أستطيع أن أنفذها عملياً كما فهمتها.

أردت مساعدة البؤساء فقط لأنني كنت أمتلك المال، وأيّدت الخرافة العامة التي تتمثّل في أنّ المال هو انعكاس للجهد، أو هو شيء قانوني وجيّد، ولكن ما إن بدأت بتوزيع المال، حتى رأيت أنّني عندما أوزّع القسائم التي جمعتها على الفقراء أقومُ بما قام به العديد من الأسياد الذين يجبرون بعض الأقنان على خدمة آخرين. رأيت أنّ أيّ صرف للمال، سواء أكان لشراء سلعة

ما، أم لإعطائه بلا مقابل، هو مدخل لإلزام الفقراء بالتزامات مالية، أو إعطائه لآخرين لإلزام الفقراء بدفع مبالغ معينة.

ولهذا السبب وضح أمامي زيف ما أقوم به؛ حيث أردت مساعدة فقراء بمعاقبة فقراء آخرين.

رأيت أنّ المال في حدّ ذاته ليس عديم الفائدة فحسب، بل هو ضار أيضاً؛ حيث يحرم الناس من الخير الذي يجلبه لهم عملهم، والتمتع بنتاج هذا العمل، وأنني لا أستطيع أن أعطي هذا الخير للآخرين لأنني لا أمتلكه؛ إذ ليس لدي ما أفعله، وأفتقد السعادة في أن أستمتع بعملي.

يبدو لي أنّ هذه المناقشة المجرّدة لا تتضمّن أيّ شيء جديد حول معنى المال، لكنّ هذه المناقشة لم تكن من أجل المناقشة فحسب، بل لكي أحلّ سؤال حياتي وآلامي أيضاً، وكانت جواباً عن سؤالي:

ماذا عساي أن أفعل؟

ما إن أدركت معنى الثروة والمال، حتى أصبح واضحاً لدي، بما لا يقبل الشك، ما يجب على الآخرين أن يفعلوه؛ لأنهم حتماً سيفعلونه. ما فهمته، في الجوهر، هو فحسب ما فهمته منذ مدة؛ تلك الحقيقة، التي قُدمت للناس في الأزمنة القديمة جداً، ما قاله بوذا واشعيا[1] ولاوتزه[2] وسقراط، وبوضوح وبما لا يقبل الشك، ما قدمه لنا بشكل خاص يوحنّا المعمدان. وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل، فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعطِ من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا (إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث، 10، 11). وهذا ما ردّده يسوع كثيراً، وبوضوح كبير.

---

1 معناه بالعبرية خلاص الرب. كان ابن آموص ويُعدُّ الكاتبَ لسفر إشعيا في العهد القديم من الكتاب المقدس.

2 لاوتزه (604ق.م 531ق.م) فيلسوف صيني.

قال أيضاً: المجد للفقراء، والويل للأغنياء. قال: لا يمكن أن تخدم الله والثروة في وقت واحد. لم يحرّم على طلاب العلم أخذ المال فحسب، بل منعهم من أن يمتلكوا أكثر من ثوب واحد. قال إنّ الغني لا يمكن أن يدخل إلى ملكوت الله لأنّه غني، وإنّ ولوج الجمل في سم الخياط أسهل من دخول الغني إلى ملكوت الله.

قال إنّ من يأخذ كلّ شيء: البيت والأولاد والحقول، لكي ينفّذ تعاليمه، فهو ليس من أتباعه. روى أمثولة عن الغني، الذي لم يفعل سوءاً قط، كما هو حال أغنيائنا الآن، لكنّه يرتدي ملابس أنيقة، ويتناول ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، وبهذا هو يدمّر روحه؛ وعن الفقير لعازر[1]، الذي لم يفعل أيّ شيء جيد، لكنه أنقذ روحه، لأنّه كان فقيراً.

كانت هذه الحقيقة واضحة لي منذ مدة طويلة، لكن التعاليم الزائفة خدعتني وأخفتها عني، وجعلت منها نظريات في ذلك المعنى الذي يحبّون تقديمه؛ أي كانت كلاماً فارغاً. لكن سرعان ما نجحت في نسف هذه المغالطات في التعاليم العالمية في وعيي، حتى التقت النظريات بالممارسة العملية، وأصبح واقع حياتي وحياة كلّ الناس نتيجة حتمية لها.

---

1 تتحدّث القصة عن رجل غنيّ يعيش بقربه رجل فقير اسمه لعازر مطروح في بابه وهو تضربه القروح، وكان يشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني، فيما كانت الكلاب تأتي لتلحس قروحه، وعندما مات حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الغني أيضاً ودفن وذهب إلى الجحيم، وفيما هو يتعذّب في الجحيم تطلّع فوقه ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه، فقال لإبراهيم ارحمني وأرسل لعازر في طرف إصبعه ماء فيبرد لساني؛ لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني تذكّر أنّك استوفيت أجرك في حياتك، وأخذ لعازر البلايا، وها هو يتعزّى وأنت تتعذب، وفوق هذا كلّه هناك هوّة كبيرة أُثبِتت بيننا وبينكم. فسأله أن يرسله إلى بيت أبيه لينذر إخوته الخمسة. فقال له إبراهيم إن لهم موسى والأنبياء. فقال إذا ذهب واحد من الأموات إليهم يتوبون. فقال إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبياء فلن يسمعوا لأيّ واحد يقوم من الموتى (إنجيل لوقا، الإصحاح 16).

أدركت أنّ الإنسان، بالإضافة إلى حياته من أجل مصلحته الشخصية، عليه أن يعمل حتماً من أجل مصلحة الآخرين. إذا أجرينا مقارنة بعالم الحيوانات، كما يحب أن يفعل البعض، ودافعنا عن العنف والصراع من أجل الوجود في عالم الحيوانات، فإنّ المقارنة يجب أن تتم مع الحيوانات ذات المجتمعات، مثل مجتمع النحل؛ لأنّ الإنسان، بالإضافة إلى عاطفة حبّ القريب المودَعة فيه، وعقله، وطبيعته الخاصة، مدعوٌّ إلى خدمة الآخرين، والعمل في سبيل بلوغ الهدف الإنساني.

أدركت أن هذا هو القانون الطبيعي للإنسان، الذي يستطيع، من خلاله فحسب، أن يؤدي مهمته، ويعيش في سعادة. فهمت أنّ هذا القانون انتُهك ويُنتَهك الآن، عندما يلجأ الناس إلى العنف، مثل النحل السارق لشهد غيره، وهم يتحرّرون من أعمالهم، ويستخدمون أعمال الآخرين، ولا يوجّهون هذا العمل نحو الهدف العام، بل نحو مصالحهم الشخصية، وتماماً، مثل النحل السارق، يكون هذا سبباً في فنائهم. أدركت أنّ شقاء الناس ناتجٌ عن استعباد فئة من الناس للآخرين. أدركت أنّ العبودية في عصرنا سببها العسكر والضرائب على الفلاحين، وعندما فهمت الأشكال الثلاثة للاستعباد أردت أن أنأى بنفسي عن المشاركة فيها.

عندما كنت مالكاً، وعندي أقنان، أدركت عدم أخلاقيّة هذا الوضع، وسعيت، مع آخرين يشاطرونني الرأي، للخروج منه. تمثل خلاصي في سعيي، بعد اقتناعي بعدم أخلاقيته، وقبل أن أستطيع التخلص تماماً منه، إلى أن أقلل من استخدام صلاحياتي مع الأقنان إلى أقلّ درجة ممكنة، وأن أعيش وأتركهم يعيشون، كما لو أنّ نظام القنانة ليس موجوداً. وبالتوازي مع هذه الوسائل، شرحت للمُلّاك الآخرين عدم شرعية وعدم إنسانية هذه الصلاحيات التي يتسلطون من خلالها على الأقنان.

وفعلت الشيء ذاته مع العبودية بشكلها المعاصر التي هي ممارسة حقوقي، التي تمنحني حقّ امتلاك العبيد والأراضي والمال، والمدعومة بالقوة العسكرية، بأقلَ صورة ممكنة، حتى أستطيع أن أتخلَص منها تماماً. ومع كلِّ هذه الوسائل، شرحت للمُلّاك الآخرين عدم قانونية وعدم إنسانية هذه الحقوق الوهمية التي يتمتعون بها.

تتمثل مشاركة المالك في العبودية في استخدامه عملَ الآخرين، ولا يهمّ إن كان يتوافق الاستعبادُ مع حقوقي في امتلاك العبد، أو في امتلاكي الأرض أو المال، أو لا. من لا يحبّ العبودية عليه أولاً أن يتوقف عن استخدامه جهودَ الآخرين، إن كان بامتلاكه أرضهم، أو عبر خدمة السلطة، أو من خلال المال. الإعراض عن كلّ الطرق المنتشرة لاستخدام عمل الآخرين سيقوده حتماً إلى ضرورة التخفيف من مطالبه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن يفعل هو بنفسه ما كان يفعله الآخرون نيابة عنه.

سيقضي هذا الاستنتاج البسيط حالاً على الأسباب الثلاثة لفشلي في مساعدة الآخرين، الذين ذهبت إليهم، باحثاً عن سبب فشلي.

كان السبب الأول هو تكدّس الناس في المدن، وامتصاص الثروات الريفية فيها. ما ينبغي على المرء فعله هو فحسب أن يترك الرغبة في استخدام جهود الآخرين عبر تجنيدهم في خدمة السلطة، أو امتلاك الأراضي، أو فرض الضرائب، حتى يستطيع بكلّ قوته وإمكاناته أن يلبي حاجاته ومتطلباته بنفسه، كي لا يفكر أبداً في مغادرة الريف؛ حيث تلبية المتطلبات سهل جداً، باتجاه المدينة؛ حيث كلّ السلع من إنتاج الآخرين، ويجب شراء كلّ شيء. عندها، في الريف، سيستطيع مساعدة المحتاجين، دون أن يشعر بعدم المساعدة: هذا الشعور الذي عايشته في المدينة، عندما أردت مساعدة الآخرين ليس بعملي، بل بالاستعانة بعمل الآخرين.

السبب الثاني هو الفصل بين الأغنياء والفقراء. يكفي أن يترك المرء الرغبة في استخدام جهود الآخرين، من خلال فرض الخدمة أو امتلاك أراضيهم أو فرض ضرائب عليهم، حتى يجد أنّ من واجبه تلبية متطلّباته بنفسه. عندها سيهدم الجدار الفاصل بينه وبين الشعب الكادح، وسيعمل جنباً إلى جنب معهم، وستتاح أمامه إمكانيّة مساعدتهم.

السبب الثالث هو الشعور بالخزي المستند إلى إدراكي عدمَ الأخلاقية في امتلاكي تلكَ النقود التي أردت أن أساعد بها الآخرين. يكفي أن يترك الإنسان الرغبة في استخدام جهود الآخرين بالخدمة، أو بامتلاك أرضهم، أو بالضرائب، حتى تختفي من عنده تماماً تلك النقود الغبية التي ولّد وجودها متطلباتٍ عند الناس لم أستطع تلبيتها، وسببت لي شعوراً بإدراكي عدمَ أحقيتي فيها.

مصارحة الذات

رأيت أنّ سبب الآلام والحياة الفاسدة التي يعيشها الناس هو أنّ بعض الناس عبيدٌ عند آخرين، لذلك وصلت إلى هذا الاستنتاج البسيط: إذا أردت مساعدة الناس فعليّ، أولاً، التوقف عن التسبّب في بؤسهم؛ أي أن أتوقف عن المشاركة في استعبادهم. ما جذبني إلى استعباد الناس هو أنني اعتدت، منذ طفولتي، ألا أقوم بأيّ شيء، واعتدت الاستفادة من جهود الآخرين، وعشت وما زلت أعيش في مجتمع ليس معتاداً على استعباد الآخرين فحسب، بل يبرر استعباده لهم أيضاً بمغالطات مثيرة وغير مثيرة للانتباه.

وصلت إلى النتيجة الآتية: كي لا أتسبّب في إفساد الآخرين، وإلحاق الأذى بهم، عليّ أن أقلل، قدر ما أستطيع، من استخدامي جهودَ الآخرين، وأن أعمل قدر ما أستطيع.

هذه النتيجة التي سلكتُ مساراً طويلاً حتى وصلت إليها، وصل إليها الصينيون قبل آلاف السنين؛ حيث تقول العبارة المأثورة: إذا كان هناك شخص خامل وكسول، فهناك شخص آخر يموت من الجوع في المقابل.

وصلت إلى هذه النتيجة الطبيعية والبسيطة وهي إذا كنتُ مشفقاً على الحصان المنهك الذي أركبه، فعليّ أولاً أن أنزل عن ظهره، وأن أتابع رحلتي ماشياً.

هذه الإجابة، التي تمنحنا شعوراً أخلاقياً كاملاً بالرضا، خزعت عينيّ وعيوننا جميعاً، ونحن لا نراها، وننظر إلى الجوانب.

ونحن نبحث عن شفائنا من أمراضنا الاجتماعية، نبحث في كلّ الجهات؛ في الجهات الحكومية وغير الحكومية، وفي العلوم، وفي الخرافات الساذجة، لكننا لا نرى ما يوخز عين كلّ واحدٍ منا.

نملأ مصارفنا بالقذارات، ونريد أن يتحمل الآخرون عنّا عبء تنظيفها، ونتظاهر بأننا نتألم كثيراً من أجلهم، ونبتدع كلّ الحيل الممكنة، ونترك أبسطها وأسهلها، وهي أن ننظفها بأنفسنا.

من يشعر بصدقٍ بآلام المحيطين به، عليه أن يلجأ إلى أبسط وأسهل طريقة ممكنة لمعالجة الشرور من حوله، ولمعرفة شرعية حياته، وهي تتلخص في ما قاله يوحنا المعمدان عندما سألوه: ماذا نفعل، وهو القول الذي أكده المسيح: لا تمتلك ثوبين، ولا تمتلك المال؛ أي لا تستعن بجهود الآخرين، ولكي تتمكّن من فعل هذا، عليك أن تفعل كلّ شيء بنفسك.

هكذا بكلّ بساطة ووضوح، لكن هذه البساطة وهذا الوضوح لا يتوافران إلا عندما تكون المتطلبات بسيطة، ويكون الشخص متمتعاً بالحيوية، ولم يفسده الكسل والخمول. أعيش في القرية، وأستلقي بجانب المدفأة، وآمُرُ جاري المديون بأن يقطع الحطب، ويشعل المدفأة. واضح جداً أنني أتكاسل، وأشغل جاري عن عمله، وسأشعرُ بالخزي وبالملل أيضاً من استلقائي من دون عمل. وإذا كانت عضلاتي قوية، وكنت معتاداً على العمل، فسوف أقوم بتقطيع الحطب بنفسي.

لكنّ العبودية بكلّ أشكالها وُجدت منذ زمن بعيد، وتولّد، بناءً عليها، الكثير من المتطلبات المصطنعة، التي يشترك الكثير من الناس، في مستويات مختلفة، في أنهم اعتادوا عليها. وهكذا تسببت الأجيال القديمة في إفساد الناس وعوّدتهم على الدلال، من خلال هذه الغوايات المعقدة والحجج في صوابية الرفاه والكسل الذي يعيشون فيه، وأقنعتهم بأنه ليس من السهل على الشخص، الذي يتصدر قمة الهرم في قائمة الكسالى، أن يشعر بالخزي أكثر من ذلك الفلاح الذي يجبر جاره على تقطيع الخشب.

يصعب على من هم في قمة هذا الهرم أن يفهموا ما الذي عليهم أن يفعلوه. عندما يجب عليهم أن يهبطوا إلى الأسفل يجدون أنّهم مُثقلون بكمّ هائل من الوهم في تلك القمة التي يتربعون عليها، ولذا إن هذه الحقيقيةَ البسيطة والواضحة تبدو لهم غريبة جداً.

يبدو الأمر -لا شك- غريباً ومضحكاً لمن لديه عشرات الخدم والطباخين والحوذيين، وعشرات اللوحات والآلات الموسيقية. هذه أبسط وأوّل ردة فعل طبيعية، لا أقول إيجابية، بالنسبة إلى الإنسان وليس الحيوان؛ أن يقطع بنفسه الحطب الذي يشعل به مدفأته ويطبخ به، وأن ينظف حذاءه أو نعله الذي لوثه دون أن يحرص على إبقائه نظيفاً، وأن يجلب الماء الذي يستخدمه لنظافته الشخصية، أو أن يصرّف بنفسه الماء الملوث الذي استحمّ فيه.

بالإضافة إلى بُعدِهم عن الحقيقة، هناك سببٌ آخر يمنع الناس من رؤية واجبهم، الذي يتمثل في خدمتهم لأنفسهم، وهو أكثر بساطة وقرباً من طبيعتهم وفطرتهم، هذا السبب هو حالة التعقيد وتداخل الظروف والمصالح المتصلة بعضها مع بعض التي يعيش فيها الغني.

صحيح أنّ مصالحهم متشابكة، لكن، من دون عناء كبير، ضمير كلّ واحد منهم سوف يميّز بين النشاط والكسل. ليس الضمير هو الذي يميّز بين العمل والكسل فحسب، بل السجل المالي كذلك. من يسرف في صرف المال سيعتمد، بكل تأكيد، على الآخرين لإنجاز أعماله، وكلّما قلّل من صرفه اعتمد على نفسه أكثر.

إن ترفي سببٌ لإعالة أسرٍ كثيرة. أين سيذهب خادمي إذا سرحته؟ إذا كنا سنقوم بكلّ واجباتنا بأنفسنا: نلبس ونقطع الحطب، فماذا عن توزيع العمل، والصناعة، والمؤسسات الاجتماعية، وأخيراً، أكثر الكلمات فظاعة: الحضارة والعلم والفن؟

العمى الأخلاقي

عدتُ متأخراً في أحد أيام شهر آذار/مارس من السنة الماضية. رأيت، وأنا أنعطف من زوبوف إلى زقاق خاموفينشسكي، في منطقة ديفيتشي، أربع بقع سوداء على الثلج تبدو من بعيد. كان هناك شيء ما يتحرّك. لم أنتبه إليه في البداية، لولا أنّ الشرطي الذي كان واقفاً في مدخل الزقاق صرخ وهو يشير إلى البقع السوداء:

- فاسيلي، ألا تذهب؟

- لا. إنه ليس قادماً نحونا. سُمع هذا الصوت، وتحرّكت البقع نحو الشرطي.

توقّفتُ وسألت الشرطي:

- ما هذا؟

أجاب الشرطي:

- أخذوا فتياتٍ من مبنى رجانوف، ووضعوهنّ في المحطة، لكنّ واحدة منهنّ بقيت، ولا تريد الذهاب.

نقلها الحارس الذي يرتدي معطفاً من جلد الغنم. مشت هي في الأمام، بينما كان هو يدفعها من الخلف. كنّا جميعاً، أنا والحارس والشرطي، نرتدي ملابس شتوية، أما هي فكانت ترتدي فستاناً فقط. لم أستطع أن أميّز في العتمة سوى فستانٍ بنيٍّ وشالٍ على رأسها ورقبتها. كانت قصيرة القامة، تشبه أولئك المتقزمين؛ أرجلها قصيرة، وقوامها عريض غير متناسق.

صاح بها الشرطي:

- من أجلك نقف هنا أيتها العاهرة. اذهبي.

كان واضحاً أنه متعب جداً، وقد سئم منها. مشتْ عدة خطوات ثمّ توقفتْ. أمسكها الحارس العجوز الطيّب (كنت أعرفه) من يدها.

- سأساعدكِ على النهوض. تحركي. تظاهرَ بأنه غاضب.

مشت وهي تتمايل، وتحدثت بصوت حادّ. كان في كلّ كلمة تقولها نغمةً مختلفة مترافقة مع نشيج وبحّة.

- وصلتُ. قال لها الحارس:

- ستتجمدين من البرد.

- لا، فتاة مثلي لن تتجمَد من البرد. أنا متوقَدة.

أرادت أن تمزح، لكنّها أطلقت كلماتها كأنّها شتائم. توقفت بالقرب من القنديل الذي يضيء مدخل بيتنا، واستندت إلى السياج، وبدأت تنبش في تنورتها بحثاً عن شيء ما بيديها المرتجفتين المتجمدتين. صرخوا بها من جديد، لكنها كانت تتمتم وتفعل شيئاً ما. كانت تمسك بإحدى يديها سيجارة معقوفة، وبالأخرى أعواد ثقاب. توقفتُ في الخلف: كنت أخجل من المرور بجانبها، وأن أقف وأنظر إليها. قررتُ أخيراً أن أقترب منها، كانت تستند بكتفها إلى السياج، وراحت تحاول إشعال عود ثقاب. تفحصتُ وجهها. كانت متقزّمة. بدا لي أنّها امرأة في الثلاثين من عمرها. بشرتها قذرة، وعيناها صغيرتان ثملتان، وأنفها أفطس، وشفتاها منتفختان متدليتان في الجانبين، وبانت خصلة من شعرها الجاف من تحت الوشاح. خصرها عالٍ ومسطح، وذراعاها وساقاها طويلتان. توقفت قبالتها. نظرتْ نحوي وضحكت كما لو أنّها كانت تعرف ما فكرتُ فيه. شعرتُ بأنني يجب أن أقول لها شيئاً ما. أردتُ أن أظهر لها شفقتي عليها. سألتها:

- هل لديك أهل؟

ضحكت بصوت أجشّ، ثم توقفت، ورفعت حاجبيها، وراحت تنظر إليّ. سألتُها مجدداً:

- أين أهلك؟

ابتسمتْ، وكانت تعابير وجهها توحي بأنّها تقول: لعلّه وجد السؤال المناسب! قالت:

- لديّ أم. ماذا عنك؟

- كم عمرك؟

- ستة عشر عاماً.

أجابتْ عن هذا السؤال لأنها عدَّته سؤالاً طبيعياً. هنا قال لها الشرطي:

- هيّا تقدمي. أنت تتجمدين.

تركتِ السياج، ونزلتْ إلى زقاق خاميفنيشسكي إلى القسم، بينما أنا عدت إلى البيت، وسألت عن بناتي، فأخبروني أنهنّ عدنَ من الأمسية التي قضينَ فيها وقتاً ممتعاً، وهنّ الآن نائمات.

أردت الذهاب، في صباح اليوم التالي، إلى القسم لأعرف ما الذي فعلوه مع هذه المسكينة، ونويت الخروج مبكراً لهذا الغرض، لكن زارني أحد أولئك الحراس التعساء الذين فقدوا حياتهم الرغيدة، وتبدّلت أحوالهم: فتتحسن أحياناً، وتسوء أحياناً أخرى. كنت أعرفه قبل ثلاث سنوات. خلال هذه السنوات الثلاث، باع هذا الرجل كلّ ما يملكه، حتى ملابسه، وبعد أن حدث له ما حدث أصبح يبيت في مبنى رجانوف، في الشقة الليلية، ويزورني في النهار. قابلني عند المدخل، ولم يُنصت إلي، وبدأ يحدّثني مباشرةً عمّا حدث معه في تلك الليلة في مبنى رجانوف. لم يكمل حديثه حتى بدأ يتنهّد ويبكي، كان عجوزاً. توقف بعد ذلك، واستدار إلى الجدار. ما حكاه لي كان

يمثّل الحقيقة كاملة. راجعت كلّ ما قاله، وعرفتُ بعض التفاصيل الجديدة التي سأشير إليها.

كانت تبيت في ذلك الملجأ، الذي كان يبيت فيه صديقي، في الدور السفلي، في الغرفة رقم 32، مع الكثير من النزلاء الليليين، من الرجال والنساء بعضهم مع بعضهم، مقابل خمسة كوبيكات، امرأةٌ شقراء هادئة وحسنة المظهر، عمرها ثلاثون عاماً، تعمل في غسل الملابس، لكنّها كانت مريضة. كانت صاحبة المسكن عشيقة أحد البحّارين. في الصيف يستخدم عشيقها قارباً، وفي الشتاء يعيشون من تأجير شقّتهم للنزلاء: ثلاثة كوبيكات من دون وسادة وأغطية، وخمسة كوبيكات مع أغطية ووسادة. عاشت عاملة الغسيل هذه هناك لعدة أشهر، وكانت هادئة، لكنّها أصبحت في الأيام الأخيرة تزعج النزلاء؛ لأنّها تسعل طوال الليل، وتمنعهم من النوم، ولاسيما تلك العجوز الثمانينية، نصف المجنونة، التي عاشت بشكل دائم في تلك الشقة، وكرهت عاملة الغسيل؛ لأنها كانت تثغو مثل الخروف. صمتت عاملة الغسيل؛ حيث كانت مدينة لصاحبة الشقة، وشعرت بالذنب، ولذلك كان عليها أن تكون هادئة. أصبحت أقلّ قدرة على الذهاب إلى العمل؛ حيث خارت قواها، وهذا ما منعها من دفع الأجرة لصاحبة الشقة. لم تذهب طوال الأسبوع الماضي إلى العمل، وأفسدت حياة الجميع، ولاسيما العجوز. أنذرتها صاحبة الشقة بالطرد، قبل أربعة أيام؛ حيث أصبح عليها دين قيمته ستون جريفناً لم تدفعها، ولم يكن هناك أمل بأنها ستدفعها، وكانت الأسرّة كلها مشغولة.

عندما أنذرت صاحبة الشقة عاملة الغسيل، وأكدت أنها ستطردها إذا لم تدفع النقود، شعرت العجوز حينها بالسعادة، ودفعت عاملة الغسيل نحو الفناء. ذهبت عاملة الغسيل، لكنها عادت بعد ساعة، ولم تستطع صاحبة الشقة أن تطردها من جديد.

مرّ يوم ثم يومان، ولم تطردها صاحبة المنزل. تساءلت عاملة الغسيل: «إلى أين سأذهب؟». جاء عاشق صاحبة الشقة في اليوم الثالث، وهو رجل من موسكو يعرف القواعد والأصول، وذهب إلى الشرطي. حضر الشرطي إلى الشقة وهو يحمل سيفاً ومسدساً، ويضع شريطاً أحمر، وأخرج عاملة الغسيل نحو الشارع، وهو يتحدّث معها بلباقة.

كان يوماً ربيعياً دافئاً مشمساً في شهر آذار/مارس؛ حيث جرت الجداول، وقام الحرّاس بتكسير الجليد. تزلجت العربات فوق الثلج، وأحدث صوتها أزيزاً على الأحجار. مشت عاملة الغسيل نحو التلة في جهة الشمس، ووصلت إلى الكنيسة، وجلست في جهة الشمس أيضاً، في رواق الكنيسة. لكن عندما اختفت الشمس خلف المبنى، تشكّلت البرك الجليدية، ما أشعر عاملة الغسيل بالبرد الشديد. وقفت على قدميها، ومشت... إلى أين؟ إلى ذلك البيت الوحيد، الذي عاشت فيه في الفترة الأخيرة. خيّم الظلام عندما وصلت. اقتربت من المداخل، انزلقت وصرخت وسقطت.

تقدّم نحوها شخص ما، ثم تقدّم آخر: «إنها مخمورة». اقترب ثالث وقال للحارس: «ما هذه المرأة المخمورة هنا؟ لماذا لا تنقلونها من هنا؟».

اقترب الحارس منها، وصاح: «إنها ميتة».

هذا ما رواه لي صديقي.

قد يبدو أنني استجمعت الحقائق في قصة العاهرة ذات الخمسة عشر عاماً، وقصة عاملة الغسيل هذه. على أيّ حال، هذه هي حقيقة ما حدث في تلك الليلة، ولا أذكر في أيّ يوم بالضبط من شهر آذار/مارس عام 1884.

ذهبت إلى قسم الشرطة، بعد سماعي القصة التي رواها صديقي، لكي أذهب من هناك إلى ملجأ رجانوف، وأعرف تفاصيل أكثر عن عاملة الغسيل. كان الطقس جميلاً مشمساً، ومن جديد ظهرت المياه الجارية من خلال النجوم الساطعة على الجليد، وفي مقابل أشعة الشمس، في ساحة خاموفنيشسكي،

ذاب الثلج، وبدأت المياه بالجريان. أحدث هدير الجدول صوتاً قوياً. أشجار بستان نيسكوشني تلوّنت بالأزرق، والعصافير التي ألوانها ضاربة إلى الحمرة، والتي لم تلحظ الشتاء، نظرت إلى بعضها بفرح وسرور. الناس بدورهم أرادوا أن يستمتعوا ويفرحوا، لكن كان عند كلٍ منهم الكثير من الأشغال. كانت أصوات قرع الأجراس مسموعة، وفي خلفيتها سُمع إطلاق رصاص قادم من الثكنات، وتصويب نحو الهدف.

دخلت إلى القسم. كان هناك عدد من الشرطة المسلحين الذين نقلوني إلى رئيسهم الذي كان يحمل بدوره سيفاً ومسدساً، وكان مشغولاً بإصدار أمرٍ بحقّ عجوز كان يرتدي ثياباً رثة، ويرتجف، ولشدة ضعفه، لم يستطع الإجابة عن الأسئلة المطروحة عليه بوضوح. بعد أن انتهى من أمر العجوز، التفت نحوي. سألته عن تلك المرأة. استمع إلي في البداية باهتمام، لكنّه ابتسم بعد ذلك، حين اكتشف أنّني لا أعرف الأنظمة، وسبب جلبهم لها ولغيرها إلى القسم، ولأنني دُهشت بشكل خاص من أنّها في مقتبل العمر. قال بمرح:

- المعذرة، هناك من هم في عمر 12 و 13 و 14.

عندما سألته عن المرأة، شرح لي أنّها، على الأغلب، أُرسِلت إلى اللجنة (هكذا فهمت منه). سألته أيضاً عن مكان مبيتهم، فقال إنّ مثل هؤلاء يأتون بأعداد كبيرة كلّ يوم، ولا يتذكّر. كان هناك في ملجأ رجانوف، في الغرفة رقم 32، قراءة لامرأة متوفاة. نقلوها إلى سريرها القديم، وجمع النزلاء الفقراء بعض النقود لشراء الكفن والنعش، وقام العجزة بتحضير جنازتها. جرت القراءة في العتمة، ووقفت امرأة ترتدي لابوساً (رداء نسائي خارجي طويل)، وتحمل فانوساً كبيراً، ووقف رجل (يجب أن نقول إنّه سيّد) يرتدي معطفاً له ياقة من الفرو، وحذاءً لامعاً. كان أخاها. وجدوه أخيراً.

مررت بجانب المتوفَاة نحو صاحبة المسكن، وسألتها عن كلّ شيء.

شعرت بالذعر من أسئلتي: كان خوفها واضحاً من اتهامها بشيء ما، لكنها تحدّثت في ما بعد عن كلّ شيء. عندما عدت إلى الخلف، ألقيت نظرة على المتوفّاة. كلّ الموتى طيبون، لكنها لفتت نظري بشكل خاص. وجهها أصفر، وعيناها جاحظتان مغمضتان، وخداها غائران، وشعرها أشقر ناعم فوق جبينها المرتفع؛ بدت على وجهها علامات التعب والطيبة والحزن، والدهشة أيضاً.

في الحقيقة، قد لا يلاحظ الأحياء هذا، لكن الموتى يندهشون.

أقيم حفل كبير في ذلك اليوم، الذي كتبتُ فيه عن كلّ هذه التفاصيل. خرجت من البيت في تلك الليلة عند الساعة التاسعة. أعيش في منطقة محاطة بالمصانع، لذلك خرجت بعد صافرة انتهاء عمل المصانع؛ حيث أعطوا العمال يوم راحة بعد أسبوع من العمل المتواصل.

سار أمامي وخلفي الكثير من عمال المصانع المتوجّهين نحو الحانات والمقاهي. كان الكثيرون منهم مخمورين، ويسيرون برفقة نساء.

أعيش وسط المصانع. أسمع في كلّ صباح، عند الساعة الخامسة، صافرة، ثمّ الثانية، والثالثة، والعاشرة... هذا يعني أنّ عمل النساء والأطفال والشيوخ قد بدأ. في الثامنة صافرة أخرى، فهذا وقت استراحة لمدة نصف ساعة؛ وفي الثانية عشرة ظهراً صافرة ثالثة تعلن وقت الغداء الذي يستمرّ لمدة ساعة، والصافرة الرابعة في الثامنة وتعني نهاية العمل.

من قبيل المصادفة الغريبة، وباستثناء مصنع البيرة القريب مني، كلّ المصانع الثلاثة القريبة من بيتي تنتج المنتجات اللازمة للحفلات فحسب. أحدها لا ينتج سوى الكلسات، والآخر ينتج الأقمشة الحريرية، أمّا الثالث فينتج العطور وأحمر الشفاه.

لا يمكنك أن تتخيّل هذه الصافرات دون تخيل أنّها تحدّد الوقت: «أُطلقت الصافرة، إذاً حان وقت الاستراحة»، ولكن يمكن أن تتخيل أيضاً ما يحدث في الواقع بعد سماع هذه الصافرات؛ فالصافرة الأولى، في الخامسة صباحاً تعني أن الرجال والنساء، الذين يبيتون في قبو رطب، غالباً بعضهم بجانب بعض، ينهضون في العتمة، ويسرعون إلى مكان العمل الصاخب، ويتوزعون إلى عملهم الذي لا يرون فيه أيّ فائدة، ولا يعرفون له نهاية، لكنّهم يعملون، غالباً في الحرّ الشديد، وهم مختنقون بسبب الازدحام الشديد، ووسط القذارة، ويأخذون استراحات قصيرة، ويعملون لمدة ساعة، ثمّ ساعتين، ثم 12 ساعة وهكذا. ينامون، ثم ينهضون، وهكذا يستمرون في عملهم غير النافع لهم، الذي أجبرتهم الفاقة عليه.

وهكذا يمر الأسبوع تلو الآخر، حتى تأتي عطلة العيد، لأرى هؤلاء العمال، وهم يحتفلون، ويخرجون إلى الشارع الذي تنتشر فيه الحانات والمقاهي الفاخرة، والفتيات. يتجوّلون، وهم سكارى، برفقة فتيات مثل تلك التي رأيتها في القسم، ويحجزون العربات، وينتقلون من حانة إلى أخرى، ويتبادلون الشتائم، ويتسكعون، ويقولون كلاماً هم أنفسهم لا يفهمونه.

رأيت قبل ذلك مثل هؤلاء المتسكعين من عمال المصانع. تجاهلتهم، وكدت أوبّخهم، ولكن منذ أن بدأت أسمع هذه الصافرات كلّ يوم، وعرفت معناها، ما أثار استغرابي شيءٌ واحد فحسب، هو لماذا لا يتحوّل كلّ هؤلاء إلى متسولين مثل أولئك الذين يملؤون موسكو؟ وما السبب الذي يمنع كلّ الفتيات من أن يصبحنَ مثل تلك المرأة التي قابلتها عند بيتي؟

تجولت هناك، وراقبت هؤلاء العمال، عندما كانوا يجوبون الشوارع حتى الساعة الحادية عشرة، ثمّ هدأت حركتهم، وبقي بعض السكارى هنا وهناك، بينما نُقل رجال ونساء آخرون إلى أقسام الشرطة.

رأيت عربات قادمة من كلّ الجهات تسير نحو وجهة واحدة. الحوذي على الحمير يرتدي أحياناً معطفاً من جلد الغنم، والخادمُ الأنيق يزيّن قبعته بشارة جميلة، وجياد الخاب المغذّاة جيداً تركض في الصقيع بسرعة عشرين فرستاً[1] في الساعة، والنساء في العربة متدثّرات بالشالات، وكلهنّ حرصّ على ألا يفسدن الزهور التي يحملنَها وتسريحاتهنّ.

كلّ هذه الأشياء التي تضم سروج الخيل، والعربات، والعجلات المطاطية، وقماش القفطان الذي يرتديه الحوذي، والكلسات، والأحذية، والزهور، والمخمل، والقفازات، والعطور، صَنَعَ هؤلاء المخمورون جزءاً منها على أسرّتهم ذات الطابقين، وبعضهم ناموا على أسرّتهم الخاصة في غرفهم، وبعضهم في ملاجيء ليلية مع عاهرات، وآخرون في مراكز الشرطة.

يشعر هؤلاء براحة الضمير وبثقة تامة بأنّهم لا يفعلون شيئاً معيباً، ويستمتعون بوقتهم، ويواصلون احتفالهم من الساعة الحادية عشرة حتى السادسة صباحاً، وفي الوقت نفسه، في هذه الليلة الظلماء، هناك من ينامون في الملاجئ وبطونهم فارغة، وبعضهم يموتون مثل عاملة الغسيل.

استمتاعهم يكمن في كشف الفتيات والنساء عن صدورهنّ ووضعهنّ مؤخراتٍ صناعية مثيرة، فيصبحنَ بتلك الهيئة التي لا ترضاها لنفسها أيّ فتاة أو امرأة محترمة، لا تريد، بأي حال من الأحوال، أن تعرض جسدها بهذه الصورة الفاضحة أمام الرجال الغريبين عنها. إنّ أول فضيلة للمرأة هي حياؤها من الظهور نصف عارية، وذراعاها مكشوفتان حتى الكتفين، وصدرها عارٍ، وفستانها ضيّق عند الوركين، في وضح النهار، أمام الرجال الذين يرتدون

1 بالروسية: (верста ،versta) هي وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. يتم تعريفها باعتبارها تساوي 500 قامة (بالروسية: сажень) حيث تساوي القامة (2,13 م)، مما يجعل الفرستا تساوي 1.0668 كيلومتر (0.6629 ميل؛ 3,500 قدم).

بدورهم ملابس ضيّقة، ويرقصون على أنغام الموسيقا المثيرة، ويتعانقون ويترنحون.

النساء الأكبر سناً كنَّ عاريات أيضاً، مثل الفتيات، حيث يجلسنَ، ويستمتعنَ بالمشاهدة، ويشربنَ ما يحلو لهنَّ؛ وهذا هو حال الرجال المسنين أيضاً. ليس مستغرباً أن يحدث كلّ هذا في الليل، حتى لا يراهم أحد، لكنهم لا يفعلون هذا من أجل التستر على ما يفعلونه، فلا شيء يستحقّ الإخفاء كما يعتقدون، بل إنهم يرون أنهم، باحتفالهم الذي يقضمون به العمل المضني لألف شخص، ليس لا يسببون أذىً لأحد فحسب، بل إنّهم يعتقدون أيضاً بأنهم يوفّرون لقمة عيش الفقراء.

لعلهم يشعرون بالمتعة والفرح في مثل هذه الحفلات، ولكن كيف يحدث هذا؟ لا أحد منّا يستطيع أن يحتفل ويفرح دون وجع ضمير: لأن هناك شخصاً يعيش معنا في المجتمع يشعر بالجوع أو بالبرد، قبل أن يأكل ويشعر بالدفء. بالإضافة إلى ذلك، لا نتخيّل وجود مثل أولئك الأشخاص الذين يسبّبون، باحتفالهم وفرحهم، الآلام للآخرين. نرفض سلوك الأولاد غير المفهوم عندما يقرصون ذيل الكلب بأداة حادة ويهربون وهم يضحكون.

هل أُصِبنا بالعمى، ولم نشاهد، ونحن نحتفل، تلك الأداة التي نقرص بها هؤلاء الناس الذين يعانون من أجل سعادتنا؟ هل وجدت كلّ امرأة شاركت في هذا الحفل نفسها، وهي ترتدي فستاناً ثمنه مئة وخمسون روبلاً، في هذا الحفل منذ ولادتها؟ ألم تنشأ في قرية، وتعرف أوضاع الفلاحين، وتعرف مربيتها وخادمتها التي لديها أب وإخوة فقراء يقضون حياتهم كلّها بهدف تأمين مئة وخمسين روبلاً ثمناً لكوخ يبنونه؛ هي تعرف كلّ هذا. إذاً، كيف تستطيع أن تفرح، وقد عرفت أنّها قد صرفت على جسدها العاري في هذا الحفل ثمن الكوخ الذي يحلم به شقيق خادمتها؟ لنفترض أنّه لم يخطر في بالها مثل هذا السؤال، ألم تسأل نفسها عن أقمشة الحرير والمخمل والدانتيل

والحلوى والزهور والفساتين، أَصُنعت من تلقاء نفسها، أم أنّ هناك أشخاصاً عانوا من ظروف صعبة للغاية وهم يصنعونها؟ وما غايتهم من صنعها؟ ربما لم تسأل نفسها هذا السؤال، لكنها لا بد من أن تعلم أنّ الخيّاطة، التي وبختها، لم تحِك لها الفستان بدافع محبّتها لها، بل بسبب حاجتها إلى المال، وهذا ينطبق على كلّ الأشياء الأخرى من الأقمشة المخملية والدانتيل والزهور.

لنفترض أنّ بصرها قد أُعمي عن كلّ هذا، لكنها لا يمكن أن تتغافل عن الحقيقة، وهي أنّ خمسةً أو ستةً من المسنّين الأجلّاء، وغالباً هم من الخدم الذين يعانون من الأمراض، لم يناموا وهم منشغلون بخدمتها. رأت وجوههم المتعبة والمتألمة. ألم تعرف أيضاً أن درجة الصقيع قد وصلت في هذه الليلة إلى 28 درجة تحت الصفر، وأنّ الحوذي العجوز ينتظرها في الصقيع طوال الليل في العربة. أعلم أنها وغيرها لا يرون كلّ هذا. إذا كانت الفتيات والنساء في مقتبل العمر يفعلنَ هذا بفعل تأثير الحفل الذي يخدّر عقولهنّ، ولا يرين هذا، ويرين أنّ ما يقمنَ به مقبولٌ طالما أنّ الكبار يؤيدونه، فماذا عن الكبار، كيف يبررون قسوتهم هذه على الآخرين؟ يشرح الكبار وجهة نظرهم كما يأتي: «أنا لا أجبر أحداً. أنا أشتري ما أريده، وأستقدم الخدم والحوذيين. أشتري وأستأجر، ولا أرى عيباً في هذا. أنا لا أجبر أحداً على أن يعمل عندي. أين العيب هنا؟».

زرتُ قبل أيام أحد معارفي. تفاجأت، عندما عبرت أمام الغرفة الأولى، بوجود امرأتين خلف الطاولة؛ لأن الرجل الذي زرته كان عازباً؛ إحداهما وجهها أصفر، نحيلة وحسنة المظهر، وتضع شالاً على كتفيها، في عمر الثلاثين تقريباً، كانت تقوم بشيء ما بأصابعها ويديها بسرعة، وهي ترتجف بنزق، وكأنّها في حالة من الارتباك التام. جلست قبالتها فتاة، وكانت تفعل الشيء ذاته وترتجف. بدا لي أنّهما كلتيهما مصابتان بداء الرُّقاص[1]. اقتربتُ لأرى

1 الرُّقاص هو اضطراب حركي غير طبيعي لا إرادي، وهو أحد الاضطرابات العصبية التي تسمى خلل الحركة.

ما الذي تفعلانه، فنظرتا إليّ، ثم تابعتا التركيز في عملهما. كان هناك الكثير من التبغ واللفافات المبعثرة. كانتا تصنعان السجائر. كانت المرأة تفرك التبغ بكفيها، وتضعه في آلة، وتضعه في لفافات وتسلمها للفتاة الأخرى. تطوي الفتاة الأخرى بدورها الأوراق، وتضعها على السجائر، ثمّ ترميها. كانتا تقومان بكلّ هذا بسرعةٍ وإتقانٍ إلى درجة لا يمكن وصفها. عبّرت لهما عن دهشتي من أدائهما السريع. قالت المرأة:

- أقوم بالعمل ذاته منذ أربعة عشر عاماً.

- وهل هو صعب؟

- نعم. إنّه يسبب ضرراً في الصدر، وصعوبة في التنفس.

لم تكن هناك حاجة إلى سماع كلامها، فنظرة واحدة إليها وإلى الفتاة تفصح عن كلّ شيء. الفتاة تعمل هناك منذ ثلاث سنوات، ولكن سيقول كلّ من يراها إن كيانها القوي آيل إلى الدمار. كان ذلك الرجل من معارفي طيباً ومتسامحاً، استقدم هاتين الامرأتين للعمل عنده في صنع السجائر مقابل روبلين وخمسين كوبيكاً لكلّ ألف سيجارة. لديه المال، وهو يعطيهما أجرة مقابل عملهما. ما العيب هنا؟ يستيقظ في الثانية عشرة، ويقضي فترة المساء من السادسة حتى الثانية في اللعب بالورق، أو العزف على البيانو، ويتناول ألذّ وأشهى المأكولات. يوكل كلّ أعماله إلى آخرين. ابتكر لنفسه متعة جديدة هي التدخين. أتذكّر عندما بدأ التدخين.

هناك امرأة وفتاة تكادان تستطيعان أن تؤمّنا لقمة عيشهما، وقد تحوّلتا إلى آلتين، وتقضيان كلّ حياتهما وهما تستنشقان التبغ؛ أي تدمران حياتهما. هو لديه المال الذي لم يكسبه من عمل يده، وهو يفضل اللعب بالورق على أن يصنع لنفسه السجائر. يعطي هاتين الامرأتين المال ضمن شرط واحد فحسب؛ أن يستمر البؤس الذي يخيّم على حياتهما؛ أي أن تستمرا في صنع السجائر له.

أنا أحب النظافة، وأعطي المال وفق شرط واحد أيضاً؛ أن تغسل لي العاملة ذلك القميص الذي أغيّره مرتين في اليوم، وقد أضنى القميصُ قوى العاملة وأتعبها، فماتت.

ما العيب في هذا؟ يشتري الناس الأقمشة المخملية والحلوى، ويستقدمون العمال الذين يصنعون لهم السجائر، ويغسلون لهم قمصانهم، سواء فعلت أنا مثلهم أم لم أفعل؛ إذاً، لماذا أحرم نفسي من المخمل والحلوى والسجائر والقمصان النظيفة، إذا كان الجميع يتمتعون بها؟ كثيراً ما سمعت مثل هذا الطرح.

هذا هو الطرح ذاته الذي تستخدمه الجموع الحمقاء التي تتوق إلى الدمار. هذا هو المنطق ذاته الذي تلجأ إليه الكلاب عندما ينقضّ أحدها على آخر، فتأتي الكلاب الأخرى وتشارك في الهجوم عليه، وتمزّق أشلاءه. لقد بدأ غيري بالأذى، فلماذا لا أفعل مثله؟ لكن ما الدلالة التي يحملها ارتدائي قميصاً متسخاً، وصنعي السجائر بنفسي؟ يطرح مثل هذا السؤال أولئك الذين يبرّرون لأنفسهم. لو لم نكن بعيدين جداً عن الحقيقة لكان من المخجل أن نجيب عن هذا السؤال، ولكن اختلطت علينا الأمور إلى درجة أنّ هذا السؤال يبدو لنا طبيعياً وأخلاقياً، ويجب أن نجيب عنه بكل الأحوال. ما الفرق إذا لبست قميصاً لأسبوع كامل وليس ليوم واحد، وأن أصنع سجائر لنفسي، أو أن لا أدخن أبداً. الفرق هو أن هناك عاملة غسيل أو صانع سجائر سيبذلون جهوداً أقل، وما أعطيته من أجل الغسيل أو صنع السجائر أستطيع أن أعطيه من دون عمل، أو أن أعطيه لأيّ فقير آخر. وأولئك العمال، الذين تعبوا من عملهم، لن يكون لديهم ما يعملونه، وسوف يستمتعون بتناول الشاي. كم هو مخجل للأغنياء والمترفين فهمُ حقيقةِ وضعهم؛ حيث يقولون: «إذا ارتديت ألبسة قذرة، وتوقفت عن التدخين، وأعطيت هذه النقود للفقراء، فإنّهم سيسحبونها منهم، وقطرتك هذه لن تساوي شيئاً في البحر الواسع».

الإجابة عن مثل هذا التساؤل مخجلة، ولكن يجب الإجابة عنه. هذا تعبير عادي، والإجابة عليه بسيطة. يقولون: إنّ عمل شخص واحد هو قطرة في بحر. هكذا ببساطة: قطرة في بحر.

هناك حكاية هندية عن رجل أسقط لؤلؤة في البحر، فأخذ دلواً، وبدأ يسحب به الماء نحو الشاطئ، لعلّه يعثر عليها. عمل من دون توقف، وفي اليوم السابع خافت روح البحر من أنّ الرجل سيجفّف البحر، وأحضرت له اللؤلؤة. إذا كان شرّنا الاجتماعي في اضطهاد الناس هو البحر، فإنّ اللؤلؤة التي أضعناها تستحقّ أن نبذل حياتنا من أجل أن ينضب بحر الشر هذا. سيخشى حاكم هذا العالم، وغالباً سيستسلم لروح البحر، لكنّ الشرّ الاجتماعي ليس بحراً، بل هو قذارة، وحفرة للصرف الصحي نقذف فيها كلّ قذاراتنا. يجب علينا أن نستيقظ، وندرك ما نقوم به، وأن نتوقف عن حبّ قذارتنا، لكي يجفّ هذا البحر الوهمي، ونمتلك لؤلؤة أخوّة الحياة الإنسانية التي لا تُقدر بثمن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رفاهيتنا ومعاناتهم

ماذا نفعل إذاً؟ إذا لم نتسبب نحن في كلّ هذا فمن الذي تسبب فيه؟

نحن نقول: لسنا السبب في هذا، بل يحدث هذا تلقائياً، تماماً كما يقول الأطفال عندما يكسرون شيئاً ما، إنّه كُسِر تلقائياً. ندّعي أنه طالما هناك مدن نعيش فيها، نحن نوفّر لقمة عيش للناس، عندما نشتري عملهم مقابل خدمات يقدمونها لنا، لكنّ هذا لا يمثل الحقيقة. لماذا؟ يكفي أن ننظر إلى طريقة عيشنا في الريف، وكيف نوفّر مصدر رزق للناس.

انتهى الشتاء في المدينة، واقترب عيد الفصح. تستمر في المدينة خلاعة الأغنياء ذاتها؛ في المنتزهات، والحدائق، والبساتين، وفي حفلات الموسيقا عند الأنهار، وفي المسارح، وفي أماكن التزلج، والرحلات، وفي كلّ وسائل الترفيه ووسائل العرض الممتعة. أمّا في الريف فالوضع أفضل؛ حيث الهواء النقي، والأشجار، والمروج، والأزهار الغضّة. يجب الذهاب إلى هناك حيث كلّ شيء مزهر ومضيء. يذهب أغلبية الأغنياء، الذين يستعينون بالعمال لأداء أعمالهم، إلى الأرياف لكي يستمتعوا باستنشاق الهواء النقي، ويشاهدوا هذه المروج والبساتين البديعة. يستقرّ هؤلاء الأغنياء وسط البسطاء في الريف، الذين يأكلون الخبز مع البصل، ويعملون ثماني عشرة ساعة متواصلة في اليوم، ولا ينعمون بساعات كافية من النوم، بين الفلاحين الذين يرتدون أسمالاً بالية. هنا لن يغري أحدّ هؤلاء الناس؛ حيث لا مصانع أو معامل، ولا وجود للعاهرات المنتشرات بكثرة في شوارع المدينة، ولا وجود للمشردين، الذين كنّا سنطعمهم، إذا وفرنا لهم عملاً. هنا لا أحد ينجح في أداء كلّ أعماله

طوال الصيف، ولا يقف الأمر عند عدم وجود عاطلين، بل إنّ الكثير من الأعمال لا تُنجز بسبب نقص العمال، وهناك عدد كبير من الشيوخ والنساء اللاتي لديهنَ أطفال يبذلون جهوداً صعبة في هذا العمل الذي يفوق طاقتهم. كيف يستطيع الأغنياء العيش هنا؟

إذا وُجد بيت قديم كان قد بُني في فترة الأقنان، فإنّهم يجرون عليه تعديلات ويزيّنونه، وإذا لم يجدوا بيتاً مثل هذا، فإنّهم يبنون بيتاً جديداً من دورين أو ثلاثة أدوار. يبلغ ارتفاع الغرف، التي يتراوح عددها بين 12 و20 غرفة، نحو ستة أرشينات.

يفرشون الأرضيات بالباركيه، ويضعون ألواحاً زجاجية في النوافذ، والسجاد والأثاث الفاخر. توضع بالقرب من البيت أحجارٌ تُسوّى جيداً، وتُوضع عليها أزهار، وتُجهّز أرضية للعبة الكروكيت، ولعبة الخطوات العملاقة، وأوانٍ فيها شتلات زراعية، ودفيئات، واسطبلات عالية. كلّ هذه الأماكن مطلية بالزيت الذي يفتقده الأطفال والمسنون لتحضير الحساء. إذا امتلك الغنيّ ثمن مثل هذا المنزل فإنّه يشتريه، وإذا لم يمتلك فإنّه يستأجره. ومهما كان الشخص من طبقتنا فقيراً أو ليبرالياً، عندما يعيش في الريف من المؤكد أنه سيسكن في مثل هذا البيت، الذي يستعين إن لم يكن بعشرة أشخاص فعلى الأقل باثنين أو ثلاثة للمحافظة على نظافته، وهؤلاء، في الأغلب، من أولئك الذين ليس لديهم وقت لتحضير خبزهم الذي يأكلونه.

لا يمكن القول هنا إن المصانع موجودة، ولن يتغيّر شيء إذا استقدمتَ هؤلاء العمال أو لا، ولا يمكن القول أيضاً إنني أوفر مصدر رزق للمشردين. هنا نحن ننتج ما تنتجه المصانع، وباستغلالنا لحاجة الآخرين، نَشغَلهم عن أعمالهم الضرورية لهم ولنا وللجميع، وبهذا نفسد حياة وصحة أشخاص آخرين.

قد تستقرّ في الريف عائلة متعلّمة أو من النبلاء أو عائلة موظف حكومي. يجتمع كلّ أفراد العائلة في منتصف حزيران/يونيو بعد أن ينتهوا من تقديم امتحاناتهم؛ أي في بداية الحصاد، ويبقون حتى أيلول/سبتمبر؛ أي حتى انتهاء الحصاد وقبل البذر. يعيش أفراد هذه العائلة (تماماً ككلّ أبناء هذه الطبقات) حتى موسم الزرع وقلع البطاطا، وحتى يخفّ ضغط هذه الأعمال.

يستمر عمل الفلاحين حولهم في الصيف في فترة بقائهم في الريف، ومهما سمعنا عن هذا العمل الشاق، أو قرأنا عنه، أو شاهدناه، لن نستطيع تصويره كما هو في الواقع إن لم نجرّبه. يعيش أفراد الأسرة، وعددهم وسطياً عشرة أشخاص، حياةً مماثلة لحياتهم في المدينة، بل قد تكون أسوأ؛ لأن وجودهم هنا ما هو إلا استراحة لأنّهم لا يفعلون أيّ شيء، وليس لديهم أيّ عمل، وأيّ عذر يبرّرون به كسلهم.

يبدأ الحصاد في فترة صوم الرسل[1]، عندما يكون طعام الناس مشروبَ الكفاس والخبزَ والبصل. يرى السادة، الذين يعيشون في الريف، هذا العمل، فيشرفون عليه من ناحية، ويستمتعون به من ناحية أخرى، ويسلّون أنفسهم برائحة التبن اليابس، وبسماعهم أغنيات النساء، واصطكاك المناجل، وبرؤية المذاري والنساء اللاتي يحصدنَ. يرون كلّ هذا بالقرب من بيتهم. وعندما يمرّ الأطفال، الذين لم يفعلوا أيّ شيء طوال اليوم، فهم غالبا ما يكونون ممتطين خيولاً جيدة التغذية، وهم ذاهبون للسباحة على بعد نصف فرست.

1 صوم الرسل، المسمّى أيضاً صوم الرسل القديسين، أو صوم بطرس وبولس، أو أحياناً صوم القديس بطرس، هو صوم تتبعه الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة الأرثوذكسية المشرقية والكنيسة الكاثوليكية الشرقية، والأرثوذكس الإصلاحيون. في التقليد البيزنطي، يبدأ الصوم يوم الاثنين الثاني بعد عيد العنصرة اليوم التالي لأحد جميع القديسين، بينما في التقاليد القبطية والسريانية القديمة، يبدأ الصوم في أول يوم اثنين بعد عيد العنصرة، ويستمر حتى عيد القديسين بطرس وبولس في 29 حزيران/يونيو.

ما يجري أثناء الحصاد واحدٌ من أهم الأعمال في العالم. في كلّ عام يبقى جزء من المزروعات بلا حصاد بسبب نقص الأيدي العاملة والوقت، وبسبب هذا النقص قد تبقى حتى بدء موسم الأمطار. وفي كلّ عام يتجدّد السؤال: أَمن الممكن أن تزيد ثروات الناس بنسبة عشرين في المئة أم أنها ستفسد وتتعفّن، وكلّما زاد المحصول انعكس هذا على الأطفال والمسنين الذين سيحصلون على كميات أكبر من الحليب واللحم. وهكذا، بصورة عامة، يقرّر كلّ من يحصد الكمية التي تكفيه من الحليب والخبز له ولأولاده طوال فصل الشتاء. يدرك هذا كلّ عامل وكلّ عاملة، حتى الأطفال يقدّرون أهمية عملهم، ويبذلون قصارى جهدهم فيه؛ حيث يحمل كلّ منهم إبريق الكفاس الثقيل، وينقله من يد إلى أخرى، وهو حافي القدمين، مسافة فرستين، لكي يوصله إلى أبيه قبل موعد الغداء، وقبل أن يغضبه. الكل يعرف أنّ الفترة من بداية الحصاد حتى نهايته هي فترة عمل متواصل، ولا وقت فيها للراحة. بالإضافة إلى الحصاد هناك الكثير من الأعمال التي يجب عليهم أن ينجزوها، مثل حراثة الأرض وتقليبها. أمّا النساء فينشغلنَ بصناعة الخيش والخبز والتنظيف، كما يتوجب على الرجال الذهاب إلى المطحنة، وإلى المدينة لإنجاز بعض المعاملات الحكومية، والانتقال من قاضٍ إلى آخر إلى القاضي العاشر، وعليهم أن يوفروا للموظفين الحكوميين وسائل التنقل، وإطعام الجياد في المراعي أثناء الليل، ويبذل الجميع، الأطفال والبالغون والمسنون، أقصى جهدهم. يعمل المزارعون بهذه الطريقة حتى يصل فيها المرضى والمراهقون والمسنّون إلى حالة إرهاق شديد في كلّ موسم حصاد، ويبقون في الصفوف الأخيرة بعد الاستراحات، ويترنحون من شدة تعبهم. وكذلك النساء، اللاتي غالباً ما يكنّ حوامل أو مرضعات. إنّه عمل مجهد ومتواصل. يبذل الجميع كلّ طاقتهم، ويصرفون على هذا العمل، بالإضافة إلى طعامهم المتواضع، كلّ المؤونة التي ادخروها في السابق، وتبدأ أجسامهم بالنحول بعد هذا العمل الشاق، وهم أساساً ضعفاء.

هناك مجموعة من ثلاثة أشخاص يعملون: الأول مسن، ومعه ابن أخيه، الشاب الصغير المتزوج، والثالث اسكافي نحيل. يحدد الحصاد بالنسبة إلى كلٍّ منهم وضعه في الشتاء، وإن كان سيتمكن من امتلاك بقرة ودفع الضرائب أو لا؟ يعملون هنا للأسبوع الثاني على التوالي من دون توقف. أخّرهم هطول المطر، ولكن بعد أن توقف، قرروا تكديس القش في أكوام؛ حيث تشترك امرأتان مع كلّ منهم لتلمان القش. انضمت إلى العجوز زوجته الخمسينية المنهكة من العمل، ومن حمل أحد عشر طفلاً. كانت صماء، لكنّها لاتزال قويّة وتستطيع العمل، وابنته في الثالثة عشرة من عمرها، قصيرة القامة، لكنها فتاة قوية وتتمتع بالحيوية. التحقت بابن أخيه زوجته، وهي امرأة قوية وطويلة، بنيتها القوية تشبه بنية الرجال، وأخت زوجته، وهي زوجة جندي. أمّا الاسكافي فجاءت لمساعدته زوجته، وهي عاملة قوية، وأمه، وهي عجوز ثمانينية تتسول عادةً. يعملون جنباً إلى جنب من الصباح حتى المساء تحت لهيب شمس حزيران/يونيو. تبرق السماء، وتهطل أمطار رعدية. كلّ لحظة عمل هي ثمينة. لا وقت لديهم حتى لجلب الماء أو الكفاس. الولد الصغير، حفيد العجوز، يسقيهم الماء. يبدو أن لا شيء يشغل العجوز سوى أنَها لن تُطرد من العمل، فهي لا تترك المِدكّة أبداً، وتتحرك بصعوبة بالغة. يحمل الولد المتعب، الذي يمشي خطوات قصيرة بقدميه الحافيتين، إبريقَ الماء الثقيل، وينقله من يد إلى أخرى، وهو لا يقوى على حمله. تحمل الفتاة على كتفيها كومة قش، وهي ثقيلة عليها أيضاً، تمشي بضع خطوات، ثمّ تتوقف وترميها؛ لأنها لا تستطيع أن تحملها مسافةً أكبر. تسحب المرأة الخمسينية القشّ من دون كلل، وتسحب شالها المتشقق على شعرها، وتجلب القش وهي تتنفس بصعوبة وتتمايل. أما العجوز الثمانينية والدة الاسكافي فهي تسحب القش أيضاً، لكن هذا العمل يفوق طاقتها، فهي تجرّ قدميها ببطء مرتدية حذاءً خفيفاً، ووجهها شاحب وعابس كما لو أنها تعاني من مرض

خطير، أو أنها ميتة. يدفعها العجوز عمداً بالقرب من الأكوام، وبعيداً عن الآخرين كي لا تنافسهم، لكنها تستمر في عملها بوجهها الشاحب، طالما أنَ الآخرين يعملون. ستغيب الشمس خلف الغابة، ولكن مازال هناك الكثير من القش الذي لم يُجمع. هناك عمل كثير ينتظرهم. يشعر كلٍّ منهم بأن وقت الانصراف من العمل قد حان، لكنه ينتظر الآخرين حتى يقولوا هذا. يشعر الاسكافي أخيراً بأنه لم يعد يقوى على العمل، ويقترح على العجوز أن يتركا الأكوام حتى اليوم التالي، فيوافق العجوز، وفي هذه اللحظة تركض النساء إلى الملابس والأباريق والمذاري والمِدكّات، وتجلس العجوز في مكان وقوفها، ثمّ تستلقي، بنظرتها الشاحبة، وهي تنظر أمامها. تذهب النساء، فتنهض وتلحق بهنّ وهي تئنّ وتتمايل.

لنعد إلى بيت النبلاء المقيمين في القرية. تصل إليه من جهة القرية، في ذلك المساء نفسه، أصوات جلجلة المناجل العائدة من الحصاد، وصوت المطرقة والسندان، وصيحات النساء والفتيات، اللاتي تركنَ المِدكّات للتو مسرعاتٍ وهنَّ يسقنَ الماشية أمامهن. أما في فناء البيت فهناك أصوات أخرى: أصوات عزف على البيانو، كما يمكن بصعوبة تمييز أغنية مجرية وسط ضجيج كرات الكوكيه المتصادمة. تقف عند الاسطبل عربة تجرّها أربعة خيول سمينة، ويقودها حوذي أنيق. حضر ضيوف ودفعوا عشرة روبلات مقابل نقلهم مسافة خمسة عشر فرستاً. تهزّ الخيول الواقفة أمام العربة أجراسها. راحت الخيول تدوس على التبن الذي وُضع أمام العربة، وهو التبن ذاته الذي يبذل الفلاحون جهوداً مضاعفة لجمعه. هناك حركة دؤوبة في فناء هذا البيت. فتى قوي البنية يرتدي قميصاً وردياً قُدّم له هديةً مقابل خدمته في الحراسة؛ حيث يستدعي الحوذيين، ويسرجون الخيول.

فلاحان آخران يعيشان هنا كحوذيّيْن، يدخلان ويخرجان إلى غرفة عملهما بكلّ سلاسة ويسر، ويتمشيان بخفة، وهما يجهزان الأحصنة للسادة.

يُسمع بالقرب من بيت النبلاء هذا صوت بيانو آخر. إنها إحدى معجبات شومان[1]، التي تعيش عند أحد النبلاء لتدريب أولاده على العزف. يختلط صوت البيانو الأول مع الثاني. تمرّ بجانب البيت مربيتا أطفال، الأولى شابة، والأخرى مسنَة، تحملان أطفالاً إلى النوم، وهم مجايلون لأولئك الأطفال الذين يركضون وهم يحملون أباريق الماء والكفاس إلى الحقول.

الأولى بريطانية، وهي لا تجيد التحدث بالروسية، ولم يأتوا بها من بريطانيا لأنها تمتلك مهارات خاصة، بل فقط لأنّها لا تعرف اللغة الروسية. الثانية فرنسية، وقد تمّت دعوتها للسبب نفسه؛ أي لأنها لا تجيد التحدث بالروسية. أيضاً هناك رجل وامرأتان؛ الرجل مهمته أن يسقي الزهور بالقرب من البيت، ورجلٌ آخر ينظّف سلاح الشوزن لابن السيّد، وامرأتان تحملان سلّة فيها ملابس نظيفة، بعد أن أشرفنَ على اغتسال كلّ السيدات، البريطانيات والفرنسيات. في البيت هناك امرأتان تكادان تستطيعان غسل الأواني للسادة الذين أكلوا للتوّ، ورجلان يرتديان بزات خدم رسمية، ويركضان على السلّم صعوداً وهبوطاً، لتقديم الشاي والقهوة والخمر والمياه المعدنية. وضعت طاولة في الأعلى، وقد انتهى السادة للتوّ من تناول الطعام، وستبدأ وجبة أخرى قريباً، وسيواصلون السهر حتى منتصف الليل، أو حتى الساعة الثالثة فجراً، وغالباً حتى صياح الديكة.

بعضهم يجلسون ويلعبون الورق، وآخرون يدخّنون ويتحدّثون عن الأفكار الليبرالية، وقسم ثالث ينتقلون من مكان إلى آخر، وهم يدخنون، ولا يعرفون ماذا يفعلون، فيقرّرون الذهاب في نزهة.

---

1 روبرت شومان (1810 - 1856) مؤلف موسيقى ألمانيّ، عدّه بعض النقاد أهمّ مؤلف موسيقي في الحركة الألمانية الرومانسية، وذاعت شهرته بفضل مؤلفاته الرائعة على البيانو. تمثّل مؤلفاته حالتين نفسيتين متناقضتين للموسيقا الرومانسية، إحداهما عاطفية نابضة، والأخرى هادئة وتأملية.

هم خمسة عشر من الرجال والنساء الأصحاء، يقوم على خدمتهم ثلاثون عاملاً وعاملة أصحّاء. هذا يحدث هناك، عندما تكون مشاركة كلّ طفل في العمل، في كلّ ساعة، أمراً بالغَ الأهمية. يحدث كلّ هذا في حزيران/يونيو، عندما يقضي المزارعون فتراتٍ طويلة من الليل وهم يسحبون الشوفان حتى لا يفرط، ولا ينعمون بالنوم، وتستيقظ النساء قبل الفجر لمتابعة أعمال الدِّراس، وحينها تبدأ تلك العجوز التي أضناها العمل، والنساء الحوامل، والشباب الصغار، العملَ؛ كلّهم يعمل بكلّ طاقته، عندما يكون هناك نقص في عدد العمال وفي الأحصنة والعربات، ولكي ينقلوا هذه الأكداس من الحبوب التي يحتاج منها الشعب الروسي آلاف الأطنان في اليوم الواحد، كي يبقوا على قيد الحياة. تستمر خلال هذا الوقت حياة النبلاء، حيث المسارح والنزهات والصيد والطعام والشراب وحفلات البيانو والغناء والرقص؛ أي إنها خلاعة مستمرة. لا يمكننا أن نتعذر هنا بأنَ كل شيء موضوع مسبقاً، ولا نملك أيّ تأثير عليه. نحن من صنعنا هذا الواقع، عندما سلبنا الخبز والجهد من أولئك الناس البؤساء.

نحن نعيش كما لو لم تكن هناك أيّ علاقة بين موت عاملة الغسيل، والعاهرة التي عمرها أربعة عشر عاماً، والنساء المرهقات من صنع السجائر، وكلَ هذا العمل المرهق الذي نراه من حولنا، والذي يفوق قدرة الأطفال والشيوخ خاوي البطون. نحن نعيش ونتلذذ ونتنعم كما لو لم يكن أيّ رابط بين كلَ هذه التفاصيل في حياتنا، ولا نريد أن نعترف بأنه لولا خمولنا وكسلنا وفساد حياتنا لما اضطرّ هؤلاء إلى هذا العمل الذي يفوق طاقتهم، ولو لم يكن هذا العمل الذي لا يقوون عليه لما استطعنا التنعّم بهذه الحياة الرغيدة أبداً.

يبدو لنا أنَ معاناتهم شيء، وحياتنا شيء آخر تماماً، وأننا لا نرتكب أيّ ذنب عندما نعيش حياتنا بهذا الشكل، وأننا أبرياء مثل طيور الحمام. نقرأ

عن حياة الرومان، ونتعجّب من وحشية لوكوس[1]، وافتقارهم إلى المشاعر الإنسانية حين يأكلون ويشربون الخمر وشعبهم يموت من الجوع، ونهزّ رؤسنا ونتعجب من وحشية أجدادنا الذين كانوا يمتلكون الأقنان، وينظمون حفلات الأوركسترا والمسرحيات، وأخذوا قرى كاملة للحفاظ على حدائقهم. نتعجب من وحشيتهم، ونحن نشعر بعظمتنا وقوتنا. نقرأ في سفر أشعياء الإصحاح الخامس:

ويلٌ للذين يصلون بيتاً ببيت، ويقرنون حقلاً بحقل، حتى لم يبقَ موضع. فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض(8).

ويلٌ للمبكرّين صباحاً يتبعون المُسْكِر، للمتأخرين في العتمة تلهبهم الخمر(11).

وصار العود والرّباب والدفّ والناي والخمر ولائمهم، وإلى فعل الرب لا ينظرون، وعمل يديه لا يرون(12).

ويلٌ للجاذبين الإثم بحبال البُطْل، والخطيةَ كأنه برُبُط العجلة(18).

ويلٌ للقائلين للشر خيراً وللخير شراً، الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً، الجاعلين المر حلواً، والحلو مراً(20).

ويلٌ للحكماء في أعين أنفسهم، والفهماء عند ذواتهم(21).

ويلٌ للأبطال على شرب الخمر، ولذوي القدرة على مزج المُسْكر(22).

الذين يبررون الشرير من أجل الرشوة، وأما حقّ الصديقين فينزعونه منهم(23).

نقرأ كلّ هذه الكلمات، ويُخيَّل إلينا أنّها لا تعنينا. نقرأ في إنجيل متى الإصحاح الثالث، 10: والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار.

---

1 لوشيوس لوكولوس «109 ق م – 57 ق م» قائد عسكري روماني بارز.

نحن مقتنعون تماماً بأن الشجرة الطيبة التي تنتج الثمار هي نحن، وأن هذه الكلمات لا تعنينا، بل هي موجهة إلى أناس آخرين يتّصفون بالشرور.

نقرأ في سفر إشعياء السادس:

غلّظ قلب هذا الشعب وثقّل أذنيه وأطمس عينيه، لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويرجع فيشفى(10).

فقلت: إلى متى أيها السيد؟ فقال: إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن، والبيوت بلا إنسان، وتخرب الأرض وتفقر(11).

نقرأ كل هذا، ونحن مقتنعون بأن هذا العمل المدهش لم يؤثر فينا نحن، بل في بعض الناس الآخرين.

ولأننا لا نرى الحقيقة، وهي أنّ كلّ هذه النتيجة المذهلة نحن من تسبّبنا ونتسبّب في الوصول إليها، ولذا نحن لا نرى ولا نعي بقلوبنا. إذاً، كيف حدث هذا؟

مبررات زائفة للكسل

كيف يمكن لمن يَعدُّ نفسه، لا أقول مسيحياً أو شخصاً مثقفاً أو مفعماً بالمشاعر الإنسانية، بل إنساناً بسيطاً لا يفتقد العقل والضمير كليّاً؛ أن يعيش دون أن يشارك في صراع البشرية من أجل الحياة، بل في استهلاكه فحسب جهود الآخرين المكافحين في سبيل الحياة، ويتسبب، بمتطلباته الكثيرة، في إثقال كاهلهم بجهود مضاعفة، وفي موت بعضهم وهم يكافحون؟ إن عالمنا المسمى المسيحي أو العالم المتحضر مليء بمثل هؤلاء. إن عالمنا المسيحي المثقف، بالإضافة إلى أنه مليء بمثل هؤلاء، المثلُ الأعلى في هذا العالم يتمثل في امتلاك أكبر قدر ممكن من الثروة؛ أي إمكانية التحرر من النضال في الحياة، والاعتماد بأكبر قدر ممكن على جهود الإخوة الذين يفقدون حياتهم في هذا النضال.

كيف وقع الناس في مثل هذا الخطأ المدهش؟

كيف استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الحال، الذي لا يمكنهم خلاله أن يروا ويسمعوا وتشعر قلوبهم بما هو شديد الوضوح ولا يقبل الشك؟ يكفي التفكير دقيقةً واحدة حتى يذهلنا التناقض الرهيب بين ما نعتقد به في حياتنا، وما نفعله في الواقع، وأنا لا أتكلم هنا عنا بوصفنا مسيحيين فحسب، بل بوصفنا أشخاصاً مثقفين وإنسانيين.

بغض النظر عن كون القانون الذي يحكم الناس والعالم، والذي قرره الإله أو قانون الطبيعة، جيداً أو سيئاً، القانون الذي وجد الناس أنفسهم فيه عراة، من دون صوف يستر أجسادهم، ومن دون جحور يختبئون فيها، ومن

دون طعام يمكن أن يجدوه في الأرض أمامهم، كما هو الحال عند روبنسون[1] في جزيرته؛ إنّ هذا الوضع يجعل البشر في سعي دائم لستر أجسادهم، وصنع ألبسة تسترهم، وبناء مساكن يلجؤون تحت أسقفها، وكسبِ لقمة عيشهم، لكي يطعموا عائلاتهم من أطفال ومسنين وجبتين أو ثلاثاً في اليوم يسكتون بها جوعهم.

إذا تمعنّا في حياة البشر، في أيّ زمان ومكان، سواء في أوروبا أم في الصين، في أمريكا أم في روسيا، وسواء نظرنا إلى الحياة البشرية عامة أم إلى جزء منها، في العصور القديمة أم في عهد القبائل المتنقلة، أو في عصرنا الحالي؛ حيث المحركات البخارية وآلات الخياطة، ومع تطور الزراعة، واكتشاف المصابيح الكهربائية، إذا تمعنّا فإنّنا سنصل إلى النتيجة ذاتها وهي أن الناس يواصلون العمل المجهد، لكنهم لا يستطيعون تأمين الطعام والمسكن واللباس لهم ولأطفالهم ولكبار السن، وأنّ قسماً كبيراً من الناس، في الماضي وفي عصرنا، يموتون ببطء بسبب تعبهم وسعيهم في سبيل تأمين أساسيات الحياة.

لا يهمّ المكان الذي نعيش فيه، فإننا إذا رسمنا حولنا دائرة محيطها مئة ألف أو ألف أو عشرة فرستات، أو فرست واحد، وأمعنّا النظر في حياة الناس القاطنين ضمن تلك الدائرة، فإننا سنرى أطفالاً متجمدين من البرد، وشيوخاً

---

1 روبنسون كروزو هي قصة كتبها دانيال ديفو، نُشرت للمرة الأولى سنة 1719، وتُعدَ أحياناً الرواية الأولى في الإنجليزية. هذه الرواية هي سيرة ذاتية تخيلية، تحكي عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيداً لمدة طويلة دون أن يقابل أحداً من البشر، ثم بعد عدة سنوات يقابل أحد المتوحشين فعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدّم فكريّ وجعله خادمه. وفي نهاية القصة عاد روبنسون كروزو ومعه خادمه إلى أوروبا حيث العالم المتحضر. هذه القصة تعني للكثيرين حلم الانعزال عن هذا العالم الظالم، والحياة في ظلّ الطبيعة الرحيمة بالنسبة إلى هذا العالم، كما تظهر مدى التحضر الذي توصلت إليه الأمم الأوربية.

وعجائز ونساءً ولدنَ حديثاً، ومرضى وضعفاء، وعمالاً يبذلون جهوداً تفوق قدراتهم، ولا يملكون غذاءً كافياً، ولا ينعمون بساعات الراحة الضرورية، ويموتون وهم في مقتبل العمر، وسنرى أناساً معرضين للموت بسبب الأعمال الشاقة والخطيرة التي يؤدّونها.

منذ بداية الحياة، ونحن نرى الناس يعانون من ضغوطات رهيبة وحرمان وعذاب وهم يصارعون من أجل حاجاتهم في هذه الحياة، لكنّهم لا يحصلون عليها. نحن نعلم، بالإضافة إلى ذلك، أنّ كلّ واحدٍ من بيننا -لا يهم مكان وزمان عيشه- في كلّ يوم وفي كل ساعة، يستهلك لنفسه جزءاً من جهدٍ يبذله الآخرون.

أينما كان المكان الذي يعيش فيه؛ إن البيت والسقف الذي يعلوه لم يُبنَيا تلقائياً، والحطب الذي في مدفأته لم يحصل عليه هكذا بالمصادفة، ولا الماء ولا الخبز ولا الطعام ولا اللباس ولا الحذاء، بل إنّ هذه الأشياء لم تصنعها الأجيال السابقة الذين ماتوا منذ زمن بعيد فحسب، بل شارك في تحضيرها وإعدادها مئات وآلاف العمال الذين وهنوا وواجهوا الموت في كلّ لحظة لكي يوفروا لهم ولأولادهم المسكن والطعام واللباس ووسائل إنقاذ أنفسهم من المعاناة والموت المبكر.

يناضل كلّ البشر من أجل حاجاتهم. يكافحون كثيراً إلى درجة أنّهم في كل ثانية يموت لهم إخوة وآباء وأمهات وأبناء. حال الناس في هذا العالم مثل حال ركاب سفينة غارقة، ليس فيها مؤونة كافية لهم، وكلّهم مجبرٌ: سواء أكان الله وضع فيهم هذه الخاصية أم كانوا يعملون وفق طبيعتهم، على السعي للحصول على الطعام، دون أن يتوقفوا عن استهلاك مؤونتهم.

إن موقفَ كلٍّ منّا من هذا الجهد، وأيَّ استنزافٍ عديم الفائدة لعمل الآخرين، كل ذلك قاتلٌ لنا ولإخوتنا في الوقت ذاته.

كيف يرى الأغلبية من المثقفين في وقتنا أنَ كسلهم واستنزافهم البطيء لجهود الآخرين ضروريٌّ لحياتهم، وأنّ حياتهم بهذا الشكل طبيعية ومنطقية؟

لكي نعفي أنفسنا من العملِ المفروضِ بشكل طبيعيَ على الجميع، ونتركه على عاتق الآخرين، دون أن نعدّ أنفسنا خائنين أوْ سارقين؛ نحن أمام احتمالين: يتمثل الأول في أننا نحن -غير المشاركين في الجهد العام- مخلوقات خاصة، ونختلف عن الشعب العامل في أننا نمتلك أهمية خاصة، كالذكور أو الملكات في مجتمع النحل، الذين يمتلكون خصوصية عن بقية النحلات العاملات. أما الاحتمال الثاني فهو أننا -المتحررين من واجبنا في الكفاح من أجل الحياة- عندما نعمل نجلب الفائدة لجميع الناس؛ حيث نعوض الضرر الذي نلحقه بهم عندما نثقل كاهلهم بمتطلباتنا.

كان أفراد تلك الفئة من الناس، في العصور القديمة، الذين يستغلون جهود الآخرين، مقتنعين بفكرتين: الأولى أنَهم من سلالة خاصة، والثانية أنّ لهم مكانة خاصة عند الله؛ حيث أوكل إليهم مسؤولية صلاح بقية الناس؛ أي يديرون شؤونهم ويعلمونهم، ولذلك أقنعوا الآخرين، وغالباً ما كانوا مقتنعين هم أنفسهم بأنَ العمل الذي يؤدّونه أكثر أهمية وفائدة للناس من الأعمال التي يستفيدون بها منهم. سيكون هذا سبباً مقنعاً طالما لم يكن هناك شكٌّ في التدخل الإلهي المباشر في أفعال الناس، وفي الفروقات بين السلالات البشرية، لكنّ هذا التبرير لم يعد ممكناً بهذا الشكل، بعد أن جاءت المسيحية، والوعي المنبثق من تعاليمها بالمساواة والوحدة بين جميع الناس. لم يعد ممكناً تأكيد أنّ الناس يولدون من سلالات ومواصفات مختلفة؛ حيث تختلف مكانة وأهمية هذه السلالات، وأنّ الفكرة القديمة، رغم أنَ الكثيرين مازالوا يؤيّدونها، تقلصت كثيراً، وكادت تتلاشى تماماً. لقد اختفت فكرة تمايز سلالات البشر، ولكن بقي الواقع نفسه المتمثّل في التحرّر من العمل والاستعانة بالآخرين لأولئك الذين يملكون سلطة للقيام بهذا. ودائماً،

اختُرِعت تبريرات جديدة لهذا الواقع الموجود. يتحرّر أولئك الأشخاص، الذين يستطيعون العمل، من العمل، من دون ادّعاء امتلاك بعض السلالات البشرية أهمية خاصة، ويعتقدون أنهم محقّون في ذلك.

اختُلقَ الكثير من هذه التبريرات. ما يثير الدهشة أنّ البحث عن مثل هذه التبريرات كان ولا يزال الهدف الأساسي لما يُسمّى العلم، والاتجاه السائد في هذا العلم. كان هذا هو هدف العلوم اللاهوتية، وهدف العلوم القانونية، وهدف ما يسمى الفلسفة، وأصبح في الفترة الأخيرة (مهما بدا لنا الأمر غريباً، نحن المعاصرين الذين نستخدم هذا التبرير) هدف العلوم التجريبية الحديثة.

كلّ الخفايا الدقيقة للعلوم اللاهوتية، التي تسعى لإثبات أن كنيسة ما هي الأحقّ بخلافة المسيح، وأنها وحدها التي تملك السلطة الكاملة والتامة على أرواح وأجسام الناس؛ مثل هذا الأمر هو الغاية والمحرك الأساسي لنشاطها.

هذا هو الهدف الرئيس للعلوم القانونية المتمثلة في القانون العام والقانون الجنائي والقانون المدني والقانون الدولي. كذلك هذا هو الهدف الرئيس لأغلبية النظريات الفلسفية، وبشكل خاص نظريات هيغل التي سادت فترةً طويلة، وفكرته المتمثلة في أنّ الدولة شكل ضروري من أشكال تطوّر الفرد.

الفلسفة الوضعية لكونت، والتعاليم المنبثقة عنها المتمثلة في أن البشرية مادة عضوية، ونظرية داروين عن قانون الصراع من أجل الوجود، التي توجه الحياة، والتي ينبثق عنها الاختلاف بين السلالات البشرية، والأنثروبولوجيا المنتشرة بكثرة والبيولوجيا وعلم الاجتماع كلّ هذه العلوم لها الغاية ذاتها.

هذا الهدف هو الأساسي لفلسفة كونت الوضعية، وما نتج عنها من نظريات تقول إن البشرية مادة حية، ونظرية داروين حول قانون الصراع من أجل الوجود، وتوجيه الحياة، وتمايز الأجناس البشرية الذي ينتج عنها، والأنثروبولوجيا الشائعة جداً، وعلم الأحياء، وعلم الاجتماع. أصبحت هذه

العلوم مفضّلة؛ لأنها تؤيد تبرير تحرّر فئة من الناس من واجبهم الإنساني، واستغلالهم جهودَ الآخرين.

تُوضع هذه النظريات، كما هو الحال دائماً، في معابد الكهنة السرية، وتُعمّم على الناس على شكل تعابير غامضة وغير واضحة، ويجري تبنّيها. بقيت الخفايا اللاهوتية، كما حدث في الماضي، المبرّرة لعنف الكنيسة والدولة، مُلكيةً خاصة بالكهنة، وانتشرت بين العامة أفكار جاهزة، قُبلت على أنها من المُسلّمات، تقول إن سلطة الملوك والكهنة والنبلاء مقدسة، ثمّ ظهرت خفايا ما يسمى العلوم الفلسفية والقانونية، التي كانت ملكاً لكهنة هذه العلوم، وانتشرت بين العامة أفكار جاهزة، مبنيّة على أساس التصديق الأعمى كذلك، بأنّ بنية المجتمع يجب أن تكون بالشكل الذي هي فيه الآن، ولا يمكن أن تأخذ شكلاً آخر.

هذا هو الحال الآن؛ حيث تُوضع قوانين الحياة وتطور الطبيعة في معابد الكهنة فحسب، وتُنشر بين العامة أفكار على أنّها من المُسلّمات، متمثلة في أن تقسيم العمل قانون يؤكده العلم، وأن هذا هو المطلوب: أحدهم يموت من الجوع ويعمل، وآخر يحتفل باستمرار، واحتفال البعض وموت الآخرين هو قانون الحياة الطبيعي الذي لا يقبل الشك، والذي يجب الالتزام به.

التبرير الحالي لكسل كلّ هؤلاء، الذين يسمون أنفسهم مثقفين بمختلف تخصصاتهم، من مالك السكك الحديد إلى الكاتب والفنان، هو الآتي: نحن -الذين نتحرّر من الواجب الإنساني المشترك في المشاركة في الصراع من أجل الوجود- نساهم من ناحية أخرى في مسيرة التطور، ونحن بهذا نقدّم فائدة لكلّ المجتمع البشري، وهذه الفائدة تعوّض الضرر الذي نلحقه عندما نستغل جهد المجتمع ذاته لكي يلبّي متطلباتنا.

تبدو هذه الفكرة، بالنسبة إلى الناس في عصرنا، مختلفة تماماً عن الفكرة التي برّرت من خلالها الأجيال الماضية تقاعسها عن العمل، تماماً مثل فكرة

الأباطرة والمواطنين الرومان المتمثلة في أن العالم المتحضر سيفنى من دونهم، وبدت مختلفة تماماً عن فكرة المصريين والفرس، وكذلك كانت هناك أفكار عند الفرسان ورجال الدين في العصور الوسطى تبدو مختلفة تماماً عن فكرة الرومان. لكنّ هذا ما يظهر على السطح، وينبغي فقط التعمق في جوهر تبرير وقتنا الراهن، لكي ندرك أن لا شيء جديداً فيه. هذا التبرير يأخذ شكلاً جديداً فحسب، لكن جوهره هو ذاته؛ لأنه مبني على التبرير القديم.

إن العذر الذي يسوقه أيّ شخصٍ لكسله ولاستغلاله جهود الآخرين، والذي ساقه فرعون والكهنة والأباطِرة الرومان ومواطنوهم، وفي العصور الوسطى، وقبلهم الفرسان ورجال الدين؛ يتألف دائماً من شقين: الأول قولهم إننا نأخذ جهد العامّة؛ لأن الله منحنا مكانة مميزة لكي ندير حياة الناس، ونعلمهم الحقائق الدينية، والثاني أن الناس لا يقدّرون الفائدة التي نقدّمها لهم مقابل استفادتنا من عملهم. وكما يشتشهد الفريسيون[1] بالقول: «ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع، 49). إنّ الشعب لا يعرف أين هي مصلحته، ولذا هو غير قادر على تقدير قيمة هذه الفائدة.

يُبنى التبرير في عصرنا الحالي، بغضّ النظر عن كونه يبدو مختلفاً، على التأكيدين الأساسيين ذاتيهما: الأول أننا مثقفون نساهم في التقدم والحضارة، وبهذا نكون قد قدمنا فائدة عظيمة للجماهير. أما الثاني فيتمثل في أن الجماهير غير مثقفة، ولا تعرف الفائدة التي نقدمها لهم، ومن ثَمَّ هم غير قادرين على تقدير قيمتها.

---

1 هم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين. يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية، ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين.

نحن نعفي أنفسنا من العمل، ونستعين بالآخرين، ونفاقم الوضع الصعب لإخوتنا، وندّعي أننا نقدم لهم فائدة عظيمة، وهم غير قادرين، بسبب جهلهم، على تقدير قيمتها. ألا يتكرر المشهد ذاته؟ يتجلى الاختلاف فقط في أنّ الحق في استغلال جهود الآخرين امتلكه في الماضي المواطنون الرومان والكهنة والفرسان والنبلاء. أمّا الآن فتمتلكه فئة من الناس تدعي أنها فئة مثقفة.

الكذبة هي ذاتها؛ لأن من يبررون لأنفسهم وقعوا في الوهم ذاته. يتمثل الوهم في أننا، بوصفنا فئة مثقفة، وقبلنا الفراعنة والكهنة، قبل أن نفكر في الفائدة التي يجنيها الناس منّا عندما نتحرّر من واجب العمل؛ نضع أنفسنا في هذا الموقف، ونؤكده، ثم نقدم تبريرات له.

إن هذا الوضع، الذي يتسلط فيه مجموعة من الناس على آخرين، يشكّل الآن، كما شكل في الماضي، أساس كلّ تبرير.

يختلف تبريرنا عن التبرير القديم بأنه مبنيّ على أسس ضعيفة. إذا آمن الأباطرة والبابوات القدماء بأهميتهم التي خصّهم الله بها، وآمن الشعب كذلك بأهمية هؤلاء، فإنهم استطاعوا أن يشرحوا ببساطة الخصوصية التي يتمتعون بها، والتي تتيح لهم استغلال جهود الآخرين؛ كانوا يقولون إن الله خصّهم بهذه المكانة، وأوكل إليهم تلقين الشعب التعاليم والحقائق الدينية وإدارة شؤونهم.

لا يستطيع المثقفون في عصرنا، الذين لا يعملون شيئاً بأنفسهم، والمعترفين بالمساواة بين الناس؛ أن يشرحوا سبب خصوصيتهم هم وأطفالهم (لأن الثقافة والتعليم لا يأتيان إلا من خلال المال والقوة)؛ حيث يتمتعون بالسعادة وبالحياة السهلة الرغيدة، ولا يُطلب منهم إلا تقديم فائدة بسيطة لملايين الناس الآخرين، فيموت المئات والآلاف منهم، وهم يوفرون لهم إمكانية التعلّم والرفاهية.

تبريرهم الوحيد أنهم يقدمون فائدة للناس تعوض عن الضرر الذي يسببونه لهم، عندما يتحررون من العمل، ويستعينون بالآخرين لكي يؤدوا لهم أعمالهم، لكن هذه الفائدة غير مفهومة للناس الذين لا يستوعبون كيف تعوض كل الضرر الذي يسببه هؤلاء المثقفون لهم.

قيمة العمل

إنّ الفكرة، التي يستند إليها أولئك الذين يعفون أنفسهم من العمل، وهم يبررون تحررهم من العمل، هي، بأبسط وأدقّ تعبير، كما يأتي: نحن فئة من الناس، لدينا إمكانية إعفاء أنفسنا من العمل، وعندما استعنّا بالقوة لاستغلال عمل الآخرين، وجدنا أنفسنا أكثر قدرةً على استغلالهم. بعبارة أخرى، تستخدم هذه الفئة من الناس، التي تلحق ضرراً ملموساً يدركه الناس، القوةَ التي تمتلكها، وتزيد من صعوبة صراع الناس مع الطبيعة عندما تقدّم لهم فائدة لا يشعرون بها ولا يفهمونها.

هذه مفارقة شديدة الغرابة، لكن تلك الفئة، في عصرنا الحالي وفي الماضي، التي تعيش على حساب الشعب الكادح، تصدّقها وتشعر من خلالها براحة الضمير.

لِنرَ كيف يُستخدم هذا التبرير، في وقتنا الحالي، عند فئات مختلفة من الناس تحرّروا من واجب العمل.

أنا أخدم الناس في وظيفتي الحكومية أو وظيفتي الدينية: أنا ملك، أو وزير، أو مطران، أو... أخدمهم بنشاطاتي الصناعية والتجارية، أو في عملي في الحقل العلمي أو الفني. الناس في حاجة إلى أعمالنا ونشاطاتنا، كما نحن بحاجة إليهم. هناك تبريرات مختلفة لكلّ طيف من الأطياف التي تضمّ أولئك المتحرّرين من العمل.

لننظر بشكل تسلسلي إلى كلّ تلك الأسس، التي تعتمد عليها كلّ فئة في تأكيد أهمية العمل الذي تقوم به.

هناك مؤشران فقط على تقديم شخص ما فائدةً لشخص آخر: مؤشر خارجي هو إقرار المستفيد بهذه الفائدة، وتقديره لقيمتها، ومؤشر داخلي هو الرغبة في تقديم الفائدة للآخر، وهذه الرغبة هي هدف العمل الأساسي.

يقدم ممثلو الدولة (أنا أعدُّ ممثلي الكنيسة من بين ممثلي الدولة) فائدة للناس الذين يقعون تحت سلطتهم وإدارتهم.مكتبة سُر مَن قرأ

الامبراطور، والملك، ورئيس الدولة، ورئيس الحكومة، ووزير العدل، ووزير الدفاع، ووزير التعليم، والمطران، وكلّ من يتبع لهم، ممَن يخدمون في الدولة، كلّ هؤلاء متحرّرون من كفاح البشرية من أجل الحياة، ويتركون عبء هذا الكفاح على بقية الناس، مستندين إلى فكرة أنّ خدمتهم الحكومية تعوّض عدم مشاركتهم. لِنَرَ مدى تحقّق المؤشر الأول. هل يعترف الكادحون الذين تستهدفهم الفائدة التي يقدمها الموظفون الحكوميون؟ نعم يعترفون، فأغلبيتهم مقتنعون بأنّ وجود الحكومة ضروريٌّ لحياتهم، ويعترف أغلبيتهم بفائدة الخدمات التي تقدّمها لهم من حيث المبدأ، لكننا نرى، من خلال الملاحظات العملية على الخدمات الحكومية عامة، وعلى خدمات مؤسسة ما بشكل خاص، ليس إنكاراً لهذه الخدمات فحسب عند أولئك الذين تستهدفهم هذه الخدمات، بل نلاحظ تأكيداً منهم لأنّ هذه الخدمات تلحق بهم الضرر والأذى أيضاً.

ليس هناك مؤسسة حكومية لا يطالها اتهام أغلبية الناس بإلحاق الضرر بهم، فكلّ مؤسسة حكومية تلحق الضرر بالسواد الأعظم من الناس، كالمحاكم والبنوك والإدارات الحكومية والشرطة والسلطة الدينية. إنّ أيّ عملٍ حكومي، بداية من أعلى هرم في السلطة حتى الشرطي، ومن المطران حتى خادم الكنيسة، يبدو في نظر البعض مفيداً، وفي نظر آخرين ضاراً. هذا يحدث ليس في روسيا فحسب، بل في كل أنحاء العالم أيضاً، في فرنسا وفي أمريكا.

تَعُدُّ الأحزابُ الجمهوريةُ الأحزابَ الراديكالية سيئةً، وفي المقابل، تَعدُّ الأحزابُ الراديكالية، إذا امتلكت السلطة، كلَّ ما تقوم به الأحزابُ الجمهورية والأحزاب الأخرى سيئاً. لا يقتصر الأمر على أنّ الإجراءات الحكومية ضارّة في عيون الكثير من الناس، بل إنها تمتلك خاصية أخرى هي أنها تُنفذ دائماً من خلال استخدام القوة، ولا بدّ من اللجوء إلى القتل والإعدامات والسجون والضرائب المفروضة بالقوّة، لتحقيق الغاية المرجوّة من هذه الإجراءات. يبدو أنّ الفائدة، التي تقدمها الحكومة، لا يمكن أن يعترف بها جميع أفراد الشعب، وهناك دائماً بينهم من ينكرونها؛ لأنّ هذه الفائدة تتمّ باستخدام القوة، ولذا إنّ المؤشر الأوّل لم يتحقق؛ حيث إنّ من تستهدفهم هذه الفائدة لم يعترفوا بها.

لننتقل إلى المؤشر الثاني: لنسأل كلّ الموظفين الحكوميين بدءاً من القيصر وصولاً إلى الشرطي، ومن الرئيس إلى السكرتير، ومن البطريرك إلى خادم الكنيسة، ونطلب منهم الإجابة بكلّ شفافية. أَهم يقصدون، وهم يؤدّون عملهم، تقديمَ الفائدة للناس أم أنّ هناك أهدافاً أخرى لعملهم؟ أَهدفهم من شغل منصب قيصر أو رئيس أو وزير أو شرطي أو خادم في الكنيسة أو معلم هو تقديم الفائدة للناس أم أنّهم يسعون وراء مكاسبهم الشخصية؟ سيجيب كلّ الصادقين من بينهم بأنّ هدفهم هو تحقيق المكاسب الشخصية.

نستنتج أنّ بعض الناس، الذين يستغلّون عمل الآخرين الذين يموتون وهم يؤدّون هذا العمل، يعوضونهم بضررٍ لا يقبل الشكّ بمثل هذه الأعمال التي يقومون بها، والتي هي ليست مفيدة، بل تجلب الضرر للكثير من الناس الذين لا يملكون خياراً آخر غير تقبّلها؛ لأنها مفروضة عليهم بالقوة، وهدفها ليس تقديم المنفعة لهم، بل تحقيق مكاسب شخصية لأولئك الذين يقومون بها.

ما الذي تؤكّده الفرضيّة التي تقول إنّ العمل الحكومي مفيد للناس؟ تؤكد شيئاً واحداً فقط هو أن من يقومون بهذا العمل يؤمنون بشدّة بفائدته، وأنّ هذا العمل كان موجوداً على الدوام في كلّ الأزمنة.

لكن دائماً كانت هناك نشاطات ليست غير مفيدة فحسب، بل تلحق الضرر بالناس كالعبودية والدعارة والحروب.

يعتقد رجال الأعمال من الصناعيين والتجار وأصحاب السكك الحديد والمصارف ومُلّاك الأراضي أنّهم يقدّمون فائدة كبيرة تعوّض عن الضرر الذي يتسبّبون فيه. ما الأسس التي يستندون إليها في اعتقادهم هذا؟ للإجابة عن السؤال: من هم الأشخاص الذين يعترفون بالفائدة التي يقدّمها هؤلاء لهم؟ يمكن للعاملين الحكوميين، ومعهم ممثلو الكنائس، أن يشيروا إلى آلاف وملايين الناس الذين يعترفون، من حيث المبدأ، بالفائدة التي يقدّمها لهم موظفو الخدمة العامة وممثلو الكنائس، ولكن إلى من سيشير المصرفيون ومصنّعو الفودكا والمنسوجات والبرونز والمرايا، ناهيك عن مصنّعي المدافع، وإلى من سيشير التجار ومُلّاك الأراضي، عندما نسألهم عن اعتراف المجتمع بالفائدة التي يقدّمونها له؟ إذا كان هناك أناس يعتقدون بأنّ إنتاج النسيج والسكك الحديد والبيرة وغيرها مفيدٌ لهم، فسيكون هناك في المقابل أناسٌ بأعداد أكبر ممّن يعتقدون بأنّ إنتاج هذه المواد ضارٌّ بهم. أمّا عمل التجار، الذين يرفعون أسعار المواد، وعمل مُلّاك الأراضي، فلن يدافع عنهما أحد. بالإضافة إلى ذلك، إنّ هذا العمل يترافق دائماً مع ضررٍ بالعمال وعنف يقع عليهم، ورغم أنّه أقلَ تأثيراً من عنف السلطة الحاكمة، يخلّف نتائج قاسية؛ لأنّ النشاط التجاري والصناعي يقوم على استغلال حاجة العمال في جميع أشكالها: استغلال حاجتهم لإجبارهم على أعمال شاقة لا يحبونها، واستغلال حاجتهم لشراء بضائع منهم بأسعار زهيدة، وبيع المواد الأساسية لهم بأسعار عالية، واستغلال حاجتهم أيضاً لرفع نسبة الفوائد على المال.

كيفما نظرنا إلى نشاط رجال الأعمال، سنجد أنّ الفائدة التي يقدمونها لا يعترف بها الناس الذين تستهدفهم هذه الفائدة المزعومة، لا من حيث المبدأ، ولا من حيث حالات خاصة بعينها، وما نراه غالباً هو الاعتراف بشكل صريح بضررها.

إذا انتقلنا إلى المؤشر الثاني، وسألنا السؤال الآتي: ما الدافع الأساسي لعمل رجال الأعمال؟ فإننا نتوقّع إجابة أكثر وضوحاً من جواب الموظفين الحكوميين.

إذا قال الموظف الحكومي إنّه يسعى للفائدة العامة، بالإضافة إلى سعيه من أجل مصلحته الشخصية، فلا يسعنا إلا أن نصدّقه، وكلٌّ منّا يعرف الكثيرين من هؤلاء في محيطه، لكن رجل الأعمال، من خلال جوهر عمله، لا يمكنه أن يسعى إلى الفائدة العامة، وسيصبح موضوعاً للتندّر بين زملائه، إذا كان يسعى في عمله إلى هدفٍ آخر غير زيادة ثروته أو الحفاظ عليها. وهكذا نجد أنّ العمال لا يَعدّون نشاط رجال الأعمال مفيداً لهم. هذا النشاط مترافق دائماً مع العنف ضد العمال، وغايته ليست تقديم الفائدة لهم، بل تحقيق مكاسب شخصية لأصحابها فحسب. ما يثير الدهشة أنّ رجال الأعمال مقتنعون جداً بأنّ عملهم يجلب الفائدة للناس، وهذا ما يجعلهم يجرؤون، باسم هذه الفائدة المزعومة، على أن يلحقوا ضرراً واضحاً لا شك فيه بالعمال، عندما يعفون أنفسهم من العمل، ويستغلّون جهود العمال.

إن أهل العلم والفن قد تحرّروا من العمل، وألقوا العبء على الآخرين، ويعيشون وضمائرهم مرتاحة؛ لأنهم مقتنعون بشدة بأنّهم يقدّمون الفائدة التي تعوّض عن تكاسلهم.

علامَ تعتمد قناعتهم؟ لنسألهم كما سألنا العاملين الحكوميين ورجال الأعمال: هل يعترف العمال كلّهم، أو أغلبيتهم على الأقل، بهذه الفائدة التي يقدّمها لهم العلم والفن؟ سيكون الجواب محزناً للغاية. يعترف جميع الناس، من حيث المبدأ، بالفائدة التي يقدّمها لهم العاملون في الحكومة ورجال الدين، كما يعترف بها الأغلبية العظمى من العمال، من الناحية العملية، الذين تستهدفهم هذه الفائدة. تعترف فئةٌ قليلة من العمال بالفائدة التي يقدّمها لهم رجال الأعمال، ولكن لا أحد من العمال يعترف بأنّ العلم والفنّ يفيدانه

بشيء ما. لا يعترف بفائدة هذا الحقل إلا أولئك الذين يعملون فيه. أو الذين يرغبون في العمل فيه. لا يستطيع العمال الكادحون، الذين يحملون على أكتافهم كلّ أعباء الحياة، ويُطعمون ويُلبسون العاملين في مجال العلم والفن: أن يعترفوا بأنّ نشاط هؤلاء العلماء والفنانين مفيدٌ لهم؛ لأنهم لا يملكون أيَ تصوّر عن فائدة هذا النشاط بالنسبة إليهم؛ لأن هذا النشاط يبدو لهم دائماً أنه عديم الجدوى، بل إنّه ضار أيضاً. هكذا ينظر العمال، من دون استثناء، إلى الجامعات والمكتبات ودور الموسيقا ومعارض الرسم والنحت والمسارح المبنية على حسابهم. ينظر العامل كما هو الحال دائماً إلى العلم والفن على أنها أشياء تجلب له الضرر، ولذلك هو لا يرسل أولاده إلى المدرسة، وما وُضع قانون التعليم الإلزامي إلا لإجبارهم على المشاركة في العلم والفن. ينظر العامل دائماً إلى العلم والفن بعين الريبة، ولن يغيّر نظرته هذه طالما أنّه عامل، لكنّه ينتقل، من خلال الثروة أو ما يسمى الثقافة، من الوسط العمالي إلى تلك الفئة التي تعيش على حساب الآخرين. ورغم عدم اعتراف أيّ عامل بفائدة العلم والفن، وأنه لا يستطيع العمال أساساً الاعتراف بها، هم مجبرون على تقديم تضحيات في سبيل العلم والفن. قد يرسل الموظف الحكومي شخصاً ما مباشرة إلى المقصلة أو إلى السجن، وقد يسلب رجل الأعمال، الذي يستغل جهود العمال، قد يسلب منهم آخر مواردهم، ويخيّرهم بين الموت من الجوع أو العمل الشاق. أمّا العالم أو الفنان فهو لا يجبر أحداً على أيَ شيء، ويعرض بضاعته فقط لأولئك الذين يريدونها، لكنه لكي ينتج هذه البضاعة، التي لا يهتم بها العمال ولا يريدونها، يسلب من الناس، بالقوة، من خلال الموظفين الحكوميين، جزءاً كبيراً من جهدهم، لبناء وترميم الأكاديميات والجامعات والمدارس والمتاحف والمكتبات ودور الموسيقا، ولدفع رواتب له ولزملائه.

لو سألنا أهل العلم والفن عن غاية عملهم، فإنّنا سنتلقى إجابات مذهلة. يستطيع الموظف الحكومي أن يجيب بأنّ هدف عمله هو المصلحة العامة، وإجابته تعكس حقاً جزءاً من الحقيقة، التي يؤكدها الرأي العام للناس. هناك احتماليّة أقلّ للاعتراف بمنطقيّة إجابة رجل الأعمال، عندما يقول إنّ هدف عمله هو المصلحة العامة، لكن يمكن أن نمرّرها. إجابة أهل العلم والفن تذهلك حالاً بوقاحتها، لأنها لا تستند إلى براهين، حيث يقولون، دون أيّ أدلة على صحّة كلامهم، كلاماً مشابهاً لما قاله الكهنة في الماضي وهو أنّ نشاطهم هو الأكثر ضرورة وأهمية لجميع الناس، ومن دون نشاطهم تفنى البشرية. هم يؤكدون كذلك، بغض النظر عن عدم اعتراف أيّ أحدٍ بأهمية ما يقومون به، باستثنائهم هم أنفسهم، أنّ العلم والفن الحقيقيين لا يمكن أن يكون لهما هدف المنفعة. يُقبِل أهل العلم والفن بشغفٍ على العمل الذي يحبّونه، دون أن ينشغلوا بالمنفعة التي سيجنيها الناس من عملهم هذا، وهم مقتنعون دائماً بأنّهم يؤدّون للبشرية ما هو أكثر أهمية وضرورة لها. في الوقت الذي يعترف فيه الموظف الحكومي المخلص في عمله بأنّ الدافع الأساسي لعمله هو المكاسب الشخصية، ويسعى قدر الإمكان لكي يقدّم الفائدة للعمال، وبدوره رجل الأعمال، وهو يعترف بأنانيّة نشاطه، يعطي عمله طبيعة العمل العام، لايرى أهل العلم والفن ضرورةً في التستّر خلف السعي نحو المنفعة، فهم ينكرون هدف المنفعة، وهم مقتنعون ليس بناحية المنفعة فحسب، بل إنهم مقتنعون أيضاً بقدسية عملهم.

وهكذا، يتضح أن الفئة الثالثة من الناس، الذين يعفون أنفسهم من واجب العمل، ويتركونه على عاتق الآخرين، يمارسون أعمالاً لا يستطيع العمّال فهمها، ويَعدّونها أشياء تافهة، بل غالباً ما يَعدّونها ضارة. هذه الفئة تمارس هذه الأعمال من دون أيّ فكرة عن الفائدة التي تقدّمها للناس، بل من أجل إرضاء شغفهم فحسب، لكنهم، في المقابل، مقتنعون تماماً بأنّ عملهم مهمٌّ للعمال إلى درجة أنّ حياة هؤلاء العمال لا يمكن أن تستمر من دونه.

حرّر أهل العلم والفن أنفسهم من العمل مدى الحياة، وألقوا بواجبهم إلى العمال الذين يموتون في هذا العمل. يستغلّون هذا الجهد، ويؤكدون أن عملهم، الذي لا يفهمه بقية الناس، وغير الموجّه لمنفعتهم، يعوّض كلّ الضرر الذي يتسببون فيه للناس، بإعفائهم أنفسهم من العمل مدى الحياة، واستغلالهم عمل الآخرين.

لكي يعوّض الموظفون الحكوميون الضرر الواضح الذي لا شك فيه الذي يلحقونه بالناس عندما يتحرّرون من الكفاح مع الطبيعة، ويستغلون جهود الآخرين، يلحقون ضرراً أكبر وأكثر وضوحاً بلجوئهم إلى كلّ أشكال العنف.

أما رجال الأعمال، فلكي يعوضوا هذا الضرر الواضح الذي لا يقبل الشك الذي يتسببون فيه للناس باستغلالهم جهودهم، يحاولون، بالسلب بطبيعة الحال من العمال، استهلاك أكبر قدرٍ ممكن من الثروة؛ أي الاستفادة القصوى من جهود العمال.

أما العلماء والفنانون، فلكي يعوضوا الضرر الواضح الذي لا شك فيه الذي يسببونه للناس، عندما يتخلّون عن واجبهم في العمل، يقومون بأعمال لا يفهمها العمال، ويؤكدون هم أن علومهم وفنونهم لكي تكون حقيقية يجب ألا تسعى لأهداف نفعية، إنما هم يقومون بها لأن لديهم شغفاً بها فحسب. ولذلك إنّ كل هؤلاء الناس، الحكوميين ورجال الأعمال والعلماء والفنانين، مقتنعون تماماً بأنّ حقهم في استغلال جهود الآخرين مصون، ولكن يبدو واضحاً أنهم جميعاً لا يمتلكون مبررات مقنعة تعفيهم من العمل. وما يثير الدهشة أنهم مقتنعون بحقهم، ويعيشون وضمائرهم مرتاحة. لا بد من أن يكون هناك إيمان زائف في أساس هذا الوهم الغريب.

فئة جديدة تبرز كسلها

في الحقيقة، إنّ هذه الحالة، التي تعيشها فئة من الناس على حساب الآخرين، لا تقوم على اعتقاد ما، بل على عقيدة كاملة، وبالأصح ثلاث عقائد تتنامى فيما بينها عبر العصور، وتمتزج في خدعة واحدة (أو كما يقول البريطانيون humbug) تخفي عن الناس حالة الوهم التي يعيشونها.

إنّ أقدم عقيدة في عالمنا برّرت خيانة الناس لواجبهم الأساسي المتمثّل في العمل من أجل العيش هي العقيدة المسيحية، التي تميّز بين الناس وفق إرادة الله كما تدّعي، كما تتميّز الشمس من القمر والنجوم، وكما تتمايز النجوم فيما بينها، وكما يختلف الناس بعضهم عن بعض، حيث يخصّ الله بعضهم بالسلطة على الآخرين، ويخصّ فئة ثالثة بالسلطة على فئة أخرى، ويأمر فئة رابعة بالطاعة.

تستمر هذه العقيدة في التأثير في الكثير من الناس، رغم تزعزع الأسس التي تقوم عليها، وذلك بسبب القصور الذاتي الذي يعانون منه، رغم أنّهم لا يعترفون بها، وغالباً لا يعرفونها أساساً.

العقيدة الثانية هي التي لا يمكن أن نطلق عليها اسماً آخر غير عقيدة فلسفة الدولة. وفقاً لهذه العقيدة، التي طوّرها هيغل، كلّ موجود هو عقلاني، وكلّ نظام حياتي يؤسّسه ويحافظ عليه الناس ليس الناس هم المحافظين عليه، بل الشكلُ الوحيد الممكن لظهور الحياة البشرية.

لا تنتشر هذه العقيدة في وقتنا الحالي من خلال موجّهي الرأي العام، بل من خلال الاستمرارية فحسب.

العقيدة الأخيرة (وهي السائدة الآن)، التي يَعتمد عليها في التبرير كلٌّ من موظفي الدولة ورجال الأعمال وأهل العلم والفن في وقتنا، هي عقيدة علمية؛ ليس بالمعنى البسيط للكلمة، تعني المعرفة عموماً، ولكن في معنى خاص، من حيث الشكل والمضمون لأحد مجالات المعرفة، تعني الذي يسمّى العلم. يعتمد التبرير، في وقتنا الراهن، بشكل أساسي، على هذه العقيدة الجديدة لإخفاء خيانة المتقاعسين عن أداء رسالتهم.

ظهرت هذه العقيدة في أوروبا في الوقت نفسه الذي ظهر فيه عددٌ كبير من الأغنياء والمتقاعسين عن العمل، الذين لم يخدموا في الكنيسة أو الحكومة، والذين استعانوا بهذه العقيدة لتبرير موقفهم.

قبل فترة قصيرة، في أوروبا، وقبل الثورة الفرنسية، كان لزاماً على هؤلاء غير العاملين، لكي يحصلوا على حقّ استخدام عمل الآخرين، أن يخدموا في الكنيسة أو في دوائر الدولة أو في الجيش. حكم موظفو الدولة الشعب. أمّا موظفو الكنيسة فعلّموه الحقائق الإلهية، بينما دافع عنه من يخدمون في الجيش. فقط هذه الفئات الثلاث، السلطة الروحية والحكومية والجيش، امتلكوا الحقّ في استخدام عمل الآخرين، واستطاعوا أن يضعوا خدمتهم للشعب. أما الأغنياء، فلم يمتلكوا هذا التبرير، لقد احتُقروا، وعندما شعروا بخطئهم، خجلوا من ثروتهم وكسلهم.

وجاء الوقت الذي أصبح فيه عدد هؤلاء الأغنياء، الذين لم يشاركوا مع رجال الدين، أو ضمن السلك الحكومي، أو في الجيش، وبفضل الرذائل التي سببتها هذه الفئات الثلاث؛ أصبح مضاعفاً، ومن ثَمَّ أصبحوا أقوياء، ووجدوا أنفسهم في حاجة إلى عذر يبرّرون به تقاعسهم. ظهر هذا العذر. لم يمرّ قرن حتى بدأ أولئك، الذين لم يخدموا في الدولة أو في الكنيسة، ولم يُبدُوا أيّ مشاركة في هذه الأعمال، ليس امتلاك الحقِ في استخدام عمل الآخرين فحسب، كما فعلت الفئات الثلاث السابقة، ولم يتوقف الأمر عند عدم تحرّجهم من

ثروتهم ومن كسلهم، بل أصبحوا أيضاً يَعدُّون موقفهم مبرراً تماماً. ازداد عدد هؤلاء الناس في وقتنا الراهن بشكل كبير، ويزداد باستمرار. المدهش أنّ هذه الفئة الجديدة، التي لم يمضِ وقتٌ طويل على الاعتراف بتحرّرها من العمل، تَعدّ نفسها الآن معذورةً تماماً، وتهاجم الفئات الثلاث السابقة: العاملين في الكنيسة وفي الدولة وفي الجيش، وتدّعي أن تحرّر هذه الفئات من العمل غير عادل، بل إنّ عملها أحياناً قد يجلب الضرر. والمدهش، أيضاً، أنّ العاملين السابقين في الحكومة والكنيسة والجيش لا يرتكزون الآن على الاختيار الإلهي، أو حتى على أهمية الدولة الفلسفية الضرورية لتطوّر الفرد، بل يلقون بهذه الركائز التي اعتمدوا عليها لفترة طويلة جانباً، ويبحثون عن تلك الركائز التي تعتمد عليها الطبقة الحاكمة الحالية، التي وجدت تبريراً جديداً، ويقف في أعلى هرم تلك الركائز العلماء والفنانون.

إذا دافع الموظف الحكومي الآن عن موقفه، وفقاً لذاكرته القديمة، بأنّه مكلّفٌ من الله بهذا، أو بأن الدولة هي شكل ضروري لتطور البشرية، فهو يفعل هذا بسبب قصوره العقلي، ويشعر بأن لا أحد يصدقه.

لكي يدافع بقوة عن نفسه، عليه أن يترك الركائز الفلسفية والدينية، ويبحث عن ركائز علمية جديدة. يجب الإشارة إلى مبدأ القوميات أو تطور الكائن الحي، كما يجب كسب تأييد الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في العصور الوسطى عندما كان من الضروري كسب تأييد رجال الدين، وكما كان الحال في نهاية القرن الثامن عشر عندما كان من الضروري تأييد الفلاسفة (عصر فريدريش الثاني والملكة ايكاترينا).

إذا تحدّث الغني، كما جرت العادة في الماضي، عن الاختيار الإلهي، أو عن أهمية الطبقة الأرستقراطية لتحقيق مصلحة الدولة، فإنّه يتحدث من منطلق تخلّفه عن العصر الذي يعيش فيه.

لكي يقدم مبررات مقنعة يجب عليه أن يسهم في عملية التقدم الحضاري، وتطوير وسائل الإنتاج، وخفض أسعار المواد الأساسية، وإقامات علاقات بين الشعوب. يجب على الغني أن يفكر ويتحدث بلغة علمية، ويجب أن يقدم تضحيات للطبقة الحاكمة، كما هو الحال بالنسبة إلى رجل الدين في الماضي، فيجب عليه أن يصدر الصحف والكتب، ويقيم المعارض ودور الموسيقا وحدائق الأطفال والمدارس التقنية. الطبقة الحاكمة هي طبقة العلماء والفنانين من اتجاه معين، الذين لديهم مبررات كاملة للتحرر من العمل. وكما ارتكزت كلّ التبريرات في الماضي على التبريرات الدينية ثم الفلسفية في ما بعد، هي الآن ترتكز على هذه التبريرات الجديدة؛ حيث بدأت هذه الطبقة بتوزيع الإعفاءات من العمل على الطبقات الأخرى. الطبقة التي تملك الآن تبريرات كاملة في تحرّرها من العمل هي طبقة العلماء، وبشكل خاص من يعملون في مجال العلم التجريبي والوضعي والنقدي والبيئي، وطبقة الفنانين المؤثرين في هذا الاتجاه. إذا استمر العالم أو الفنان، كما جرت العادة، في الحديث عن النبوءة، وعن الوحي وظهور الروح، فهو يقوم بهذا بسبب تخلّفه، ولا يقنع نفسه، فلكي يقوي موقفه، عليه أن يربط نشاطه الخاص بالعلم التجريبي والوضعي والنقدي، ويضع هذا العلم في أساس نشاطه. حينها فقط سيكون علمه أو فنه حقيقياً، وسيقف على أرض صلبة، ولن يكون هناك شكّ حول الفائدة التي يقدمها للبشرية. يستند كلّ المتحررين من واجب العمل في الوقت الحالي على التبرير القائم على العلم التجريبي والنقدي والوضعي. المبررات الفلسفية والدينية عفا عليها الزمن، وهي الآن تُطرح بخجل شديد، وتحاول أن تحلّ محل التبريرات العلمية، التي انقلبت على التبريرات القديمة، وهدمت آثارها، وحلّت محلها في كل مكان، وأعلنت انتصارها بكل شموخ.

تذرعت الكنيسة بالقول إنّه، وفقاً للإرادة الإلهية، هناك فئة تأمر، وفئة أخرى تطيع، وفئة تعيش في وفرة، وفئة في حاجة. وبناءً على هذا، كلُّ من يؤمن بالوحي الإلهي لا يمكنه الشك في شرعية هؤلاء الذين خصّهم الله بإصدار الأوامر، وبأن يصبحوا أغنياء. قالت فلسفة الدولة إنَ الدولة، في كلّ مؤسساتها، وفي كلّ طبقاتها، من حيث الحقوق والثروات، هي شكل تاريخي ضروري للظهور السليم للروح في البشرية، ولذلك كلُّ فرد يجب أن يأخذ مكانه في الدولة والمجتمع، من حيث الحقوق والثروات، ومن أجل الحياة السليمة للبشرية.

تقول النظرية العلمية: «كلّ هذا هراء وخرافة: أحدهما ثمرة فترة الفكر اللاهوتي، والآخر هو ثمرة الفترة الميتافيزيقية».

هناك منهج وحيد لدراسة قوانين حياة المجتمعات البشرية هو منهج العلم الوضعي التجريبي النقدي.

يستطيع علم الاجتماع وحده، القائم على البيولوجيا التي تستند إلى العلوم الوضعية، أن يعطينا قوانين جديدة للحياة البشرية. البشرية أو المجتمعات البشرية هي كائنات حية، تشكّلت، أو أنها في طور التشكل، وتخضع لكل قوانين تطوّر الكائنات الحية.

أحد هذه القوانين اختلاف الاتجاهات بين أجزاء الكائنات الحية. إذا كانت فئة من الناس هي التي تأمر، وفئة أخرى تنفذ، أو فئة تعيش في رفاهية، وأخرى تعمل بجدّ لكسب قوتها، فإنّ هذا لا يحدث لأنّ الله خلقهما على هذا النحو، وليس لأنّ الدولة شكلٌ من أشكال ظهور الفرد، بل لأن هناك تقسيماً ضرورياً للعمل يحدث في المجتمعات، كما يحدث عند الكائنات الحية، فبعضهم يقومون بأعمال جسدية، وآخرون يقومون بأعمال ذهنية. يُبنى التبرير السائد في عصرنا على هذه العقيدة.

مبررات علمية للكسل

تُنشر تعاليم جديدة للمسيح، وتُكتب في الأناجيل. تُرفض في البداية، ولا تلقى قبولاً، ثم تُبتَكر قصة هبوط الرجل الأول والملك الأول، وتحلّ محل تعاليم المسيح. هذه ترهات سخيفة ليس لها أساس، لكنّ الاستنتاج الطبيعي، الذي يمكن استخلاصه منها، هو أن الإنسان يستطيع العيش بصورة سلبية، وأن يَعدّ نفسه منفذاً لتعاليم المسيح. هذا الاستنتاج هو في متناول الحشود من ضعاف النفوس، ومن لا يحبون الأخلاق، إلى درجة أنّ هذه الترهات تُعامَل على أنها حقيقة، بل على أنها إلهية ووحي حقيقي، رغم أنه لم تكن هناك أيّ إشارة أو تلميح مسبَق لما يسمّى الوحي، وتصبح هذه الهرطقات هي الأساس النظري الذي بُنيت عليه أعمال علماء الدين لآلاف السنين.

ينقسم علماء اللاهوت إلى فرق مختلفة، ويبدؤون الطعن في معتقدات بعضهم، ويشعرون بأنّهم أضلّوا الطريق، ولم يعودوا يفهمون ما يقولون، ولكن يريد منهم الناس تأكيدات لعقيدتهم المحبّبة إليهم، فيتظاهرون بأنّهم يفهمون ويؤمنون بما يقولونه، ويتابعون نشر تعاليمهم. يأتي بعد ذلك الوقت الذي تصبح فيه هذه الاستنتاجات غير ضرورية، حين ينظر الناس إلى معابد الكهنة، ويرون بدهشة شديدة أنه لا شيء هناك غير الخداع الكبير الذي أخذ مكان الحقائق الواضحة والبديعة، مهما بدت أسراراً لاهوتية، ويرون بدهشة حالة العمى التي أصابتها.

وهذا ما حدث للفلسفة، لا أقصد أفكار كونفوشيوس وسقراط وابيكتيتوس؛ بل ما حدث للفلسفة الاحترافية، التي دخلت إلى غرائز ودوافع الأغنياء المتقاعسين.

انتشرت، قبل فترة قريبة، في الدائرة العلمية، فكرة فلسفة الروح، التي خرجت منها فكرة أنّ كلّ ما هو موجود هو عقلاني، وأن لا حاجة للإنسان إلى محاربة الشر، بل يجب إظهار الروح فحسب؛ لمن في الخدمة العسكرية أو في المحكمة، أو لمن يعزف على الكمان.

برز الكثيرُ من التعابير المختلفة عن الحكمة البشرية، وكانت مشهورة في القرن الثامن عشر. اشتهرت فلسفات روسو وليسينغ وسبينوزا، التي شرحت كلّ حكمة العصور القديمة، ولكن لم تنجح أيٌّ منها في جذب الناس إليها. لا يمكن القول إن نجاح هيغل اعتمد على نظريته التوافقية. كانت هناك نظريات توافقية أخرى مثل نظرية برونو[1] وديكارت ولايبنتز[2] وفيشته[3] وشوبنهاور. كان هناك سبب واحد جعل هذه التعاليم، خلال وقت قصير، هي الإيمان السائد في العالم بأسره. هذا السبب هو ذاته سبب نجاح نظرية هبوط الإنسان وتكفيره عن خطئه، وأن مُخرجات هذه النظرية الفلسفية تساهلت

---

1 جوردانو برونو (1548 - 1600) فيلسوف إيطالي شهير. كان راهباً في البداية، لكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة في ما بعد.

2 وتفريد فيلهيلم لايبنتز (1646 - 1716) فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات ودبلوماسي ومكتبي ومحام ألماني الجنسية. يشغل لايبنتز موقعاً مهماً في تاريخ الرياضيات وتاريخ الفلسفةً. أسس لايبنتز علم التفاضل والتكامل الرياضيّاتي بشكل مستقل عن إسحاق نيوتن، كما أن رموزه الرياضياتية ما زالت تستخدم بشكل شائع منذ أن تم نشرها والتعريف بها.

3 هان غوتليب فيشته (1762 - 1814) فيلسوف ألماني. واحد من أبرز مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية، الحركة التي تطورت من الكتابات النظرية والأخلاقية لإيمانويل كانط. كثيراً ما يُقدَّم فيشته على أنه الشخص الذي كانت نماذج فلسفته جسراً بين أفكار كانط والمثالي الألماني هيغل.

مع نقاط ضعف البشر. توصلت هذه المُخرجات إلى أنَ كلَ ما هو عقلاني هو جيد، ولا أحد يتحمل مسؤولية أيّ شيء. وتماماً كما في اللاهوت وفق نظرية الكفارة[1]، حدث في الفلسفة أنَهم بنوا برج بابل استناداً إلى أفكار هيغل (وبعض المتخلّفين لا يزالون يجلسون عليه حتى الآن)، وارتبكت ألسنتهم كذلك، وشعروا بأنهم لم يعودوا يفهمون ما يقولونه، وسعوا بكل جدية، دون أن يفكروا في حلول لخلافاتهم، إلى أن يحافظوا على صورتهم أمام الناس.

عندما بدأت حياتي كانت أفكار هيغل هي المسيطرة على كلّ شيء. كانت الهواء الذي يتنفّسه الجميع، وعبّرت عنها المقالات في الصحف والمجلات، وفي المحاضرات التاريخية والقانونية، وفي القصص والأطروحات الجامعية، وفي الفن، وفي الخطب والأحاديث. من لا يعرف هيغل ليس له الحق في الكلام، ومن أراد أن يعرف الحقيقة درس هيغل. كلّ شيء كان يعتمد على أفكاره. وفجأة مرت أربعون سنة ولم يبقَ من أثره شيء، وكأنه لم يكن موجوداً أبداً. المدهش في كلّ هذا أنَ المسيحية الزائفة والهيغلية سقطتا ليس لأن أحداً ما فنّدهما وقوّضهما، بل لأنه اتضح فجأة عدم الحاجة إليهما.

لو أننا سألنا أيّ شخص متعلّم عن هبوط الملاك[2] وآدم والكفارة، فإنه لن يبدأ بالجدال وإثبات عدم عدالة هذا، بل سيسأل بكل بساطة: من هو الملاك؟ ولماذا آدم؟ وما هي الكفارة؟ وما أهمية كلّ هذا بالنسبة إلي؟ كذلك الأمر بالنسبة إلى الهيغلية، فهو لن يجادل، بل سيسأل بكل دهشة: أي ملاك؟ ومن أين هو؟ ولماذا هذا؟ ولماذا يظهر؟ وما أهميته لي؟

---

1 بحسب العقيدة المسيحية، المسيح حمل العقوبة عن البشر، واستوفى العدل الإلهي حقه بتقديم نفسه كفّارة عن خطاياهم.

2 هو ملاك تمت معاقبته أو نفيه من الجنة. في معظم الأحيان إن نفياً مماثلاً هو عقوبة التمرد أو عصيان إرادة الله. وهذا الاسم هو عادةً الاسم الذي يُعطَى للشيطان في الإيمان المسيحي.

مع مرور الوقت. عندما سيطر الحكماء الهيغيليون ببراعة على عقول الناس؛ حيث صدقهم الناس تصديقاً أعمى، ووجدوا تأكيدات للأفكار، واقتنعوا بأنّ ما بدا لهم غير واضح ومتناقضاً هو واضح مثل عين الشمس في أفكار الفلسفة العالية، ولكن جاء الوقت الذي تغيّرت فيه هذه النظريات، وحلّت محلها نظريات جديدة، وفقدت النظريات القديمة أهميتها، فنظرت الجماهير إلى معابد الكهنة السرّية، ورأت أن لا شيء هناك غير بعض الأفكار الغامضة التي لا معنى لها. أذكر هذا جيداً. يقول أهل العلم المعاصر: «يحدث هذا بسبب الهراء الذي خلّفته فترة الأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية. أما الآن فالعلم الوضعي النقدي هو السائد، وهو لا يخدع الناس؛ لأنه يعتمد على الاستقراء والتجربة. معارفنا ليست متزعزعة، كما في الماضي، وهناك حلول لكل قضايا البشرية فقط من خلال معارفنا».

هذا ما قاله حرفياً اللاهوتيون، الذين لم يكونوا حمقى، بل نعرف أنهم كانوا أصحاب عقول كبيرة بيننا، وقال الكلام ذاته أنصار نظرية هيغل، كما أذكر، بالدرجة العالية من الثقة ذاتها، ونال اعترافاً واسعاً بين من يسمون أنفسهم المثقفين. ولم يكونوا حمقى، على الأقل أتباع هيرزن[1] وستانكيفيتش[2] وبيلينسكي[3]. ولكن من أين أتت هذه الظاهرة المثيرة للانتباه، والمتمثلة في تلقين أصحاب العقول الذكية، بثقة كبيرة، تعاليم فاقدة للمعنى وغير مقنعة، وقبلها الناس بكل سرور؟ السبب هو أن هذه التعاليم التي تلقوها تبرر لهم حياتهم السيئة.

---

1 الكسندر إيفانوفتش هيرزن (1812 - 1870) كاتب ومفكر روسي ذو توجه غربي. عُرف بأنه المسؤول عن إنشاء مناخ سياسي ملائم لتحرر الأقنان في 1861. سيرته الذاتية «ماضي وأفكار» معروفٌ أنها عينة جيدة للأدب الروسي.

2 نيكولاي ستانكيفيتش (1813 - 1840) فيلسوف وشاعر روسي.

3 فيساريون جريجوريفيتش بِلينسكي (1811 - 1848) هو ثوري وناقد أدبي وعالم جمال روسي.

كتب صحفي بريطاني مشهور مقالاً مطوّلاً عن الإحصاء السكاني، هذا الصحفي الذي أصبحت كتبه الآن منسية، ويُنظر إليها على أنها فارغة تماماً؛ حيث ابتكر في مقاله قانوناً تخيّليّاً افترض فيه أن زيادة الموارد الغذائية ليس لها علاقة بالزيادة السكانية. يعطي هذا الكاتب قانونه الوهمي شكل علاقة رياضية ليس لها أي أساس من الصحة، ثم يعرضه على الملأ. تجعلنا الأفكار الساذجة وقلة الكفاءة في هذا المقال أن نفترض أن المقال لن يلقى أيّ اهتمام، وسوف يُنسى، كما هو حال مقالات الكاتب الأخرى، لكن ما حدث هو العكس؛ حيث أصبح هذا الكاتب، الذي كتب هذا المقال، مرجعاً علمياً، وحافظ على مكانته هذه قرابة نصف قرن. إنه مالتوس[1]! نظرية مالتوس التي تقول إن زيادة عدد السكان تتم وفق متوالية هندسية، بينما تزداد الموارد الغذائية وفق متوالية حسابية، وأصبحت اقتراحاته لابتكار وسائل ناجعة وطبيعية للحد من الزيادة السكانية حقائق علمية لم تخضع للاختبار، بل استُخدمت على أنها مُسلّمات للنتائج المستقبلية.

هكذا تصرف المتعلمون والمثقفون، وكذلك كانت هناك ثقة عمياء في أوساط المتقاعسين عن العمل بالفتوحات العظيمة التي قدمها قانون مالتوس. لماذا حدث هذا؟ يبدو أنها نتائج علمية ليس لها أيّ علاقة بغرائز عامة الناس، لكنها لا تملك هذه القدسية إلا عند أولئك الذين يؤمنون بأنّ كل ما يقوله العلم، مثل الكنيسة، هو صحيح ولا يقبل الخطأ، ولا يدركون أنه نتاج أفكار أشخاص، مثل كل البشر، ضعفاء ومعرضين للخطأ، وضعوا كلمة «العلم» بدل أن يقولوا «أفكار الناس» لكي تبدو أنّه مهمة. كان يجب استخلاص نتائج عملية من نظرية مالتوس لإثبات أنّها نتاج بشري، ولها أهداف محدّدة للغاية.

---

1 توماس روبرت مالتوس (1766 - 1834) باحث سكاني واقتصادي سياسي إنجليزي. مالتوس مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني. في العصر الحديث تتم منادته بتوماس مالتوس رغم أنّه في حياته استخدم اسمه الأوسط روبرت.

ما يمكن استخلاصه من أفكار مالتوس هو الآتي: إنّ حالة الفقر، التي يعاني منها الشعب الكادح، ليست بسبب قساوة وأنانيّة وبلاهة الأغنياء وأصحاب السلطة، بل هي بسبب قانون ثابت لا يعتمد عليه الناس في تحليلاتهم، وإذا كان أحدٌ ما ملاماً في هذا فهم العمال أنفسهم؛ إذ لماذا يأتون إلى هذه الحياة وهم يدركون أنهم لن يجدوا ما يأكلونه؟ إنّ الأغنياء وأصحاب السلطة لا ذنب لهم في شيء، ويستطيعون إكمال حياتهم بالطريقة التي يعيشونها الآن. جعلت هذه النتائج القيّمة، بالنسبة إلى حشد من المتقاعسين عن العمل، المتعلّمين يتغاضون عن النتائج الجائرة وغير الصحيحة وغير المثبتة، كما جعلت جموع المثقفين؛ أي المتقاعسين عن العمل، الذين كان لديهم حدسٌ بما ستنتهي إليه هذه النتائج، يتقبلونها بكلِّ رحابة صدر، ويصادقون على صحّتها، ويحتفظون بها لمدة نصف قرن؛ لأنها تبرّر لهم حياة الرذيلة التي يعيشونها.

أليس هذا هو ذاته سبب ثقة الناس بما يقوله العلم الوضعي النقدي التجريبي، وسبب تقبّلهم وإجلالهم للتعاليم المقدّمة إليهم. تبدو طريقة تشكل نظرية التطور غريبة في البداية (هي مثل الكفارة في اللاهوتية، فهي، بالنسبة إلى الأغلبية، تعبير شائع لعقيدة جديدة تماماً)؛ فيمكن أن تبرّر للناس أخطاءهم، ويبدو أن النظرية العلمية للتطوّر لها علاقة بالحقائق فقط، ولا تفعل شيئاً آخر غير ملاحظة الحقائق.

هذا ما يبدو ظاهرياً فقط، تماماً كما بدا مع تعاليم هيغل في مستويات كبيرة، وبشكل خاص مع تعاليم مالتوس. بدت الهيغلية وكأنّها مشغولة فقط بالبناء المنطقي، وليس لها أيّ علاقة بحياة الناس، وهذا ما حدث مع نظرية مالتوس؛ حيث بدا أنها مشغولة فقط ببيانات الإحصاء السكاني، لكن هذا ما يبدو ظاهرياً فقط.

العلم الحديث، أيضاً، مشغول بالحقائق فقط، فهو يدرس الحقائق، ولكن ما هي هذه الحقائق؟ لماذا يدرس حقائق بعينها دون غيرها؟

يفضل أنصار العلم الحديث أن يعلنوا بكلّ فخر وثقة أنَهم لا يدرسون إلا الحقائق، وهم يتصوّرون أنَ زعمهم هذا يتضمَن معنى ما.

لا يمكن دراسة الحقائق فقط؛ لأنَ الحقائق التي قد تكون موضوعاً لدراسات لا يمكن حصرها (بالمعنى الحرفي للكلمة). قبل دراسة الحقائق يجب الإلمام بنظريات يمكن على أساسها دراسة الحقائق؛ أي اختيار حقائق معينة من بين عدد لا نهائي من الحقائق. هذه النظريات موجودة، وبصورة محددة أيضاً، رغم أنَ الكثير من رواد العلم الحديث إمّا أنّهم ينكرونها؛ أي لا يريدون معرفتها، وإمّا أنهم أحياناً لا يعرفونها حقاً، وأحياناً يعرفونها ويتظاهرون بأنَهم لا يعرفونها. وهذا ما حدث تماماً مع كلّ العقائد التي حكمت وسيطرت على أفكار الناس، ومع اللاهوتية ومع الفلسفة. تُطرح أسس أيّ عقيدة على شكل نظريات، وما يسمّونهم العلماء يبتكرون فحسب استنتاجات جديدة من الأسس المطروحة. وعلى الرغم من تجاهلهم لبعض هذه الاستنتاجات، يجب أن تكون الأسس النظرية موجودة. يختار العلم الحديث حقائقه على أسس نظرية محددة يعرفها أحياناً، ولا يريد معرفتها أحياناً أخرى، وأحياناً لا يعرفها حقاً، رغم أنَ هذه الأسس موجودة.

تقول النظرية إنّ البشر هم كائنات حيّة غير ميتة، وجزيئات عضويّة لكلّ منها وظيفة محدّدة لخدمة المجموع. تماماً مثل الخلايا التي يتألّف منها الكائن الحي، فهي تقسم العمل فيما بينها في صراعها من أجل وجود الكائن ككل. تقوّي كفاءة معينة، وتضعف أخرى، وتندمج جميعها في كائن حي واحد، لكي تلبي بشكل أفضل متطلبات الكائن الكلي. وتماماً مثل المجتمعات الحيوانية، كالنمل والنحل؛ العمل ينقسم في مجتمع النحل بين النحلات، فالأم تضع البيض، وتقع وظيفة الإخصاب على عاتق الذكور، أما النحلات العاملات فتعمل من أجل حياة الخلية ككل، وهذا ما يحدث تماماً في الجنس البشري، وفي المجتمعات البشرية. ولإيجاد قانون حياة الإنسان، يجب دراسة

قانون حياة وتطور الكائنات الحية. نجد في حياة وتطور الكائنات الحية القوانينَ الآتية: قانون التفاضل والتكامل، والقانون الذي يقول إنّ أيّ ظاهرة تنتج عنها أكثر من نتيجة، وقانون عدم ثبات النوع الواحد. كلّ هذا يبدو كلاماً سليماً، لكننا نحتاج فقط إلى استخلاص نتائج من كلّ هذه القوانين، حينها سنرى أنّها تذهب في ذلك الاتجاه الذي ذهبت إليه قوانين مالتوس. تميل هذه القوانين إلى الاعتراف بشيء واحد، وهو أن تقسيم النشاط القائم في المجتمعات البشرية هو تقسيم عضوي؛ أي إنه ضروري، والنظر من ثَمَّ إلى الوضعية غير العادلة التي نعيشها عندما نحرّر أنفسنا من العمل، ليس من زاوية العقلانية والعدل، بل على أنها حقيقة مؤكدة تؤكد القانون العام.

بررت فلسفة الروح كذلك أيّ قسوة ورذيلة، لكنّها خرجت على شكل تعابير فلسفية، ومن ثَمَّ لم تكن صحيحة. أمّا العلم فأخرج كلّ شيء على أنّه علمي، ولذلك هو من المؤكّدات التي لا لُبس فيها.

كيف يمكننا ألا نقبل هذه النظرية الرائعة! يجب علينا فقط اعتبار المجتمع البشري موضوعاً للدراسة، ويمكننا حينها امتصاص جهود الآخرين بكل هدوء، والتسبب في موتهم، ونعزّي أنفسنا بفكرة مفادها أنّ النشاط الذي نقوم به، مهما كان هذا النشاط، هو نشاط وظيفي للكائنات البشرية ككل، وحينها يستحيل حتى التساؤل عن مدى عدالة استغلالنا لعمل الآخرين، فإنني أفعل ما تقبله نفسي فحسب، ويستحيل كذلك التساؤل حول عدالة تقسيم العمل بين خلية ذهنية وخلية عضلية.

كيف يمكننا ألا نتقبل هذه النظرية الرائعة؛ حيث يكون لدى كلّ منّا ضمير مخفيّ في جيبه إلى الأبد، ونعيش حياة حيوانية همجية، ونحن نشعر بأنّنا نعتمد على ركيزة العلم القوية التي تؤيدنا!

بُنيت مبررات كسل وقسوة الناس في عصرنا على أساس هذا المذهب الجديد.

أوهام صادق عليها العلم

ظهر هذا المذهب قبل خمسين سنة تقريباً. كان أهمّ مؤسسيه العالم الفرنسي كونت. جمع كونت بين ميله إلى النظرية المنهجية وميوله الدينية، فقد وصل إلى الفكرة القديمة التي عبّر عنها أغريبا مينيسيوس[1]، وبعد تأثره بالأبحاث الفيزيولوجية الجديدة لبيتشا[2] في ذلك الوقت، المتمثلة في أنّ المجتمعات البشرية، أو البشرية عامة، يمكن اعتبارها كائناً حياً كاملاً، والبشر هم أجزاء حية لأعضاء مختلفة لهذا الكائن، يملك كل منها وظيفة محددة تخدم الكائن الكلي. أعجبت هذه الفكرة كونت؛ حيث بنى عليها النظرية الفلسفية، وأبهرته إلى درجة أنه نسي أنّ النقطة التي يمكن أن تخرج منها ليست أكثر من معادلة رياضية جميلة، على شكل حكاية، لكنّها لا تصلح أساساً للعلم بأيّ حال من الأحوال.

تعاطى مع كلّ فرضية يميل إليها، كما يحدث غالباً، على أنّها من المُسلّمات، وأقنع نفسه بأنّ نظرياته مبنية تماماً على أسس قوية. وفقاً لنظريته، طالما أن البشرية هي كائن حي، فإنّ التعرف إلى ماهية الإنسان، وماهية

---

1 أغريبا مينيسيوس (توفي 503 ق.م) قائد عسكري وسياسي روماني كان يحكي للجنود حكاية عن أجزاء من جسم الإنسان، وكيف أنّ لكلّ منها غرضه الخاص في الوظيفة الأكبر للجسم. اعتقدت أعضاء الجسم الأخرى أنّ المعدة ليس لها عمل؛ لذلك قررت التوقف عن تغذية المعدة. شعرت الأعضاء الأخرى بالتعب وبعدم القدرة على مواصلة أداء وظائفها، حينها أدركوا أن للمعدة غرضاً تؤديه، وأنّهم لا يستطيعون العمل من دونها. ترمز المعدة في القصة إلى طبقة النبلاء، بينما ترمز الأعضاء الأخرى إلى العامّة.

2 كزافييه بيتشا (1771 - 1802) عالم فيزيولوجي وطبيب فرنسي شهير.

علاقته بالعلم، لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال معرفة خصائص هذا الكائن الحي. لمعرفة هذه الخصائص هناك إمكانية لدى الإنسان لمراقبة الكائنات الحية الدنيا (التي تقع في أسفل السلم التطوري)، واستخلاص سلوكيات من حياتها. لذلك، أولاً، المنهج الحقيقي والوحيد للعلم، وفقاً لكونت، هو المنهج الاستقرائي، والعلم الحقيقي هو فحسب ذلك العلم الذي يملك أساسه التجريبي؛ وثانياً، الهدف النهائي للعلم هو علم جديد عن الكائن الحي التخيّلي الذي يمثل البشرية، أو المجتمعات العضوية، وهذا العلم المتخيل الجديد هو علم الاجتماع. وفقاً لوجهة النظر هذه، كلّ المعارف السابقة كانت كاذبة، وكلّ تاريخ البشرية، وفق معناها الذاتي، ينقسم إلى ثلاث، أو بالأصح، إلى فترتين: فترة اللاهوتية والميتافيزيقية، من بداية التاريخ حتى كونت، والفترة الحالية، وهي فترة العلم الحقيقي الوحيد، العلم الوضعي، الذي بدأ من كونت. كلّ هذا سيكون جيداً جداً لولا خطأ واحد فقط، هو أنّ البناء كان مقاماً على الرمال، وعلى تأكيدات اعتباطية وغير صحيحة بأنّ البشرية كائن حي. اعتباطية لأننا لكي نعترف بوجود الكائن الحي البشري غير الخاضع للملاحظة، فإننا نملك حقاً مماثلاً في المقابل للاعتراف بوجود الإله الثالوث بأقانيمه الثلاثة، وغيرها من الافتراضات اللاهوتية المماثلة.

لم تكن هذه التأكيدات صحيحة؛ لأن مفهوم الكائن الحي ارتبط بمفهوم البشرية؛ حيث يغيب عند الإنسان المؤشر الحقيقي للكائن الحي، وهو مركز الشعور والإدراك[1].

---

1 نحن نطلق على الفيل وعلى البكتيريا اسم كائنات حية، لأننا فحسب نفترض، وفق مبدأ القياس، وجود روابط للمشاعر أو الوعي التي نعرفها في ذواتنا، لكن هذه الخاصية غائبة في المجتمعات البشرية. ولذلك مهما توافرت خصائص أخرى للكائن الحي، لا يمكن اعتبار البشرية كائناً حياً من دون هذه الخاصية (الكاتب).

ولكن بغضّ النظر عن اعتباطية وعدم صحة ما ذهبت إليه الفلسفة الوضعية، ذلك لم يمنع ما يسمّى العالم المتحضر من الميل الشديد نحوها. اللافت في هذا أنّ العالم المتحضر تقبّل الجزء الأول فقط من فلسفة كونت، المؤلَفة من جزأين: الفلسفة الوضعية والسياسة الوضعية؛ لأن الفلسفة الوضعية بررت الشرور البشرية اعتماداً على أسس تجريبية جديدة. أما السياسة الوضعية التي عبّرت عن الواجبات الأخلاقية والإيثار التي استُخلِصت من اعتبار البشرية كلّها كائناً حياً واحداً، فلم يقتصر الأمر على اعتبارها غير مهمة، بل تعدى إلى كونها تافهة وغير علمية.

هذا ما حدث كذلك مع أفكار كانط بجزأيها. تقبّل الوسط العلمي نقد العقل الخالص، أمّا نقد العقل العملي، الذي يتضمّن جوهر الأخلاق، فلم يلقَ إلا الرفض. عُدَّت كلّ أفكار كونت، التي تغاضت عن الشر السائد، أفكاراً علمية، بينما قبلت الجماهير الفلسفة الوضعية القائمة على افتراضات اعتباطية وغير صحيحة، والتي لم تكن مبنية على أسس قوية، ولذلك تزعزعت ولم تستطع الصمود وحدها.

ظهرت أفكار ليست جديدة، ضمن تلك الألعاب الخاملة، عند من يسمون أنفسهم ممثلي العلم، تتضمن تأكيدات اعتباطية وغير صحيحة، بزعمها أن الكائنات الحية تولّد بعضها من بعض، ولم ينتج كلّ منها عن كائن حي واحد فحسب، بل عن كائنات كثيرة؛ أي بعد مرور فترة طويلة من الزمن، بعد مليون سنة مثلاً، لن يأتي السمك والبط من سلف واحد فحسب، بل سينتج عن سرب من النحل حيوان واحد. تلقف العلم هذه الفرضية الجائرة وغير الصحيحة، واحتفى بها. هذا الادّعاء اعتباطي لأنه لا أحد رأى كيف تتولّد كائنات حية من أخرى، ولذلك إن الفرضية عن أصل الأنواع تبقى فرضية، وليست حقيقة عملية. وغير صحيحة لأن الإجابة عن سؤال أصل الأنواع بأنها جاءت نتيجة قانون الوراثة والتكيف، خلال فترة زمنية طويلة جداً، لم

تكن إجابة، بل إعادة للسؤال بصيغة جديدة فحسب. وفقاً لحل القضية التي طرحها موسى (في السجال الذي يتجلى فيه المعنى الكامل لهذه النظرية) يتضح أن اختلاف أنواع الكائنات حدث وفق إرادة الله وبقدرته المطلقة. يتضح، وفقاً لنظرية التطور، أن اختلاف الكائنات الحية حدث بالمصادفة، وضمن ظروف وراثية وبيئية مختلفة خلال فترة زمنية غير محدودة. تؤكد نظرية التطور، إذا تكلمنا بلغة بسيطة، بأنه فقط، وبالصدفة، خلال فترة زمنية طويلة غير محدودة، يمكن أن ينتج أي شيء تريده عن أي شيء آخر تختاره لا على التعيين. هذه ليست إجابة عن السؤال، بل إن السؤال نفسه يتكرّر لكن بصيغة مختلفة؛ حيث توضع المصادفة مكان الإرادة، ويُنقل الفاعل المشترك في اللامحدودية من القدرة المطلقة إلى الوقت. هذا الادّعاء الجديد يعزِّز الادعاء السابق لكونت. وبالإضافة إلى ذلك، ووفق الاعتراف الساذج لمؤسس النظرية، داروين، إنّ فكرته استُنبطت من قانون مالتوس، ولذلك وضعت نظرية مواجهة الكائنات الحية والبشر من أجل الوجود، بوصفها قانوناً أساسياً للوجود بأكمله. وهذا ما ينتظره حشد المتقاعسين عن العمل لتبرير كسلهم.

ساندت نظريتان تستندان إلى أسس ضعيفة بعضهما بعضاً، وأصبحتا ثابتتين. حملت كلتا النظريتين في جوهريهما فكرة قيّمة لدى الناس، وهي أن البشر لا يتحملون وزر الشر المنتشر في المجتمعات البشرية، وأن نظام الحياة الحالي هو النظام الأمثل. ولاقت هذه النظرية الجديدة قبولاً مقروناً بثقة تامة وحماسة شديدة. وهكذا قام مذهب علمي جديد على افتراضين اعتباطيين غير صحيحين، وقُبلا كما تُقبل العقائد الدينية.

تشبه هذه العقيدة، بشكل غير عادي، من حيث الشكل والموضوع، عقيدة الكنيسة المسيحية. يتجلى تشابه العقيدتين من حيث الموضوع في أنّ كلتيهما تعطي الواقع معنى تخيّلياً زائفاً. وهذا المعنى الزائف يصبح هو موضوع البحث. أُعطِي المسيح الموجود واقعياً، في العقيدة المسيحية،

المعاني والصفات التخيّلية للإله نفسه، كما أُعطِي البشر الموجودون واقعياً، في العقيدة الوضعية، المعنى والخصائص التخيّلية للكائنات الحية. أما تشابههما من حيث الشكل فهو مذهل؛ حيث يتم التعاطي مع الحقيقة التي تصدر عن فئة معينة من الناس على أنها الحقيقة الوحيدة الدامغة والصحيحة. تُعدُّ الطريقة التي يفهم بها من يسمون أنفسهم، في العقيدة المسيحية، قديسين، وحياً إلهياً، وأنها هي وحدها التي تتمتع بالقداسة وتمثل الحقيقة، وكذلك في العقيدة الوضعية، يرى من يسمون أنفسهم علماء أن الطريقة، التي يفهمون بها العلم، هي وحدها الطريقة الصحيحة التي لا تقبل الشك. كما رأى المسيحيون أن تأسيس كنيستهم هو أساس المعرفة الحقيقية لله، وقالوا، من باب المجاملة، إنّ المؤمنين القدماء كانت لهم كذلك كنيستهم التي عرّفتهم على الحقيقة. كذلك العلم الوضعي الذي يدّعي أن أساسه بدأ من أفكار كونت، لكنّ بعض مفكريه يعترفون، من باب المجاملة، بوجود العلم في الماضي، وذلك فحسب في ما يتعلق ببعض ممثليه، مثل أرسطو.

تنكر الكنيسة، ومثلها الفلسفة الوضعية، بشكل كامل، معارف كلّ البشرية الباقية، وتَعدّان كلّ المعارف التي هي خارج معارفهما خاطئة. يستمر التشابه ويأخذ بعداً جديداً: تماماً كما ساندت العقيدة القديمة لهبوط الإنسان والكفّار بموت المسيح العقيدةَ اللاهوتية الأساسية؛ أي ألوهية المسيح والثالوث، وشكلت هاتان العقيدتان التعاليم الشائعة للكنيسة، كذلك تأتي في عصرنا عقيدة قديمة، تأخذ معنى جديداً، لتؤيد العقيدة حول الكائن الحي البشري، وتتشكل من هاتين العقيدتين النظرية العلمية للتطور.

تمثل العقيدة الجديدة في كلا المذهبين، الكنيسة والفلسفة الوضعية، ضرورةً لدعم العقيدة القديمة، ولا يمكن فهمها إلا من خلال ربطها بالعقيدة الأساسية.

إذا لم يكن سبب هبوط المسيح إلى الأرض مفهوماً ولم يكن واضحاً لمن يؤمن بألوهية المسيح، فإنَ عقيدة الكفارة تشرح له هذا اللبس. وإذا لم يكن واضحاً، لمن يؤمن بأن البشرية كائن حي، سببُ اعتبار البشرية كائناً واحداً، فإن عقيدة التطور تشرح له ذلك.

عقيدة الكفارة ضرورية للتوفيق بين التناقض والحقيقية في العقيدة الأولى. نزل الإله إلى الأرض لكي يخلّص البشر، لكنهم لم يتمتعوا بالخلاص. إذاً، كيف يُقبل هذا التناقض. تقول عقيدة الكفارة: «هو أنقذ المؤمنين بالكفارة، وإذا آمنتم بالكفارة فسوف يخلّصكم». كذلك عقيدة التطور ضرورية لتمرير التناقض في حقيقة العقيدة الأولى التي تقول إن البشرية كائن حي، ونحن لا نرى توافر الخصائص الرئيسة للكائن الحي، كيف يصحّ هذا؟ تجيب عقيدة التطور: «البشرية هي كائن في حالة تشكل». إذا اقتنعت بهذه الفرضية فيمكنك اعتبار البشرية كائناً حياً. وكما يبدو لكلّ من تحرّر من خرافات الثالوث وألوهية المسيح استحالةَ حتى فهم هدف ومعنى عقيدة الكفارة، فإن هذا المعنى لا يمكن أن يُشرح إلا من خلال العقيدة الأولى، التي تقول بألوهية المسيح، كذلك الأمر بالنسبة إلى من تحرَر من وهم الوضعية، الذي يبدو له مستحيلاً حتى فهم معنى فرضية أصل أنواع التطور، ولا يمكن شرح هذا المعنى إلا من خلال معرفة العقيدة الأساسية التي تدعي أن البشرية كائن حي. وكما أن تفاصيل وخفايا اللاهوتية مفهومة فحسب لأولئك الذين يؤمنون بها؛ كذلك خفايا علم الاجتماع، التي تشغل عقول الناس كأحدث العلوم وأكثرها تعمقاً، هي مفهومة فحسب لمن يؤمنون بها.

هناك وجه آخر لتشابه هاتين العقيدتين هو أن كلتيهما تضمنت مفاهيم قُبلت على أنها من المُسلّمات، دون إخضاعها للبحث، وتصبح هذه المفاهيم أساساً لأكثر النظريات غرابة. وعَدَّ مبشرو هذه النظريات أنفسهم، بعد أن أتقنوا طريقة تأكيد هذه النظريات، قديسين في علم اللاهوت وفي المعرفة

العلمية؛ أي إنهم منزّهون عن الخطأ، لكنّهم، في الوقت ذاته، توصلوا إلى أكثر الافتراضات اعتباطية التي لا يمكن تصديقها، وليس لها أيّ أساس ترتكز عليه، وقدموها بكلّ جدية وإثارة، وهي تختلف جذرياً من حيث تفاصيلها مع النظريات المناقضة لها، لكنّها تشترك معها، بالقدر ذاته من اختلاف التفاصيل، في العقائد الأساسية.

يعبّر سبنسر[1]، وهو الأب الروحي لهذه العقيدة، على سبيل المثال، في أحد بحوثه الأولى عن هذه العقيدة كما يأتي:

تتشابه المجتمعات والكائنات الحية في النقاط الآتية:

في أن كتلتها تنمو، بدءاً من مجاميعها الصغيرة، بشكل غير ملحوظ؛ حيث يصبح بعضها أكبر بمقدار عشرة آلاف ضعف حجمها الأصلي.

في أن بنية كلّ منهما تبدو بسيطة في البداية، ويمكن اعتبارهما بلا بنية، لكنهما تكتسبان بنية معقدة أثناء نموهما.

على الرغم من عدم وجود أيّ علاقة بين أجزاء كلّ منهما في المراحل المبكرة غير المتطورة، تتطور هذه العلاقة باستمرار، لتصبح في النهاية قوية إلى درجة أنّ عمل وحياة كلّ جزء يصبح مشروطاً بعمل وحياة الأجزاء الأخرى.

إن حياة وتطور المجتمع مستقلان ويمتدان لفترة أطول من حياة وتطور أيٍّ من الوحدات المكونة له، التي تتوالد وتتكاثر وتتفاعل وتعمل وتموت

---

1 هربرت سبنسر: (1820 - 1903) فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب (الرجل ضد الدولة)، الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح «البقاء للأصلح»، رغم أن القول ينسب عادة إلى داروين. وقد ساهم سبنسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطاه أبعاداً اجتماعية، في ما عرف لاحقا بـ «الاجتماعية». وهكذا يعد سبنسر واحداً من مؤسسي علم الاجتماع الحديث.

بشكل منفصل بعضها عن بعض، فيما يستمر الجسم السياسي المتكوّن منها، جيلاً بعد جيل، ويتطور حجمه وبنيته الكمالية ونشاطه الوظيفي.

تأتي بعد ذلك نقاط الخلاف بين الكائنات الحية والمجتمعات، ويجري البرهان على أنّ الاختلاف بينهما ظاهري فحسب؛ أي إن الكائنات الحية والمجتمعات متشابهة تماماً.

سيطرح الشخص المحايد هذا السؤال مباشرة: ماذا تقولون؟ هل البشر كلهم كائن حي واحد أو ما شابه؟ أنت تقول إن المجتمعات مشابهة للكائنات الحية من خلال هذه الدلائل الأربعة، لكنّها غير صحيحة إطلاقاً. أنت تأخذ بعض خصائص الكائن الحي وتطبقها على المجتمعات البشرية. أنت أتيت بأربع نقاط تشابه، ثمّ أوردت نقاط الاختلاف، التي تبدو غير متحققة من وجهة نظرك فحسب، ثم تخلص إلى أن المجتمعات البشرية يمكن اعتبارها كائنات حية. هذه ليست إلا لعبة جدلية خاملة، وبناءً عليها، يمكنك أن تعتبر أيّ شيء تختاره بشكل عشوائي على أنّه كائن حي.

سأبدأ من النقطة الأولى، بأيّ مثال يتبادر إلى ذهني، الغابة مثلاً، التي تُزرع وتنمو في حقل ما، وتتوسع:

تبدأ صغيرة، وينمو حجمها بشكل غير ملحوظ، وهو ما يحدث بالضبط في الحقول، عندما تنمو ببطء ثم تكتسي بالغابات.

البنية الأولية بسيطة، ثمّ تزداد تعقيداً، وهذا ما يحدث في الغابة، حيث تنمو أشجار البتولا والصفصاف والبندق بشكل منفرد ومستقيم، ثم تتشابك أغصانها.

تتقوى العلاقة بين الأجزاء؛ حيث إنّ حياة كلّ جزء تعتمد على حياة ونشاط الأجزاء الأخرى، وهذا متحقّق في الغابة؛ حيث تحافظ أشجار الجوز على جذوعها دافئة (إذا قطعنا أشجار الجوز فستتجمد الأشجار الأخرى من البرد). تحمي الشجيرات، التي تنمو في الأسفل، من الرياح، وتستمر

الأشجار المثمرة في الإنتاج. أمّا الأشجار العالية وكثيرة الأوراق فتوفّر الظل، وهكذا إنّ حياة كلّ شجرة تعتمد على الأشجار الأخرى.

يمكن لبعض المكونات أن تموت، لكنّ الحياة تستمر، وفي مثالنا عن الغابة، تموت بعض الأشجار، لكنّ الحياة في الغابة تستمر وتتطور.

تشابهٌ آخر بين هذه العقيدة وعقيدة الكنيسة المسيحية وأيّ عقيدة أخرى تقوم على تقبّل بديهيات من خلال عدم قابليتها للنفاذية ضد المنطق. بعد أن صوّرتَ الغابة على أنّها كائن حي وفق هذه النظرية، هل تعتقد أنّك أثبتَّ لأتباع نظرية الكائن الحي عدم صحّة ادّعائهم؟ لا، أبداً.

تعريفهم للكائن الحي هو تعريف غير دقيق وفضفاض، ويمكنهم أن ينسبوا هذا التعريف إلى كل ما يريدونه. سيقولون إنّه يمكن اعتبار الغابة كائناً حياً. الغابة هي مجموعة من الأجزاء االمترابطة فيما بينها بشكل خاص، والتي لا يدمر بعضها بعضاً، ويمكن أن تربط بين أجزائها علاقة أكثر قوة، مثل العلاقة بين أعضاء سرب النحل، وتصبح حينها كائناً حياً. هناك سؤال منطقي سيُطرح حينئذٍ: إذا كان الأمر كذلك، فإنّ الطيور والحشرات والأعشاب في تلك الغابة تربط بينها علاقات متبادلة، ولا يقضي بعضها على بعض، فهل يمكن اعتبارها مع الأشجار كائناً حياً أيضاً؟ سيوافقون على هذا الطرح. يمكن اعتبار أيّ تجمّع للمخلوقات الحية، التي ترتبط فيما بينها بعلاقات متبادلة، ولا يدمّر بعضها بعضاً، كائناً حياً، وفق نظريتهم. يمكننا تأكيد أنّ هناك علاقة وتبادلاً بين أشياء نختارها لا على التعيين، ويمكننا، من خلال قانون التطور، أن نختار أشياء بشكل عشوائي، وأن ندّعي أنها نتجت عن أشياء أخرى، خلال فترة زمنية طويلة جداً.

لا يمكننا إثبات زيف هذا الادعاء لأولئك الذين يؤمنون بالإله الثالوث، ولكن يمكننا أن نوضح لهم أن إيمانهم ليس معرفياً، بل قائماً على الإيمان بالمُسلّمات، وإذا كانوا يدعون أنّ عدد الآلهة هو ثلاثة، فلدينا الحق أيضاً

في ادعاء أنّ عددهم هو 17.5 إله، ويمكن بالطريقة نفسها، وبدرجة تأكيد أكبر، أن نثبت لأنصار العلم الوضعي ونظرية التطور زيف فرضيّاتهم. يمكنني أن أثبت أيّ شيء أريده بناءً على هذا «العلم». إن أكثر ما يثير الدهشة أن العلم الوضعي ذاته يَعدُّ المنهج العلمي مؤشراً على المعرفة الحقيقية، وقد حدد عناصر هذا المنهج العلمي.

يسمي الفطرة السليمة منهجاً علمياً، لكن هذه الفطرة السليمة تفضح، في كل خطوة، مغالطات هذا العلم.

عندما أدرك أولئك الذين شغلوا مناصب «القديسين» أنه لم يعد هناك أيّ قدسية لهم، وأنّهم ملعونون مثل البابا والسينودوس[1]، لم يكتفوا بلقب «قديسين»، بل سموا أنفسهم «الأكثر قدسية».

عندما أدرك العلم أنه لم يعد يتضمّن أيّ أفكار سليمة، أطلق على نفسه اسم «العلم الذي يسعى من أجل العلم».

1 السينودوس هو ملتقى فكري فاتيكاني يضم نحو 250 أسقفاً ورئيس أساقفة وكاردينالاً من مختلف دول العالم للبحث في مسائل متعلقة بالأصولية المسيحية والعلاقة بين الدين والعلم.

التقسيم الصحيح للعمل

إنّ تقسيم العمل هو قانون الوجود كله، ولذلك يجب أن يكون مطبقاً في المجتمعات البشرية. قد يبدو هذا الكلام منطقياً جداً، ولكن يبقى السؤال الآتي: هل تقاسم العلم هذا، الذي أراه الآن في محيطي، هو الشكل الأمثل لتقسيم العمل؟ وإذا رأى الناس أنّ طريقةً ما لتقسيم العمل هي غير منطقية وغير عادلة، فلا يمكن لأيّ علم أن يثبت لهم أنّ ما يرونه غير منطقي وغير عادي هو الشكل الأمثل الذي يجب أن يستمر. أثبتت النظرية اللاهوتية أنّ السلطة هي من الله، وهذا ممكن جداً، ولكن يبقى السؤال: من يمتلك السلطة: ايكاتيرينا أم بوغاتشيف[1]. لم تستطع أيّ تفاصيل للنظرية اللاهوتية أن تحلّ هذه المعضلة. أثبتت فلسفة الروح أنّ الدولة شكلٌ من أشكال تطور الفرد، ولكن يبقى السؤال: هل تُعدّ دولة نيرون أو جنكيزخان شكلاً من أشكال تطور الفرد؟ ولا يمكن لأيّ فلسفة متعالية[2] أن تحلّ هذا الالتباس. والكلام ذاته يُقال عن المعرفة العلمية.

---

1 كان تمرد بوغاتشيف، الذي يُعرف أيضاً بحرب الفلاحين أو تمرّد القوزاق (1773 - 1775)، الثورة الرئيسة من سلسلة التمردات الشعبية التي وقعت في الإمبراطورية الروسية عام 1762 بعد أن استولت كاثرين الثانية على السلطة.

2 الفلسفة المتعالية هي حركة فلسفية تطورت في نهايات عشرينيات القرن الثامن عشر وثلاثينيات القرن الثامن عشر في الولايات المتحدة الشرقية. برزت كردّ فعل للاحتجاج ضد الحالة السائدة من الفكرانية والروحانية في ذلك الوقت. جوهر اعتقاد الفلسفة المتعالية هو الخير المتأصل في البشر والطبيعة. يعتقد أتباعها أنّ المجتمع ومؤسساته يفسدون نقاء الفرد. ولديهم إيمان بأنّ أفضل حالات البشر تتحقق عندما يكونون «معتمدين على ذواتهم» ومستقلين. تركز الفلسفة المتعالية على الحدس الذاتي أكثر من التجريبية الموضوعية. يعتقد أتباعها أن الأفراد قادرون على تشكيل رؤى أصيلة كلياً مع القليل من الاهتمام والمراعاة للحكماء القدماء.

أثبتت النظرية اللاهوتية أن تقسيم السلطة من الله، وهذا منطقي جداً، ولكن ما هو شكل تقسيم العمل الذي يمثّل شرطاً لحياة الكائنات الحية والمجتمعات البشرية، وما الذي يمكننا اعتباره عضوياً في هذه المجتمعات البشرية في ضوء هذا التقسيم؟ ومهما درس العلم تقسيم العمل في خلايا الديدان الطفيلية، فإنّ كل هذه الأبحاث لن تجعل الإنسان يعترف بأنَ تقسيم العمل هذا هو التقسيم الصحيح؛ لأنه لا يتوافق مع عقله وضميره. مهما كانت الأدلة مقنعة في تقسيم العمل في خلايا الكائنات الحية الخاضعة للدراسة، فإنّ أيّ شخص، لم يفقد عقله بعد، سيقول إنّ من الخطأ أن يقضي بعض الناس كلَ حياتهم وهم يعملون في النسيج، وإن هذا ليس تقسيماً للعمل، بل هو قهر للناس. يقول سبنسر وغيره إن هناك مجموعات كثيرة من النسّاجين، ولذلك إن العمل في النسيج يتم وفق تقسيم عضوي للعمل، وهم يكررون حرفياً ما قاله اللاهوتيون من أن هناك سلطة، ومن ثم إنها من الله، مهما كانت هذه السلطة. هناك نساجون إذاً، وهناك قانون تقسيم للعمل يحدّد وجودهم. سيكون هذا الكلام مقبولاً، وقد يحمل هذا بعض المعنى لو أن السلطة ومجموعات النساجين هم من أوجدوا أنفسهم، ولكننا نعرف أن هذا لم يحدث، بل نحن من أوجدنا السلطة ومجموعات النساجين، ولكن يجب أن نعرف أَأوجدنا هذه السلطة من الله أم من أنفسنا؟ أَأوجدنا مجموعات النساجين وفق قانون التقسيم العضوي للعمل أم من خلال شيء آخر؟

يعيش الفلاحون حياتهم وهم يكسبون رزقهم في الزراعة، كما هو حال جميع الناس. أحضر أحدهم عدّة الحدادة، وأصلح محراثه، فيأتي إليه جاره، ويطلب منه أن يصلح له محراثه، واعداً إياه بالعمل أو بالمال. يأتي الثالث والرابع، وهكذا ينشأ في هذا المجتمع تقسيم جديد للعمل ينتج عنه حداد واحد. شخص آخر يعلّم أولاده بشكل جيد، فيأتي إليه جاره، ويطلب منه أن يعلّم أطفاله، وهكذا يصبح معلماً. سيبقى الحداد والمعلم يمارسان مهنتيهما

الجديدتين طالما أن الجيران يطلبون منهما ذلك. إذا جاء الكثير من الحدادين والمعلمين، أو إذا لم تعد هناك حاجة إلى عملهما، فحينها، كما تتطلب الفطرة السليمة، وكما يحدث دائماً حين تنعدم أسباب انتهاك قانون التقسيم الصحيح للعمل، سيتخليان عن مهاراتهما، وسيعودان إلى العمل في الزراعة. الأشخاص الذين يتصرفون على هذا النحو يفعلون ما يمليه العقل والضمير، ولذلك نعترف -نحن الذين وُهبنا العقل والضمير- بأن تقسيم العمل على هذا النحو هو تقسيم صحيح. ولكن إذا توافرت لدى الحدادين إمكانية إجبار الآخرين على العمل معهم، واستمروا في صناعة حذوات الخيل، رغم عدم الحاجة إليها، واستمر المعلمون في التعليم، رغم عدم وجود تلاميذ لهم، فإنّ أيّ شخص منصف؛ أي لديه عقل وضمير، سيدرك أنّ هذا ليس تقسيماً للعمل، بل استغلالٌ لجهود الآخرين. في الوقت ذاته، إن هذا العمل بالضبط هو ما يسميه العلم «تقسيم العمل». يفعل الناس ما لا يطلبه الآخرون منهم، وينتظرون منهم أن يطعموهم مقابل هذا العمل؛ حيث يقولون إنه جائز؛ لأنه يتم وفقاً لتقسيم العمل.

ما يشكل مأساة اجتماعية لكلّ أفراد الشعب، ليس عندنا فحسب، هو الإدارة، والعدد غير المحدود من الموظفين، وما يشكل السبب الرئيس للكارثة الاقتصادية في عصرنا هو ما يسميه البريطانيون «فائض الإنتاج»؛ أي إنتاج كميات هائلة من السلع التي لا أحد يطلبها، ولا يعرفون أين يذهبون بها.

من الغريب أن يعتقد الإسكافي أنّ الآخرين يجب أن يوفروا له قوت يومه؛ لأنه يواصل عمله في صناعة الأحذية التي لم يعد أحدٌ بحاجة إليها، ولكن ماذا عن أولئك الإداريين ورجال الدين وممثلي العلم والفن، الذين ليس فحسب لا ينتجون شيئاً مفيداً ملموساً، بل لا أحد يُقبِل على بضاعتهم أيضاً، لكنهم رغم ذلك تجرؤوا على الطلب من الآخرين، مستعينين بقانون تقسيم العمل، أن يقدموا لهم أفضل الطعام والشراب واللباس. قد يأتي سحرة،

وقد يُقدم لهم الخبز المفرود وبعض المشروبات مقابل عملهم، ولكن يصعب تقبل فكرة طلب هؤلاء السحرة للطعام والشراب مقابل عملهم في السحر الذي لا أحد يطلبه منهم. وهذا ما يحدث بالضبط في عالمنا مع الإداريين ورجال الدين وأهل العلم والفن. هذا يحدث استناداً إلى المفهوم الزائف لتقسيم العمل، الذي لم يُحدد على أساس العقل والضمير، بل على أساس الملاحظة التي يهرع إليها العلماء بالإجماع.

وُجد تقسيم العمل منذ القدم، وسيبقى موجوداً دائماً، لكنّ هذا التقسيم صحيح فقط عندما يقرره الإنسان بعقله وضميره، وليس من خلال مراقبته وملاحظته له. إن عقول وضمائر الناس ستحلّ هذه المسألة بالإجماع، وبأبسط الطرق وأكثرها ضمانة. سيرون دائماً أن تقسيم العمل صحيح فحسب عندما يكون عمل شخص ما مهماً جداً إلى درجة أنهم يعرضون عليه، عندما يطلبون منه أن يخدمهم برضاهم، مقابلاً لعمله. عندما يعيش الإنسان على حساب الآخرين حتى سنّ الثلاثين، واعداً إياهم بأنه، بعد أن ينهي دراسته، سيقدم فائدة للمجتمع الذي لم يطلبها منه أصلاً، ثم يكمل حياته بعد الثلاثين حتى موته وهو يَعِد الآخرين بتقديم فائدة ما لم ينتظرها منه أحد، فهذا ليس تقسيماً للعمل (وهو غير متحقق في مجتمعنا)، بل هو استغلال من يملك القوة لجهود الآخرين؛ حيث سماه اللاهوتيون في السابق المكانة الإلهية، وأطلق عليه الفلاسفة اسم الأشكال الضرورية للحياة، ويسميه العلم اليوم التقسيم العضوي للعمل. تتجلى أهمية العلم في هذا فحسب. العلم يمنح الشهادات المحرضة على الكسل؛ لأن العلم وحده «في معابده» هو الذي يحدد أيّ المهن هي «طفيلية» أو عضوية في المجتمع البشري الذي هو عبارة عن «كائن حي»؛ حيث إنّ كل شخص وحده لا يستطيع أن يحدد هذا التقسيم بشكل موجز ودقيق إذا ما استعان بضميره وعقله. وكما لم يكن هناك شكّ عند رجال الدين، ثمّ ممثلي الدولة، حول أهميتهم بالنسبة إلى باقي

الناس، كذلك ليس هناك أيّ شك عند أهل العلم والفن حول أهمية عملهم، وأنه عمل عضوي لا شك؛ حيث إنهم علماء وفنانون، ويمثلون جوهر الدماغ، وأكثر الخلايا قيمة بالنسبة إلى الكائن الحي.

ليكن الله معهم! ليتملكوا كيفما يشاؤون، وليتلذذوا بالطعام والشراب واللهو، كما فعل الكهنة والسفسطائيون في السابق، بشرط ألا يسببوا الأذى للناس.

ونظراً إلى وجود أشخاص عاقلين استطاعوا التمييز بين الخير والشر، واستعانوا بما فعله من سبقوهم في هذا التمييز، وواجهوا الشر، وبحثوا عن المسار الصحيح والأفضل، وتقدموا ببطء على هذا المسار، ولكن بلا هوادة؛ دائماً واجهتهم في هذا المسار خدع مختلفة هدفت إلى إقناعهم بأنّ ما يفعلونه ليس مهماً على الإطلاق، وأنّ عليهم أن يعيشوا الحياة كما هي. واجهوا الخدعة الرهيبة والقديمة للقديسين، وتحرروا منها بعد صراع وجهد شديدين، ولكن ما إن نجحوا في التحرّر منها حتى حلّت مكانها خدعة جديدة هي خدعة الدولة والفلسفة. تحرّر الناس منها كذلك، ولكن وجد الناس أنفسهم أمام خدعة جديدة ناشئة هي الأسوأ، وهي الخدعة العلمية.

الخدعة الجديدة هي تماماً مثل الخدع القديمة، التي تعتمد في جوهرها على استبدال مؤثّر خارجي بنشاط عقل وضمير الفرد، وعقول وضمائر كل من سبقونا، ويمثل الوحي في عقيدة الكنيسة هذا المؤثّر، بينما تمثله الملاحظة في الخدعة العلمية.

تتمثل خدعة العلم في أنه بعد أن يثبت للناس أكثر الانحرافات خطورة في نشاط عقولهم وضمائرهم، ويهدم ثقتهم بها، يعود ليقنعهم بضرورة الاستماع إلى صوت الضمير والعقل الذي يخاطبهم. كلّ ما قاله أهمّ ممثلي الناس، منذ وجود العالم، أنّ كلّ شيء مشروط وذاتي.

يقولون: يجب ترك كلَ شيء، ولا يمكن فهم الحقيقة بالعقل؛ لأنَ الخطأ وارد هنا، بل هناك طريقة أخرى لا لبس فيها وشبه آلية هي دراسة الحقائق. يجب دراسة الحقائق وفق مبادئ العلم؛ أي بناءً على فرضيتين لا أساس لهما، هما الوضعية ونظرية التطور، اللتان تُقدَّمان على أنَهما حقيقتان لا تقبلان الشك. يعلن العلم السائد، بخدعة واضحة، أن حلّ كل مشاكل الحياة ممكن فحسب من خلال دراسة حقائق الطبيعة، ولاسيما حقائق الكائنات الحية. يندفع جمهور الشباب الساذج، المتأثر بهذه السلطة التي ليس لم يفندها النقد فحسب، بل إنه لم يتطرّق إليها بتاتاً، إلى دراسة هذه الحقائق في العلوم الطبيعية، ووفق تلك الطريقة الوحيدة، التي يؤكد العلم المسيطر على العقول أنها يمكن أن تفضي إلى فهم قضايا الحياة. كلما تقدموا أكثر في هذه الدراسة ابتعدوا أكثر وأكثر ليس عن إمكانية حل مشاكل الحياة فحسب، بل حتى عن التفكير في حلها، ويعتادون بشكل أكبر على عدم الملاحظة بأنفسهم، بل على المصادقة على ما يلاحظه الآخرون (التسليم بوجود الخلايا، وبالبروتوبلازما، وبالحالات الأربع للمادة... الخ)، وسيخفي عنهم الشكلُ المضمونَ، وسيفقدون تدريجياً القدرة على التمييز بين الخير والشر، والقدرة على فهم تعابير وتعاريف الخير والشر، التي طورتها الحياة السابقة للبشرية بأكملها، وسوف يستوعبون بصورة أكبر لغتهم العلمية الخاصة بالعبارات المشروطة الفاقدة معانيها التي تتشارك في فهمها البشرية جمعاء، وسيجدون أنفسهم في غابات كثيفة من الملاحظات الظلامية، وسيفقدون القدرة ليس على التفكير المستقل فحسب، بل حتى على فهم أيّ فكر إنساني جديد يقع خارج «تلمودهم»، والأهم من كل هذا أنهم يقضون حياتهم في فطام عن الحياة؛ أي بلا عمل، ويعتادون عَدِّ وضعهم مبرراً، ويصبحون من الناحية الجسدية طفيليات لا تصلح لأي شيء. أما من الناحية الفكرية فيخلعون أدمغتهم، ويفقدون القدرة على التفكير. وهكذا يفقدون مهاراتهم تدريجياً،

حتى يصبحوا أغبياء، مسلحين بثقة عالية بأنفسهم، تحرمهم بشكل دائم من العودة إلى حياة العمل البسيطة، إلى الفكرة الإنسانية الشاملة والبسيطة والواضحة.

مبررات كسل المتعلمين والفنانين

لطالما كان تقسيم العمل موجوداً منذ القدم في المجتمعات البشرية، ولعله سيبقى، لكنّ السؤال ليس حول وجوده واستمراره، بل حول المعايير التي سنضعها، لكي نرى أن هذا التقسيم صحيح. إذا أخذنا الملاحظة معياراً، فإننا سنرفض أي معيار آخر، وحينها أيّ تقسيم للعمل نراه بين الناس، ويبدو لنا صحيحاً، سنَعدّه كذلك، وهذا ما يدعو إليه العلم السائد في عصرنا.

تقسيم العمل هو أن ينشغل قسم من الناس بالأعمال الفكرية والروحية، بينما ينشغل آخرون بالأعمال البدنية والعضلية. بأيّ ثقة يتحدث هؤلاء! تروق لهم هذه الفكرة، ويبدو لهم، كنتيجة للقوة التي استُخدمت في الماضي، أنّ هذا التقسيم هو تقسيم عادل، وأن فكرتهم متحققة في الواقع. أنت، أو بالأصح أنتم (لأنه في العادة يشترك الكثيرون في العمل لإطعام شخص واحد)، قدموا لي الطعام واللباس، وتابعوا تأدية عملكم الصعب الذي أطلبه منكم، والذي اعتدتم عليه منذ الطفولة. أما أنا فأقدّم لكم عملي الذهني الذي أتقنه، والذي اعتدت عليه. قدموا لي غذاء الجسد، وأنا أقدم لكم غذاء الروح. تبدو هذه المعادلة صحيحة تماماً، وستكون صحيحة حقاً إذا تم تبادل الخدمات هذه بطريقة حرة؛ أي لم يُجبر العمال على تقديم غذاء الجسد قبل أن يحصلوا على غذاء الروح. يقول منتج غذاء الروح: لكي أستطيع أن أنتج لكم غذاء الروح، عليكم أن تقدموا لي الطعام واللباس، وتزيلوا الأوساخ من بيتي. أما من ينتج غذاء الجسد فلا يعلن عن أي متطلبات، ويقدم غذاء الجسد، حتى لو أنه لم يحصل على غذاء الروح. لو كان تبادل المنتجات هنا

حراً، لأصبحت شروط تقديمها هي ذاتها. يقول المتعلّم، أو الفنان: قبل أن نبدأ بتقديم غذاء الروح للناس، يجب عليهم أن يوفروا لنا غذاء الجسد. لكن لماذا لا يقول منتج غذاء الجسد إنني قبل أن أقدم لكم هذا الغذاء، يجب أن يتوافر غذاء لروحي، ومن دون ذلك، لا أستطيع العمل؟ أنت تقول أيها المتعلم أو الفنان: يلزمني كل ما يصنعه الحرّاث والحداد والإسكافي والنجار والبنّاء والصائغ وغيرهم، لكي أحضّر غذاء الروح. يجب على كل عامل أن يقول: قبل أن أذهب إلى العمل، لأحضر لكم طعاماً لأجسادكم، يجب أن أحصل على غذاء لروحي. لكي أصبح قادراً على العمل، أنا بحاجة إلى التعليم الديني، وإلى نظام اجتماعي في الحياة العامة، وإلى تطبيق المعرفة في العمل، وإلى السعادة وتسلية النفس التي يمنحها الفن. ليس لدي الوقت لأطوّر عقيدتي الخاصة حول معنى الحياة، وأطلب منكم أن تقدموها لي. ليس لدي الوقت لابتكار قوانين للحياة العامة، التي لا تُنتهك فيها العدالة، وعليكم تقديمها لي. ليس لدي الوقت لدراسة الميكانيك والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا. وفروا لي كتباً تشرح لي كيف أطور أدواتي، وطريقة عملي، ومسكني، وأجهزة التدفئة والإنارة في بيتي.

لا أملك الوقت لكتابة الشعر ولممارسة الفن التشكيلي والرسم. قدموا إلي مبهجات الحياة ووسائل التسلية. امنحوني منتجات الفن هذه. أنتم تقولون إنكم لا تستطيعون القيام بأعمالكم المهمة والضرورية للناس كما تدّعون، إذا حُرمتم من الخدمات التي يؤديها عنكم العمال، وأنا بوصفي عاملاً أقول، إنني لا أستطيع ممارسة عملي الذي لا يقل أهمية وضرورة لكم إذا حُرمت من التعليم الديني، ومن المتطلبات المتوافقة مع عقلي وضميري، والإدارة العقلانية التي تضمن استمرار عملي، والإرشادات المعرفية لتسهيل عملي، ومبهجات الفن لتطوير عملي. ما تعرضونه عليّ كغذاء لروحي ليس لا يناسبني فحسب، بل لا أستطيع حتى أن أفهم مدى أهميته لأي أحد، وطالما أنني لم

أحصل على هذا الغذاء، المناسب لي ولأي شخص كان، فإنني لا أستطيع أن أوفر لكم غذاءً لأجسادكم. ماذا لو قال العامل هذا الكلام؟ وإذا قاله، فلن تكون هذه دعابة، وإنما هي العدالة بأبسط أشكالها. إذا قال العامل هذا، فإنه على حق أكثر بكثير من المتعلم أو الفنان، الذي ينشغل بالعمل الفكري. سيكون طلبه محقاً أكثر لأن العمل الذي يُجبر عليه العامل هو الأكثر أهمية وضرورة من العمل الفكري؛ لأن لا شيء يمنع من يشتغل في العمل الفكري من تقديم غذاء الروح للعامل الذي وعده به. أما العامل فيمنعه من تقديم غذاء الجسد حقيقةُ أنّه هو نفسه بحاجة إليه.

كيف سنجيب -نحن الذين نشتغل في حقول العمل الفكري- إذا طُلبت منا هذه المتطلبات البسيطة والمشروعة؟ كيف سنلبي هذه المتطلبات؟ أَندرسهم تعاليم الكنيسة وفق أفكار فيلارت[1] أم القصص التي رواها القديس سوكولوف أم منشورات الأديار المختلفة وكنيسة القديس إسحاق لكي نستجيب لرغبتهم في تلقي العلوم الدينية؟ هل نطلعهم على حزم القوانين وقرارات الطعن للمؤسسات المختلفة، ومواثيق اللجان والهيئات المختلفة لكي نحقق رغبتهم بوجود نظام اجتماعي؟ هل ندرّسهم التحليل الطيفي، ومسح مجرة درب التبانة، والهندسة اللاإقليدية[2]، والروحانية[3] والوساطة

1 فاسيلي ميخائيلوفيتش دروزدوف (1782 - 1867) كان مطراناً لموسكو وما حولها، وكان له تأثير كبير في الكنيسة الروسية لأكثر من أربعين عاماً من عام 1821 حتى 1867.

2 يعبر مصطلح الهندسة اللاإقليدية في علم الرياضيات عن الهندسة الإهليلجية والهندسة الزائدية التي هي مقابل الهندسة الإقليدية.

3. الروحانية هي ديانة إحيائية، تم تدوينها في القرن التاسع عشر من قبل المعلمة الفرنسية هيبوليت ليون دنزيرد ريفيل، تحت الاسم المستعار ألان كارديك؛ وتنص على دراسة «الطبيعة، والمصدر، ومقدار الأرواح، وعلاقتها بالعالم المادي.

الروحية[1]، والأبحاث المجهرية، ونشاطات العلوم الأكاديمية لكي نلبي رغبتهم في تلقي المعرفة؟ وبالنسبة إلى متطلباتهم الفنية والأدبية، أنعرض لهم أدب بوشكن ودوستويفسكي وتورغينيف وتولستوي أم لوحات الفن الفرنسي ولوحات فنانينا الذين يعرضون صور النساء العاريات، ونسيج الساتان والمخمل، والمناظر الطبيعية وصور الحياة المنزلية؟ أنعرفهم بموسيقا فاغنر[2]، أم بالموسيقا المعاصرة؟ لا شيء مفيداً في كل هذه الأشياء، ولا يمكن أن يكون مفيداً؛ لأننا عندما نمتلك الحق في استخدام جهود الآخرين، وبغياب أيّ واجبات تحثّنا على تحضير غذاء الروح، نكون أضعنا تماماً الوجهة الوحيدة التي يجب أن يتجه نحوها عملنا. نحن لا نعرف حتى ما هو ضروري للعامل، ونسينا حتى نمط حياته، ونظرته للأشياء، ولغته، وحتى نسينا أن هناك شعباً كادحاً، ندرسه كحالة إثنوغرافية نادرة، أو قارة مكتشفة حديثاً.

طلبنا غذاءً لأجسادنا، ووعدنا بتقديم الغذاء الروحي، لكن نتيجة التقسيم الجائر للعمل، الذي نستطيع بموجبه ليس تناول الغذاء ثم العمل فحسب، بل نستطيع لأجيال كاملة أن نتلذذ بالطعام دون أن نعمل، نحن أعددنا للناس، مقابل إطعامهم لنا، ما يبدو فحسب أنّه مفيد لنا وللعلم والفن، ولكنّه غير مفيد، وغير مفهوم تماماً، ومقرف مثل جبن ليمبرغر[3]، بالنسبة إلى أولئك العمال الذين نعتقد أنّنا نقدّم لهم غذاءً لأرواحهم. نحن في حالة من الإغماء إلى درجة أنّنا فقدنا الشعور بالواجب، وحتى نسينا الهدف من عملنا كله، وهذا الشعب الذي استقدمناه للعمل عندنا، أصبح موضوع نشاطنا الفني والأدبي.

---

1 الوساطة الروحية هي الممارسة القائمة على تحقيق تواسط عبر تواصل «مزعوم» بين أرواح الموتى والبشر من الأحياء.

2 ريتشارد فاغنر (1813 - 1883) كان مؤلفاً موسيقياً وكاتباً مسرحياً ألمانياً. النصف الأول من العصر الرومانسي في الموسيقا سيطر عليه بيتهوفن، والنصف الثاني ريتشارد فاغنر.

3 جبن ينتج في أوروبا من حليب البقر وله رائحة كريهة.

نحن ندرسه ونصف حياته من باب التسلية واللهو. نسينا أننا يجب ألا ندرسه ونصف حياته، بل واجبنا هو خدمته. نحن فقدنا الشعور بالواجب الذي يقع على عاتقنا إلى درجة أنّنا لم نلاحظ أنّ ما فعلناه في حقل العلم والفن ليس نحن، بل آخرون، وأصبح مكاننا مشغولاً.

بدا لنا أنّ كل ما اختلفنا حوله، كما فعل اللاهوتيون حول الحمل المؤكد، وحول الولادة الذاتية للكائنات الحية، والروحانية، وحول شكل الذرات، وحول مكونات البروتوبلازما، في حين أنّ الناس هم بحاجة إلى غذاء لأرواحهم. والفاشلون في حقل العلم والفن، بأوامر من اللصوص، الذين ليس لديهم أيّ هدف آخر غير الربح، بدؤوا بتقديم غذاء الروح هذا للناس، ويقدّمونه لهم الآن. تُطبع ملايين الكتب واللوحات والأغاني، وتُقام العروض الجماهيرية، منذ أربعين سنة في أوروبا، ومنذ عشر سنوات عندنا في روسيا، والناس يشاهدون ويغنون ويحصلون على غذاء لأرواحهم، ولكن ليس منّا، نحن الذين أخذنا على عاتقنا تقديمها لهم، ونبرّر كسلنا بهذا الفقر الروحي، الذي كنّا سنقدمه، ونجلس ونراقب بأعيننا.

لا يمكننا فعل ذلك؛ لأن تبريرنا النهائي انزلق من تحت أقدامنا. نحن متخصصون، ولدينا نشاط وظيفي مهم، نحن أدمغة الشعب. الشعب يقدم لنا الطعام، ونحن نعلمه. لهذا السبب تحرّرنا من العمل. ما الذي تعلمناه وماذا نعلّم الشعب؟ انتظرَنا الشعبُ عشرات ومئات السنين. نحن نتكلَم ونسلّي بعضنا، لكنّنا نسينا الشعب تماماً. نسيناه إلى درجة أنّ غيرنا رفَهوا عنه وسلّوه، ونحن حتى لم نلاحظ هذا. كما أننا لم نتحدث بجدية عن تقسيم العمل. أما الفائدة التي وعدنا بتقديمها للناس فلم تكن إلا مقولة مُخجلة.

دور العلم والفن في تقدم البشرية

تحكمت الكنيسة، في وقت من الأوقات، في الحياة الروحية للناس، ووعدتهم بالخير، وأعفت نفسها، باسم هذا الخير، من المشاركة في نضال البشرية من أجل الحياة، وتراجعت هذه الكنيسة ذاتها عن وعودها، فابتعد عنها الناس. لم تقضِ عليها الأخطاء، بل انتهاك ممثلي هذه الكنيسة لقانون العمل، مستعينين بالسلطة التي مُنحت لهم في عهد قسطنطين، ثمّ مطالبتهم بحقهم في التقاعس عن العمل وبالرفاهية التي سببت أخطاءهم. أصبحت الكنيسة تهتمّ بشؤونها، بعد أن تمتعت بالسلطة، وليس بشؤون الناس الذين وعدت بخدمتهم، وانجر ممثلوها وراء الكسل والفساد.

تحكمت الدولة بدورها في حياة البشرية، ووعدتهم بالعدل والسلام وبتحقيق متطلباتهم وبالنظام، وبتلبية الاحتياجات المادية والروحية العامة، وأعفى رجال الدولة أنفسهم، باسم هذه الأشياء، من المشاركة في نضال البشرية من أجل الحياة. ما إن أصبح ممثلو الدولة قادرين على استغلال جهود الآخرين، حتى فعلوا ما فعله ممثلو الكنيسة. لم يصبح همّهم الشعب، بل الدولة، ورجال الدولة، من الملك حتى أصغر موظف، في روما وفي فرنسا وفي بريطانيا وفي أمريكا. انجروا خلف الكسل والفساد. فقد الناس ثقتهم بالدولة، وأصبح الدفاع عن الفوضى على أنّها واقع مثالي هو السائد. فقدت الدولة سحرها وتأثيرها في الناس فحسب لأنّ موظفيها أعطوا أنفسهم الحق في استغلال الآخرين.

هذا ما فعله أهل العلم والفن بمساعدة سلطة الدولة التي جاؤوا لمساندتها، وأعطوا أنفسهم الحق في الكسل واستغلال جهود الآخرين، وشوّهوا دعوتهم الأولى كذلك. حدثت كل الأخطاء التي وقعوا فيها لأنهم اعتمدوا فحسب على مبدأ زائف لتقسيم العمل، وأعطوا أنفسهم الحق في استغلال عمل الآخرين، وفقدوا معنى رسالتهم. ووضعوا هدفاً لأنفسهم لا يتمثل في تقديم الفائدة للناس، بل تقديم فائدة غامضة تأتي من العلم والفن، وتصرفوا مثل من سبقوهم، حين انجروا في الكسل والفساد، ولم يكن كسلاً وفساداً في حدسهم ومشاعرهم، بل في أفكارهم.

يدّعون أن العلم والفن قدّما الكثير للبشرية. هذا صحيح تماماً. قدمت الكنيسة والدولة الكثير للبشرية، ولكن ليس بسبب إساءة استخدامهم السلطة، وليس لأن ممثليهما تخلوا عن الحياة العامة للناس، وعن واجبهم الدائم في العمل، ليس بسبب هذا. قدم العلم والفن الكثير للبشرية كذلك، ولكن ليس لأن أهل العلم والفن عاشوا على حساب الشعب العامل.

كانت الجمهورية الرومانية قويّة ليس لأنّ مواطنيها كانوا يستطيعون ممارسة الفساد كما يحلو لهم، بل لأنّ هناك شرفاء ومتفانين بين مواطنيها. كذلك هو الحال في ما يخصّ العلم والفن؛ حيث إنّهما قدما الكثير للبشرية، ليس لأن المنشغلين في هذين الحقلين امتلكوا أحياناً إمكانيّة التحرّر من العمل، والآن هم أحرار تماماً منه، بل لأنّ من بينهم عباقرة لم يستغلّوا جهود الآخرين، وساهموا في تقدّم البشرية.

إن فئة العلماء والفنانين الذين يعلنون، وفق مبدأ التقسيم الجائر للعمل، أنّ لهم الحق في استغلال عمل الآخرين، لا يمكنهم أن يسهموا في تقدّم العلم والفن الحقيقيين؛ لأنّ الكذب لا يمكن أن تنتج عنه الحقيقة.

لقد اعتدنا أن يكون المتعلمون أو الفنانون منعّمين ومدللين ومتخمين، ويبدو لنا غريباً أن يحرث المتعلّم أو الفنان، أو أن يوزع السماد. يبدو لنا أنَّ اللوحات العظيمة، التي يضعها الفنان على صدره، ستتلوث بالسماد. نحن اعتدنا رؤية صاحب العلم؛ أي من يعلمنا الحقيقة، وهو يجبر آخرين أن يقدموا له خدمات هو نفسه يستطيع القيام بها، وهو يقضي نصف وقته في تناول الطعام وفي التدخين والثرثرة وفي «النميمة حول الليبرالية»، وفي قراءة الصحف والروايات، وفي ارتياد المسارح. لا يبدو غريباً لنا رؤية فيلسوفنا في الحانة وفي المسرح وفي الباليه، لكنّنا نستغرب أنّ فنانينا، الذين يبهجون ويسعدون أرواحنا، قد قضوا حياتهم في السُّكْر وفي لعب الورق، ومع الفتيات، وقد يفعلون ما هو أسوأ.

العلم والفن شيئان رائعان، ولأنهما رائعان، يجب عدم تخريبهما بربطهما بالفساد؛ أي بالتحرر من الواجب الإنساني في أن يكون عمل الفرد المتعلم أو الفنان يصبّ في مصلحته ومصلحة الآخرين.

نعم قفز العلم والفن بالبشرية إلى الأمام، ولكن ليس لأنّ أهل العلم والفن، تحت غطاء تقسيم العمل، علّموا الناس، من خلال القول، والأهمّ من ذلك من خلال العمل، كيف يستغلون بالقوة فقر ومعاناة الآخرين، لكي يتحرّروا من الواجب الإنساني الأول الذي لا شك فيه، وهو أن يعملوا بأنفسهم للمشاركة في نضال البشرية المشترك مع الطبيعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تأثير العلم والفن في حياة العمال

قد يُقال: «إنّ تقسيم العمل هذا الذي تتحدّث عنه، وتحرّر أهل العلم والفن من ضرورة كسب قوتهم بأيديهم، هو الذي مهّد الطريق لهذا النجاح المبهر للعلم والفن، الذي نشهده في عصرنا. لو عمل الجميع في الحراثة والزرع، فلن نشاهد هذه النتائج المذهلة التي وصل إليها العلم في عصرنا، ولما كانت هذه النجاحات الهائلة، التي زادت من سيطرة الإنسان على الطبيعة، ولما كانت هذه الاكتشافات الفلكية التي أذهلت عقول الناس، وعزّزت الملاحة، ولما شاهدنا السفن البخارية، والسكك الحديد، والجسور المتحركة، والأنفاق، والمحركات البخارية، والبرقيات، والصور، والهواتف. وآلات الخياطة، والفونوغراف، والكهرباء، والتلسكوبات، وأجهزة المطياف البصري، والمكروسكوبات، والكلوروفورم، والضمادات الطبية، والفينول».

لن أعدّد كلّ الإنجازات التي نفتخر بها في عصرنا. نرى هذا الإحصاء السكاني، المصحوب بشعور الفخر والاعتزاز بالنفس، في كلّ صحيفة وفي كل كتيّب عمومي. هذه النشوة الذاتية، التي نشعر بها، هي كبيرة إلى درجة أننا اقتنعنا حقاً بأن العلم والفن لم يحقّقا هذه النجاحات إلا في عصرنا. كلّ هذه النجاحات المذهلة التي حقّقها هي بفضل تقسيم العمل. إذاً، كيف لا نعترف به؟

لنفترض أنّ هذه النجاحات المتحققة في عصرنا هي حقاً كبيرة ومذهلة وغير عادية، ولنفترض أننا محظوظون جداً لأننا نعيش في هذا العصر، ولكن لنحاول تقييم هذه النجاحات، ليس بناءً على قناعتنا الذاتية، بل وفق

المبدأ ذاته، الذي يُنسب إليه الفضل في الوصول إلى هذه النجاحات، وهو مبدأ تقسيم العمل. إن هذه النجاحات هي مذهلة جداً، ولكن لسوء الحظ، وباعتراف العلماء أنفسهم، لم تطوّر حياة أغلبية الناس؛ أي العمال، بل زادتها سوءاً. إن العامل الذي استقلّ قطار السكة الحديد بدل أن يمشي، أحرقت هذه السكة بستانه، وأخذت قوت يومه، ووضعته في حالة أقرب ما تكون إلى العبودية لمالك هذه القطار. إذا استطاع العامل شراء منسوجات رخيصة ورديئة، بفضل المحركات والآلات البخارية، فإنَّ هذه المحركات والآلات حرمته من الكسب في بيته، وجعلته عبداً للمُصنِّع. إذا كانت هناك برقيات لا يُمنع العامل من استخدامها، لكنه، وفقاً للأدوات التي يمتلكها، لا يستطيع استخدامها، فإنّ سعر منتجاته يرتفع، لكنّ الرأسماليين يسلبون منه هذه المنتجات بأسعار رخيصة، وأصبح العامل، بفضل البرقيات، يعرف مسبقاً كمية الطلب على منتجاته. إذا كانت هناك هواتف وتلسكوبات وأشعار وروايات ومسارح وعروض باليه وسيمفونيات وأوبرا ومعارض للصور، فإنّها لم تؤدِ إلى تحسين حياة العامل: لأنها، لسوء الحظ، لم تكن متاحة له.

إن كل هذه الاكتشافات المذهلة ومنتجات الفن، باتفاق العلماء، إذا لم تجعل حياة العمال أسوأ، فإنّها بالتأكيد لم تحسنها. إذاً، في ما يتعلق بحقيقة هذه النجاحات، التي توصل إليها العلم والفن، لن نقيسها وفق نشوتنا أمام أنفسنا، بل وفقاً للمعيار الذي يتمّ الدفاع عن تقسيم العمل على أساسه، والذي يزعمون أنه يعود بالفائدة على العمال. إننا سنرى أننا لا نمتلك بعد أسساً متينة للرضا عن ذواتنا الذي نقبل عليه طواعية.

يستقل الفلاحُ القطارَ في تنقلاته، وتشتري زوجته النسيج، وسيضيئون عزبتهم بمصباح بدل الشعلة، وسوف يشعل الفلاح غليونه بالكبريت. كل هذا جميل، لكن بأيّ حقّ يمكنني القول إن السكك الحديد والمصانع جلبت المنفعة للناس؟

إذا سافر الفلاح عبر القطار، واشترى مصباحاً ونسيجاً وكبريتاً، فلأننا لا نستطيع منعه من القيام بذلك، ونحن نعرف أن بناء السكك الحديد والمصانع لم يكن يوماً ما لصالح الشعب، فلماذا تُعدّ هذه الخدمات، التي تريح العمال في بعض جوانب حياتهم بصورة عرضية وليست مباشرة، برهاناً على فائدة هذه المؤسسات للناس؟ نحن نعرف أن المهندسين وأصحاب رؤوس الأموال، عندما شيّدوا الطرقات وبنوا المصانع، فكّروا في العامل، لكن تفكيرهم كان محصوراً في كيفية الاستفادة القصوى من جهده. هذا هو الواقع ذاته عندنا وفي أوروبا وفي أمريكا على حدٍ سواء. هناك جانب مفيد في كلّ ضرر. إذا نشب حريق يمكن أن تتدفّأ بناره، وتدخن غليوناً ملتهباً، ولكن لماذا تقول إن الحريق مفيد؟

لن نخدع أنفسنا على الأقل. نحن نعرف جميعاً دوافع تشييد الطرق وبناء المصانع وإنتاج الكيروسين والكبريت. يشيّد المهندس الطرق للدولة من أجل غايات عسكرية، ومن أجل أصحاب رؤوس الأموال، ولأهداف اقتصادية. يصنع الآلات للصناعيين لمصلحته الشخصية، ومن أجل صاحب رأس المال. كل ما يفعله ويبتكره هو لتحقيق أهداف الدولة، ولمصلحة أصحاب رؤوس الأموال والأثرياء. إن أكثر الاكتشافات التقنية مهارةً موجهةً مباشرة إما إلى ضرر الشعب، مثل المدافع والصواريخ، والسجون الانفرادية، وأجهزة ضريبة الإنتاج، والبرقيات وغير ذلك، وإما أنها مواد ليست عديمة الفائدة فحسب، بل غير متاحة لهم مثل: المصباح الكهربائي، والهواتف، وكل وسائل الراحة، أو في النهاية، تلك المنتجات التي يمكن أن تفسد الناس، وتسلب منهم آخر ما يمتلكونه، مثل الفودكا والبيرة والتبغ والأفيون، ثم يأتي النسيج والأوشحة وكل أنواع الحلي. إذا حدث أن توافقت ابتكارات العلماء وأعمال التقنيين مع احتياجات الناس، مثل السكك الحديد والمنسوجات والحديد الصلب والمناجل، فهذا عائد إلى سبب وحيد، هو أنّ كلّ الأشياء

في الحياة مرتبطة بعضها ببعض، وكلّ شيء ضار لا بدّ من أن يترافق مع فائدة ما لأولئك الذين يتضررون منه.

يستطيع أهل العلم والفن ادّعاء أن عملهم هو في مصلحة الناس إذا كان هدفهم هو خدمة الناس فحسب، كما هم الآن يسعون بعملهم وفنهم إلى خدمة الدولة وأصحاب رؤوس الأموال. نستطيع القول إنهم يخدمون الناس لو كان هدفهم هو تلبية حاجات الناس، لكنّ الواقع ليس كذلك. ينشغل أهل العلم بأعمالهم «الكهنوتية»، التي تنجم عنها دراسات عن البروتوبلازما، وعن تحليل طيف النجوم، لكنهم لا يشغلون أنفسهم بدراسة أيّ نوع من الفؤوس هي التي يمكن أن تقطع بشكل أفضل، وأي منشار هو الأكثر حدة، وكيفية صناعة الخبز بأفضل طريقة، وبأي نوع من الدقيق، وكيف يتم عجنه وتحضيره، وكيفية تسخين الماء وصنع المواقد، وأي طعام وشراب وأدوات هي الأفضل، وأي أنواع الفطور هي التي تُؤكل، وكيف يتم إنتاجها وتحضيرها بطريقة جيدة. لم ينشغل العلم بهذه الأشياء إلا بشكل محدود جداً، رغم أن هذه هي وظيفة العلم.

إن تعريفي الخاص للعلم هو أنّ العلم لا يهدف إلى النفع؛ أي العلم للعلم، ولكن من الواضح أن هذه ليست إلا حجة. إن هدف العلم هو خدمة الناس.

اخترعنا البرقيات والهواتف والفونوغراف، ولكن ماذا حقّقنا في ما يخص حياة العمال؟ أحصينا مليوني حشرة؟ وليتنا استطعنا منذ العصور التوراتية ترويض حيوان واحد ليصبح أليفاً، متى استطعنا ترويض حيوان آخر مرة؟ ماذا عن الأيائل والموظ والحجل والطيهوج وطيهوج البندق التي لاتزال حيوانات برية؟ اكتشف علماء النبات الخلايا، واكتشفوا البروتوبلازما داخل الخلايا، ثمّ وجدوا أشياء أصغر داخل البروتوبلازما، ثم وجدوا في تلك الأشياء الصغيرة أشياء أخرى، وهكذا، إن هذه الأشياء لن تنتهي؛ لأن من الواضح أنها لا تقف عند حدٍّ ما، ولذلك إن العلماء لن ينشغلوا أبداً بما ينفع الناس.

لذلك منذ عهد المصريين القدماء والعبرانيين؛ حيث كانوا يزرعون القمح والعدس، لم يُضَف أيّ نبات جديد إلى موائد الناس، باستثناء البطاطا، التي لم يكتشفها العلم. اخترعوا الصواريخ الطوربيدية، وأجهزة حساب ضريبة الإنتاج، أما عجلة مغزل النسيج، والمنسج الذي تعمل عليه النساء، والمحراث، والقدوم، والمِدرَس، والمذراة، والدلاء، والرافعة، وكلّ هذه الأشياء التي لم تُطوّر وبقيت كما كانت في عهد روريك[1]، فإن جرى تطويرها فبفضل العمال، وليس بفضل المتعلمين.

وهذا هو حال الفن أيضاً. كُثُرٌ من نَعدّهم كتاباً عظماء، حلّلنا كتاباتهم، وكتبنا حولها النقد، ثمّ كتبنا نقداً لنقدها، ونقداً لنقد النقد، وجمعنا معارض الصور، ومدارس الفن المختلفة، ودرسناها بالتفصيل، بالإضافة إلى السيمفونيات والأوبرا التي نجد صعوبة في تقبّلها وسماعها.

وماذا أضفنا إلى الملاحم الشعبية والأساطير والحكايات والأغاني، وما هي الصور التي عرضناها للناس، وأيّ موسيقا أسمعناهم؟ يطبعون الكتب واللوحات للناس في نيكولسكي، وفي توليا موسيقا، ولم نشارك في هذه ولا في تلك.

إنّ أكثر ما يلفت الانتباه، وأكثر ما هو واضح في زيف منهج العلم والفن، هو في تلك الأقسام، التي يبدو، كما يعلنون، أنها تسعى لتقديم الفائدة للناس، لكنّها، نتيجةً للاتجاه الخاطئ للعلم والفن، تصبح أقرب إلى الضرر منها إلى النفع. يجب أن تنحصر المهمة الأساسية لكلّ من المهندس والطبيب والمعلم والفنان والكاتب في خدمة الناس، ولكن ماذا عن الواقع؟ هم لا يقدمون في عصرنا الحالي أيّ شيء للناس، غير الضرر.

---

1 روريك أحد أمراء الفارانجيين ومؤسس الإمارة الروسية التي ظلت أسرته تحكمها مدة ثمانية قرون، وتذكر قصته في كتاب التواريخ الروسية الأولية في القرن الثاني عشر الميلادي.

يجب أن يعمل المهندس والميكانيكي مع رأس المال. لا يمكنهما صنع شيء من دون رأس المال. إن معارفهما لا تظهر إلا بتوافر رأس المال، وبتشغيل الكثير من العمال، بالإضافة إلى أن المهندس أو الميكانيكي يصرف على نفسه ليس أقل من ألف وخمسمئة إلى ألفي روبل في السنة، لذلك هو لا يستطيع الذهاب إلى الريف للعمل؛ حيث لا أحد هناك مستعد لإعطائه مثل هذا الأجر، وطبيعة عمله لا تصلح لخدمة سكان الريف. يستطيع حساب قوس الجسر، ويحسب قوة المحرك وسرعته، لكنه يقف عاجزاً أمام طلبات الناس البسيطة. لا يستطيع تطوير المحراث أو العربة، وكيف يسلّك مجرى النهر، وكل ذلك مع الأخذ في الحسبان الظروف التي يعيشها العامل. لا يعرف شيئاً عن كلّ هذه الأشياء، ولا يفهم في هذه الأمور أكثر من أقلّ المزارعين خبرة ومعرفة. أعطوه المهارات والإرادة، وإدخال الآلات من الخارج. في ظل هذه الظروف يجب إيجاد وسائل لتسهيل عمل ملايين الناس، لكنه لا يعرف كل هذه الأشياء. وفقاً لمعارفه وعاداته ومتطلباته من الحياة، إنه لا يصلح لمثل هذه الأعمال.

أما الطبيب فهو الأسوأ حالاً. علمه التخيّلي له طبيعة تمكّنه فقط من معالجة أولئك الذين لا يعملون أيّ شيء، والذين يعتمدون على خدمات الآخرين. يحتاج إلى كمية كبيرة من الأدوات والمعدات الثمينة والطعام والمصاريف الكثيرة لكي يتصرف بطريقة علمية، وبالإضافة إلى أجرته، وإلى تأمين المصاريف اللازمة لمعالجة مريض آخر، يجوّع مئة شخص من أولئك الذين يقدمون له هذه المصاريف.

تلقى الطبيب تعليمه عند أبرز الشخصيات في المدن الكبرى، الذين يقبلون فقط أولئك المرضى الذين لديهم نفقات المبيت في المستشفيات، أو أولئك الذين يستطيعون شراء المعدات اللازمة للعلاج، والسفر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب من أجل هذه المعدات أو من أجل المياه المعدنية

مثلاً. علمهم هذا من النوع الذي يشكو فيه كلّ طبيب في كلّ بلدة من عدم وجود وسائل لمعالجة الشعب الكادح، وأنه فقير إلى درجة أنه لا يمتلك أية وسائل لوضع المريض في شروط صحية مناسبة، ويشتكي هذا الطبيب، في الوقت نفسه، من عدم وجود مستشفيات، ولكي يواكب التطور، فإنه بحاجة إلى مساعدين وأطباء وممرضين آخرين. ماذا يعني هذا؟ يعني أن سبب بؤس الناس، الذي بسببه تنتشر الأمراض وتستعصي على الشفاء، هو عدم توافر الحاجات الأساسية للناس. العلم يدعو «أبطاله»، وفقاً لمبدأ تقسيم العمل، لمساعدة الناس. يتوجه هذا العلم إلى فئة الأغنياء، وتصبح مهمته علاج هؤلاء الأغنياء، الذين يستطيعون أن يوفروا لأنفسهم كلّ متطلبات العلاج، وبالطريقة ذاتها يعالج أولئك الذين لا يملكون شيئاً. الوسائل غير متوافرة، ولذلك يجب انتزاعها من الشعب الذي يكابد الأمراض، وسبب عدم شفائه منها هو عدم توافر هذه الوسائل. يقول المدافعون عن فكرة أنّ الطب هو في خدمة الناس، إنّ هذه المهنة لم تتطور بما يكفي بعد. حقاً إنّها لم تتطور بعد؛ لأنها لو تطورت -لا قدر الله- فبدلاً من طبيبين الآن وقابلات وممرضين، سيضعون عشرين شخصاً، وسيعيش هؤلاء على حساب العمال، وسيموت حينها نصف الشعب بسبب عدم تحملهم أعباء هذا الانتشار الطبي الواسع، وحينها لن يجدوا أحداً يعالجونه. الخدمة العلمية للناس، التي يتحدث عنها المدافعون عن العلم، يجب أن تتم بطريقة أخرى، فهذه الخدمة، بشكلها الذي يجب أن تكون عليه، لم تبدأ بعد. تبدأ هذه الخدمة عندما يدرك كلّ من يعمل في الحقل العلمي، تقنياً أو طبيباً، أن تقسيم العمل الحالي غير قانوني: أي استغلال عمل الآخرين، ولا يعطي نفسه الحق في أخذ مبالغ من الناس، وأنا لا أشير هنا إلى مئات الآلاف، بل حتى إذا تقاضى منهم مبالغ متوسطة بين خمسمئة إلى ألف روبل، مقابل خدمته لهم، وأن يعيش وسط الكادحين، وفي الظروف نفسها التي يعيشون فيها، حينها سيطبق معارفه على المشاكل

التقنية والميكانيكية والطبية، ويسهم في علاج الشعب العامل. نسي الآن هذا العلم، الذي يعتاش على حساب العمّال، تماماً الظروف التي يعيشها هؤلاء العمال، وينكر (كما يدّعي رواده) هذه الظروف، ويشعر أربابه بالإهانة إذا قيل لهم إنّ علمهم التخيّلي ليس له تطبيقات عملية في حياة الناس.

إنّ مهنة الطب، مثل التكنولوجيا، ليست مكتملة بعد. لم تتطرّق بعد إلى الأسئلة حول كيفية تقسيم وقت العمل بصورة أفضل، وما هو الغذاء المناسب، وكيف نرتدي الملابس والأحذية المناسبة، وكيف نتعامل مع الرطوبة والبرد، وكيفية غسل ورضاعة وقماط الأطفال بشكل أفضل، وكل هذه الأسئلة التي تمس الظروف التي يعيش فيها العمال الآن.

مهنة المعلم والمربي هي كذلك مثل مهنة الطبيب والمهندس والتقني: وُضعت حيث يكون التعليم متاحاً للأغنياء فحسب، والمعلمون، كما الطبيب والتقني، ينجذبون قسرياً نحو المال، وينجذبون عندنا في روسيا بشكل خاص إلى الدولة.

لا يمكن أن يستمر هذا الحال؛ لأنّ المدرسة إذا صُمّمت بشكل نموذجي (كقاعدة عامة، كلَما كان تصميم المدرسة نموذجياً وعلمياً أكثر كان بناؤها مكلفاً أكثر)؛ أي فيها مقاعد مريحة، ومزودة بخرائط، وفيها مكتبات ووسائل تعليمية للمعلمين والمتعلمين، يجب مضاعفة الضرائب على سكان الريف لتأمين مصاريف بنائها. هذا ما يتطلّبه العلم. الناس بحاجة إلى الأولاد من أجل مشاركتهم في العمل، وخصوصاً إذا كانوا فقراء.

يقول المدافعون عن العلم إنّ التعليم يقدّم الفائدة للناس الآن، وكلَما تطور كان مفيداً أكثر. لنفترض أنّ التعليم تطور؛ أي بدلاً من عشرين مدرسة ستكون هناك مئة مدرسة نموذجية في كلّ مقاطعة، سيتعيّن عندها على الشعب الإنفاق على هذه المدارس، ومن ثَمّ سيصبح الناس أكثر فقراً، وسوف يستعينون بأطفالهم للعمل معهم بصورة أكبر.

يردون: «وما العمل. إنّ الدولة تبني المدارس، وتجعل التعليم إلزامياً كما في أوروبا». إنّ المصاريف ستؤخذ من جيوب الناس، وسيتحتّم عليهم العمل أكثر، وسوف تقلّ الفترات التي يرتاحون فيها، ولن ينجح التعليم الإلزامي. هنا مخرج وحيد أيضاً هو أن يعيش المعلم في الظروف نفسها التي يعيش فيها العمال، ويعلّم وفقاً للمقابل الذي يُعطى له طواعية وعن طيب خاطر من العمال. هذا التوجه الزائف للعلم هو الذي يمنعه من أداء واجبه في خدمة الناس.

إن أكثر أشكال زيف هذا التوجه وضوحاً يكمن في الحقل الفني؛ حيث إنه يجب أن يكون متاحاً للناس. يمكن أن يلجأ العلم إلى عذره الغبي، وهو أنّ العلم يعمل من أجل العلم نفسه، وعندما يطوّره العلماء، فإنّه سيصبح متاحاً للناس، لكنّ الفن، إذا كان فناً حقيقياً، يجب أن يكون متاحاً للجميع، ولاسيما أولئك الذين وُجد هذا الفن من أجلهم. إنّ الحالة الفنية الراهنة تستنكر بشدّة أنّ ممثليها من الفنانين لا يريدون ولا يتقنون ولا يستطيعون أن يكونوا مفيدين للناس.

يحتاج الرسام، لكي يرسم لوحاته العظيمة، إلى صالة يعمل فيها على الأقل أربعون شخصاً من النجارين والإسكافيين، الذين يتجمّدون من البرد، ويختنقون في أكواخهم البائسة، وهذا ليس كلّ شيء، فهو يحتاج أيضاً إلى الطبيعة والأزياء والرحلات. تنفق أكاديميّة الفنون الملايين التي جمعتها من الناس، لكي تشجّع الفن، ومنتجات هذا الفنّ معلّقة في صالات العرض. والناس غير مهتمّين بها، وهم أصلاً لا يفهمونها. لكي يعبّر الموسيقيون عن أفكارهم العظيمة، يجمعون مئتي شخص يرتدون بزات خاصة وربطات عنق بيضاء، وينفقون مئات الآلاف لعرض الأوبرا. إنّ مخرجات هذا الفن لا يمكن أن تُحدِث عند الناس، إذا أتيحت لهم، إلا الملل والذهول. الكتاب والمؤلفون ليسوا بحاجة إلى صالات عرض وطبيعة وأوركسترا وممثلين. لكنّ الكتاب والمؤلفين، ناهيك عن أماكن عيشهم المريحة، وملذات الحياة،

بحاجة إلى الرحلات والقصور والمكاتب وتذوّق الفنون وزيارة المسارح والحفلات وما شابه. إذا لم يكن لديه المال لكلّ هذا، فإنّهم يعطونه تعويضاً لكي يكتب بشكل أفضل. هذه المؤلفات التي نعطيها قيمة كبيرة، يَعدّها الناس ثرثرة لا فائدة منها.

ماذا لو تحقّقت رغبة ممثلي العلم والفن، وازداد عدد منتجي غذاء الروح، وأصبح ضرورياً في كلّ قرية بناء صالة عرض، وفرقة أوركسترا، وتأمين الظروف المناسبة للمؤلف التي يَعدّها أهل العلم والفن ضرورية؟ أتوقع أن العمال سيحجمون نهائياً عن النظر إلى اللوحات، أو الاستماع إلى السيمفونيات، أو قراءة الشعر والروايات، لكي يتحرّروا من عبء إعالة هؤلاء المتطفّلين. ما السبب الذي يمنع الفنانين والمتعلمين من خدمة الناس؟ ألا يوجد في كلّ عزبة ريفية صور ولوحات. ألا يغنّي كلّ الفلاحين والفلاحات؟ عندهم آلات موسيقية، ويروون الحكايات والشعر، والكثير منهم يقرؤون. كيف حدث أنّ شيئين مرتبطين بعضهما ببعض، مثل المفتاح والقفل، قد أُبعدا بعضهما عن بعض إلى درجة أنّنا لم نعد نتصوّر أنهما مرتبطان ببعضهما؟ أخبروا الفنان أن يرسم بلا صالة وطبيعة وأطقم، وأن يرسم لوحات مقابل خمسة كوبيكات. وسيقول لكم إنّ هذا يعني أنّه سيُعرض عن الفن كما يفهمه هو. اسألوا الفنان أن يعزف على الآلات الموسيقية، ويعلم الريفيات الأغاني، واسألوا الشاعر والمؤلف أن يترك أشعاره وрواياته، وأن يكتب الأغاني والحكايات والقصص المفهومة لجميع الناس حتى الأميين منهم، وسيتهمونكم بالخبل. أليس تخلّيهم عن وعودهم بتقديم الغذاء الروحي للعمال هو أسوأ من الخبل. هؤلاء العمال الذين أطعموا الفنانين والمتعلمين وألبسوهم، لكنّهم تحرروا من واجبهم نحوهم، ونسوا كيف يجعلون غذاء الروح مناسباً ومتاحاً للعمال، ورغم ذلك، إنّهم يعدّون نقضهم وعودهم إنجازاً قيّماً.

سيردون بالقول: «هذا هو الحال في كل مكان». سيبقى هذا الوضع غير الطبيعي في كلّ مكان طالما أنّ فئة من الناس، تحت ذريعة تقسيم العمل ووعدهم بخدمة الناس وبتقديمهم غذاءً لأرواحهم، ستستمرّ في استغلال جهود الآخرين. تكون خدمة الفنانين والمتعلمين حقيقية للناس عندما يعيشون وسط الناس، وفي الظروف نفسها التي يعيش فيها الناس، ولا يطلبون أيّ حقوق منه، والناس وحدهم من يقرّرون بإرادتهم قبول أو رفض الخدمات العلمية والفنية التي تُعرض عليهم.

العلم والفن... توزيع غير عادل للثروة

إنّ قولنا إنّ النشاط الذي يقوم به العلم والفن أسهم في دفع عجلة تطور البشرية إلى الأمام، ونحن نقصد النشاط المنضوي تحت راية العلم والفن؛ يشبه تماماً قولنا إنّ تحريك المجاديف بطريقة عشوائية لسفينة تسير مع الأمواج يسهم في تقدّم السفينة. إنّه يعيقها فحسب. إنّ ما يسمى تقسيم العمل؛ أي استغلال عمل الآخرين، الذي أصبح شرطاً لعمل الفنانين والمتعلمين في عصرنا، كان وسيبقى السبب الرئيس للتقدّم البطيء لحركة تطور البشرية.

ما يبرهن هذا هو اعتراف أهل العلم والفن بأنّ مخرجات العلم والفن ليست متاحة للشعب العامل، وذلك نتيجة التوزيع غير العادل للثروة. إنّ هذا التوزيع غير العادل لا ينقص مع تقدّم العلم والفن، بل يتوسع. يتظاهر أهل العلم والفن بالأسف الشديد على هذا الوضع البائس، الذي لا علاقة لهم فيه كما يدّعون، لكنهم هم من تسبّبوا فيه؛ لأنّ التوزيع غير العادل للثروة هو نتيجة لنظرية تقسيم العمل التي وضعوها هم. إنّ العلم الذي يدافع عن تقسيم العمل بوصفه قانوناً ثابتاً يرى أنّ توزيع الثروة، القائم على نظرية تقسيم العمل، غير عادل وكارثي، ويؤكد أنّ مخرجات العلم والفن، المبنية على نظرية تقسيم العمل، هي مفيدة للناس.

نستنتج أنّ فئة من الناس ستستغلّ جهود الآخرين، ولكن ماذا لو أنّ هذه الفئة استفادت من عمل الآخرين لفترة طويلة، وعلى نطاق واسع، فإنّ هذا التقسيم غير العادل للثروة؛ أي استغلال عمل الآخرين، سينتهي.

يقف بعضهم عند نبع ماء، وينشغلون بتغيير اتجاه المياه بعيداً عن العطشى، ثمّ يؤكّدون أنّهم هم من جلبوا هذه المياه، وأنّهم قريباً سيزيدون

من تدفّقها لكي يشرب منها كلّ الناس، ولكن تتدفّق هذه المياه، إنها تتدفق ولاتزال تتدفق من دون انقطاع، وتروي كلّ البشرية، وتدفقها لا علاقة له بما يفعله هؤلاء الناس الواقفون عند النبع، وهم يحاولون تغيير وجهتها، وستستمر في التدفق رغم مساعيهم لقطعها عن الناس.

ثمة دائماً كنيسة حقيقية؛ أي إن الناس توحدوا في أسمى حقيقة ممكنة، خلال فترة زمنية محددة، وكانت هذه الكنيسة حقيقية ليس لأنها أطلقت على نفسها هذا الاسم، بل لأن الناس اشتركوا في فهم الحقيقة؛ كذلك كان هناك علم وفن في كل زمان ومكان، لكنهما لم يكونا حقيقيين لأنهما يُسميان كذلك فحسب. يعتقد من يَعدّون أنفسهم ممثلين للعلم والفن دائماً أنهم قدموا ويقدمون، والأهم هو وعدهم بأنّهم سيفعلون المعجزات المذهلة، ومن دونهم، لم يكن ولا يمكن أن يكون هناك أيّ علم أو فن. هذا ما اعتقده السفسطائيون والمدرسيون[1] والخيميائيون والقباليون[2] والتلموديون، وممثلو مقولة العلم للعلم والفن للفن في عصرنا.

---

1 المدرسية أو المكتبية أو السكولاستية تطلق عادةً على مدرسة فلسفية سادت في أوروبا في العصور الوسطى، وكانت تستخدم منهجاً نقدياً في التحليل الفلسفي، بناءً على نموذج مسيحي ألوهي ولاتيني: وهو المنهج الذي كان مسيطراً على التدريس في جامعات أوروبا خلال العصور الوسطى منذ نحو عام 1100 حتى عام 1700. انحدرت السكولاستية من مدارس الرهبنة المسيحية، التي كانت الأساس الذي نشأت منه أقدم الجامعات الأوروبية خلال العصور الوسطى. وارتبط صعود السكولاستية بشكل مباشر بصعود المدارس المزدهرة خلال القرن الثاني والثالث عشر، في كل من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا. وبلغت الفلسفة المدرسية أعلى مراحل تطورها في فلسفة توما الأكويني.

2 هي معتقدات وشروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة والكون والربانيات. بدأت عند اليهود وبقيت حكراً عليهم لقرون طويلة حتى أتى فلاسفة غربيون وطبقوا مبادئها على الثقافة الغربية في ما يسمى العصر الجديد. يعتقد أتباعها أن تعاليم القبالة أقدم من التاريخ الذي نعلمه، وأنها سابقة لكل الأديان والطرق الروحية التي نعرفها، وأنها تشكل المخطط الأساسي لكل الإبداعات الإنسانية من الفلسفة والدين والعلوم والفنون والأنظمة السياسية. انبثقت القبالة بوصفها شكلاً بدائياً للباطنية اليهودية في القرن الثاني عشر في إسبانيا وجنوب فرنسا، ثم أعيد تشكيلها في عهد النهضة اليهودية في القرن السادس عشر في فلسطين العثمانية، ثم تطورت في القرن العشرين في ما يسمى التجديد اليهودي، وانتشرت في أوساط روحانية غير يهودية، كما تلقت الاهتمام من الدوائر الأكاديمية.

أهمية العلم والفن

«لكن ماذا عن العلم والفن! أنت تنكر العلم والفن؛ أي أنك تنكر ما تعيش عليه البشرية». أسمع مثل هذه العبارات كثيراً، ويقولونها، وهي بمنزلة ردّ على حججي دون أن يقدموا شروحات مقنعة. «هو ينكر العلم والفن، ويريد أن يعيد الناس إلى العصر البربري. كيف نستمع إليه ونتحدث معه إذاً؟». لكن كلامهم غير صحيح. أنا لا أنكر العلم والفن هكذا فحسب، بل أقول ما أقوله فقط باسم العلم والفن الحقيقيين، ولكي تصبح البشرية قادرة على الخروج من الحالة البربرية التي تهبط نحوها بسرعة، بسبب العلم الزائف في عصرنا. قلت ما قلته لهذا السبب فحسب.

العلم والفن ضروريان للناس، مثل الطعام والشراب واللباس، بل إنهما أكثر أهمية منها، لكنهما مهمان ليس لأننا قررنا أن ما نسميه علماً وفناً هما ضروريان لحياتنا، بل فحسب لأنهما حقاً ضروريان للناس.

إذا حضّرنا التبن وجعلناه غذاءً للناس، فإن ادّعائي أن التبن هو غذاء يصلح للبشر لن يجعله كذلك حقاً. أنا لا أستطيع القول: «لماذا لا تأكل التبن، طالما أنه غذاء ضروري؟». الغذاء ضروري، ولكن قد يحدث أن ما أعدّه غذاءً مناسباً قد لا يكون مناسباً على الإطلاق. هذا ما حدث مع العلم والفن. نحن نعتقد أننا إذا أطلقنا اسماً على أيّ شيء بإضافة اللاحقة «لوغيا» إلى الكلمة اليونانية، وسميناه علماً، فإنه سيصبح علماً، وإذا أطلقنا على أيّ فعل قبيح، مثل رقص النساء العاريات، الكلمة اليونانية «خوريوغرافيا»؛ أي فن الرقص، فسيصبح فناً. مهما تكلمنا على هذا العمل الذي نقوم به،

ونحن نحصي الحشرات، وندرس التركيب الكيميائي لنجوم مجرة درب التبانة، ومهما رسمنا حوريات البحر واللوحات التاريخية، وكتبنا الروايات والسيمفونيات، إن ما نقوم به لا يمكن أن يكون علماً وفناً طالما أنّ الناس، الذين قمنا بكلّ هذه الأشياء من أجلهم، لا يستطيعون تلقيها طواعية، وهم حتى الآن لا يستطيعون ذلك.

إذا سُمح لفئة من الناس بإنتاج الغذاء، بينما مُنعَ الآخرون من القيام بهذا، أو وُضعوا في ظروف لا تسمح لهم بإنتاج الغذاء، فإنّني أفترض أن جودة الغذاء المنتج ستنخفض. إذا احتكر المزارعون الروس إنتاج الغذاء، فلن تكون هناك أنواع أخرى من الغذاء غير الخبز الأسود وشوربة شي[1] والكفاس، وغيرها من المأكولات التي يحبونها. وهذا ما سيحدث مع النشاط البشري الأسمى للعلم والفن إذا احتكرت فئة ما إنتاج الغذاء الروحي. لكنّ الفرق هنا هو أن غذاء الجسد، مهما كان نوعه، لا يحدث فروقات كبيرة، فالخبز والملفوف يمكن أن يُؤكلا رغم أنهما ليسا لذيذين، لكن غذاء الأرواح يمكن أن يحدث فروقات هائلة؛ حيث يمكن لبعض الناس أن يغذوا أرواحهم، ولفترة طويلة، بما هو غير ضروري، بل قد يكون ضاراً وساماً لأرواحهم، ويمكنهم أن يقتلوا أنفسهم ببطء بالأفيون أو الكحول الروحي، ويعرضون هذا الغذاء نفسه على الناس.

هذا ما حدث معنا بالضبط؛ حدث لأن الفنانين والمتعلمين يتمتعون بميزات تفضيلية عن غيرهم، ولأن العلم والفن (في العصر الراهن) في عالمنا ليست نشاطات عقلانية تمثّل البشرية كلّها من دون استثناء؛ هذه البشرية التي تسخّر أفضل ما تملكه لخدمة العلم والفن، بل هي نشاطات فئة صغيرة من الناس الذين يحتكرون هذه الأنشطة، ويسمون أنفسهم متعلمين وفنانين، وهذا ما جعلهم يشوهون كل مفاهيم العلم والفن، ويفقدون معنى رسالتهم

---

1 شوربة شي هي شوربة روسية تحضر من الملفوف.

ودعوتهم، فقط لكي يرفّهوا عن طبقتهم الصغيرة الطفيلية، ويخلصوها من حالة الملل الرهيبة التي تعيشها. لطالما كان هناك علم في كل عصور التاريخ، بالمعنيين البسيط والمعقد لكلمة «علم».

العلم الذي يضم كلَ معارف البشرية كان موجوداً دائماً، وهو موجود الآن، ولا معنى للحياة من دونه، ولا داعي لمهاجمة العلم، وهو بهذا المفهوم، أو الدفاع عنه. المشكلة تكمن في تنوع مشارب الحقل العلمي الذي يضم معارف البشرية كلها، ابتداءً من معرفة كيفية استخراج الحديد، وصولاً إلى معرفة المبدأ الذي تتحرّك وفقه الأجرام السماوية؛ حيث يضيع الإنسان وسط هذه المعارف المتنوعة في كل المجالات، إذا لم يمتلك الأدوات التي تساعده في ترتيب هذه المعارف وفق أهميتها وضرورتها. قبل أن يعرف الإنسان أيّ معلومة عن أيّ شيء، يجب عليه أن يقرّر هل هذه المعرفة مفيدة ومهمة له أكثر من المعارف الأخرى التي لا حصر لها، وقبل أن يدرس أي موضوع، عليه أن يقرر لماذا يدرسه دون غيره. إن دراسة كلّ شيء، كما يعلّم أصحاب نظرية العلم من أجل العلم في وقتنا الحالي، من دون تصوّر عن مخرجات هذه الدراسة، غير ممكنة؛ لأن الموضوعات التي تُدرَس لا حصر لها، ولأننا مهما درسنا هذه الموضوعات ستبقى دراستها بلا أيّ معنى أو أهمية. لذلك في العصور القديمة، حتى قبل زمن ليس ببعيد، وقبل أن يظهر العلم الذي يسعى من أجل العلم نفسه، مثل الكنيسة، تمثّلت قمة الحكمة في إيجاد الدليل الذي بموجبه يتمّ ترتيب المعارف البشرية وفقاً لدرجة أهمّيتها. هذا الدليل الذي يرتب المعارف الإنسانية هو ما يطلقون عليه اسم «العلم» بالمعنى الدقيق للكلمة. كان هذا العلم موجوداً، حتى عصرنا الحالي، في كلّ المجتمعات البشرية، التي خرجت من الحالة البدائية. منذ أن وُجدت البشرية، كان هناك معلمون، في كلّ المجتمعات، حدّدوا العلم في هذا المعنى الدقيق: أي العلم الذي يحدد ما هي المعارف الأكثر أهمية للإنسان. كانت غاية هذا

العلم معرفة ما هو المهم، وأين يكمن الخير الحقيقي لكلّ شخص، وللبشرية جمعاء. مثّل هذا العلم الدليلَ الذي يوضح أهمية كل المعارف الأخرى.

هذا ما تضمنه علم كونفوشيوس وبوذا وموسى وسقراط والمسيح ومحمد وآخرون؛ وهذا العلم هو ما فهمه ويفهمه الناس جميعاً الآن، باستثناء طبقتنا التي تسمى طبقة المتعلمين. لم يشغل هذا العلم المكان الأبرز فحسب، بل كان هو المحدد لأهمية كل المعارف الأخرى. حدث هذا ليس بسبب الذي يدّعيه من يسمون أنفسهم المتعلمين في عصرنا، وهو أن الكهنة المخادعين؛ أي من ينشرون هذا العلم ويعلّمونه للناس، أعطوه هذه الأهمية، بل لأنه يستحيل حقاً، كما تثبت التجربة العملية والتفكير المنطقي، وجود علوم وفنون حقيقية بلا علم يحدّد أين تتجلى أهمية وصلاح الإنسان، ومن ثم الموضوعات التي يدرسها العلم والفن والتي لا حصر لها (أركز على وصفها بأنها لا حصر لها، لأنني أقصدها بمعناها الدقيق)؛ من دون معرفة أين تتجلى أهمية وخير الناس جميعاً، ليست هناك أيّ إمكانية للاختيار بين هذه الكمية غير المحدودة لموضوعات الدراسة، فمن دون هذه المعرفة ستبقى هذه العلوم والفنون، كما هو الحال الآن، مجرد عبث لا فائدة منه.

عاشت البشرية عصوراً طويلة، ولم تستطع العيش، في أيّ عصر من العصور، من دون علم يحدّد لها أين تتجلّى رسالتها، وأين هو صلاحها. في الحقيقة، إنّ الملاحظات السطحية حول العلم الذي يدعو إلى خير البشرية تظهر لنا أنّ هذا العلم مختلف تماماً بين البوذيين والبراهمة[1] واليهود والمسيحيين والكونفوشيوسيين والطاويين[2]، ولكن يكفي فقط التعرّف إلى

1 البراهمة اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين. عند الهندوس.

2 الطاوية هي تقليد ديني أو فلسفي ذو أصل صيني، وهي تؤكد على العيش في وئام مع الطاو، والطاو هو فكرة أساسية في معظم المدارس الفلسفية الصينية. ومعناها في الطاوية المبدأ الذي هو مصدر ونمط ومضمون كل شيء موجود في الحياة.

هذه التعاليم، حتى نستنتج أنّها تحمل الجوهر نفسه. وفي كلّ الأحوال، كلما رأينا مجتمعاً خرج من الحالة البدائية، سوف نجد هذا العلم موجوداً. وفجأة، يخرج أهل عصرنا ليقولوا إن هذا العلم نفسه، الذي حدد، قبل وقتنا الحالي، ترتيب المعارف البشرية هو العائق لأي تقدم.

يقرر بعضهم بناء بيت، فيأتي مهندس ويضع مواصفات هندسية، ثم يأتي مهندس آخر ويضع مواصفات أخرى، ثم يأتي ثالث ويضع مواصفات أخرى. المواصفات مختلفة، لكنّها صحيحة؛ حيث إنّ كلاً منهم يرى أنّ البيت سيُبنى إذا وُضع كلّ شيء في مكانه. هؤلاء المعماريون هم كونفوشيوس وبوذا وموسى والمسيح. فجأة يأتي من يقول لهم إنّ أهم عامل لنجاح البناء هو ألا يكون هناك أيّ مخطط هندسي، وأن يُبنى البيت «هكذا» تقديراً بالنظر. هذا التقدير بالعين الذي يتم «هكذا» يسمونه علماً، تماماً كما يسمي البابا نفسه القديس. ينكر الناس أيّ علم يدعو في جوهره إلى رسالة البشرية وصلاحها، وهذا الإنكار يسمونه علماً.

منذ وُجد البشر، ظهر بينهم أصحاب عقول عظيمة طرحوا على أنفسهم أسئلة، في صراعهم مع متطلبات العقل والضمير، حول رسالة البشر وأين يتمثل ليس خير الفرد فحسب، بل خير البشرية كلها. ما الذي تريده تلك القوة التي خلقتني وتسيّر حياتي مني ومن كل شخص؟ وما الذي عليّ فعله لكي ألبّي متطلبات مصلحتي الشخصية، ومتطلبات المصلحة العامة؟ سألوا أنفسهم: أنا كلّ وجزءٌ من شيء ما عظيم غير محدود. ما هي علاقاتي مع تلك الأجزاء المناسبة لي؛ أي مع الناس، وما هي علاقتي مع الكل؛ أي مع العالم؟

استخلص هؤلاء العلماء العظماء تعاليمهم البسيطة والواضحة والمفهومة لجميع الناس من صوت الضمير والعقل، ومن تصورات وأقوال من سبقوهم ومن المعاصرين، الذين سألوا أنفسهم الأسئلة ذاتها، ودائماً كانت هذه التعاليم قابلة للتنفيذ. كان هؤلاء من المستويات الأولى والثانية والثالثة،

ومن كل المستويات في المجتمع. العالم مليء بمثل هؤلاء الأشخاص. يطرح جميع الناس على أنفسهم السؤال الآتي: كيف أوفّق بين متطلبات مصلحة حياتي الشخصية والضمير والعقل اللذين يدعواني للصالح العام؛ حيث تنتج عن هذا التوافق، ببطء ولكن باستمرارية، أشكال جديدة للحياة، تتوافق مع العقل والضمير؟ فجأة تنبري فئة من الناس لتقول إن كل هذا هراء، ويجب عدم الإنصات إليه. هذا هو المنهج الاستنباطي (أما الفرق بين الاستنباط والاستقراء فلا أحد يفهمه). كانت هذه المناهج مستخدمة في الفترة التي نشطت فيها الأفكار الميتافيزيقية واللاهوتية. كلّ ما اكتشفته البشرية بالتجربة الداخلية، وتداولته عبر التاريخ، حول قانون الحياة (النشاط الوظيفي كما يسمونه بلغتهم الخاصة)؛ كلّ ما ابتكره أصحاب العقول العظيمة منذ بداية التاريخ في هذا المجال، هو في رأيهم هراء، وليس له أي وزن. تستنتج وفقاً للعلم الجديد أنك خلية، ولمّا كنت خلية، فإنّ لك نشاطك الوظيفي الخاص بك، وهذا النشاط لا تلاحظه فحسب، بل تشعر به كذلك في داخلك، ولمّا كنت خلية تفكّر وتتكلم وتفهم، فإنّك تستطيع أن تسأل خلية أخرى تتكلّم، أيضاً، حول شعورها بما تشعر به أنت، وبهذا تستطيع التحقق من تجربتك الخاصة. أما استفادتك من كل ما أكدته الخلايا الناطقة التي سبقتك حول هذا الموضوع، وأنّ لديك ملايين الخلايا التي تشارك الخلايا السابقة الأفكار التي توصلتَ إليها أنت بملاحظاتك، فكلّ هذا هراء لا معنى له، ويسمونه منهجاً خاطئاً وسيئاً. المنهج العلمي الصحيح، في رأيهم، هو أنك إذا أردت أن تعرف أين تتمثل رسالتك ومصلحتك في الحياة، وأين تتمثل رسالة البشرية كلها ومصلحتها، فإنّ عليك أن تتوقف، أولاً وقبل كلّ شيء، عن سماع صوت ومتطلبات عقلك وضميرك، اللذين يخاطبانك من داخلك أنت، وداخل كلّ من هم مثلك، وعليك أن تتوقّف عن تصديق كلّ ما قاله علماء البشرية العظماء حول العقل والضمير، وأن تَعدّ كلّ ما قالوه هراء، وتعود إلى البداية.

لكي تفهم كلّ شيء من البداية، يجب عليك النظر في المجهر إلى حركة الأميبا والخلايا في الديدان الطفيلية، والتسليم بكلّ ما يقوله أولئك الحاصلون على شهادات بأنّهم معصومون من الخطأ. عندما تراقب حركة هذه الأميبات والخلايا، أو تقرأ ما كتبه الآخرون عنها، فإنّك تعزو إليها كلّ مشاعرك وحساباتك البشرية، حول ما تريده هي، وما تسعى إليه، وما تتصوّره وتحسب له حساباتها، وعاداتها، وتستخلص من تلك المشاهدات (حيث تتضمن كل كلمة فيها خطأ فكرياً أو تعبيرياً)، وفق مبدأ القياس، ماهيتك أنت، ورسالتك، وأين يتجلى صلاحك وصلاح الخلايا الأخرى المشابهة لك. ولكي تفهم نفسك، يجب عليك أن تدرس ليس الدودة الطفيلية التي تراها فحسب، بل الكائنات المجهرية التي تكاد تراها أيضاً، والتحولات التي تحدث من كائنات إلى أخرى؛ هذه التحولات التي لم يرها أحد، وعلى الأغلب لن تراها أنت كذلك.

ينطبق الأمر ذاته على الفن. الفن موجود، طالما كان هناك علم حقيقي كان هذا الفن معبراً عنه. منذ بدأت الحياة، حين ميزوا تعبيراً أساسياً، من بين كلّ النشاطات المعبرة عن المعارف المختلفة، حول رسالة وصلاح الإنسان، ومثّل هذا التعبير المميز فناً بالمعنى الدقيق للكلمة. منذ بدأت الحياة، كان هناك أشخاص امتلكوا إحساساً مرهفاً، وتجاوبوا مع العلم الذي يدعو إلى خير وصلاح الإنسان، وعبّروا بالعزف على الجوسلي (آلة موسيقية) والطبول، وبالرسوم والكلمات، عن صراعهم الفردي وصراع البشرية كلها مع الخدع التي تشغلهم عن تأدية رسالتهم الحقيقية، وعن معاناتهم في هذا الصراع، وعن آمالهم في نشر الخير، وعن يأسهم في انتصار الشر، وعن بهجتهم وهم ينتظرون هذا الخير القادم. لم يمثل الفن الحقيقي، الذي أعطاه الناس قيمة كبيرة، منذ وُجدت البشرية، أيّ معنى آخر سوى أنه تعبير عن العلم الذي يبحث في رسالة البشر وصلاحهم.

كان الفن دائماً، حتى وقت قريب، ممثلاً للتعاليم التي تدور حول حياة الناس، وهذا الفن هو الذي حظي بتقدير كبيرٍ من الناس. لكنّ الفن اختفى، كنشاط بشري مهم، في الوقت نفسه الذي حلَ فيه العلم الذي يتحدّث عن كلِّ شيء يتبادر إلى الذهن مكان العلم الحقيقي الذي يتحدث عن رسالة البشرية وخيرها. وُجد الفن في كلِّ المجتمعات، وهو موجود طالما لم يمثّل ما يسمونه ازدراءً «دين» العلم الحقيقي.

في عالمنا الأوروبي، عندما هدفت عقيدة الكنيسة إلى تحقيق رسالة البشرية وخيرها، وعدّت تعاليمها العلمَ الحقيقيَّ الوحيد، خدمها الفن، وكان فناً حقيقياً، ولكن ما إن خرج الفن عن تعاليم الكنيسة، وأصبح خادماً للعلم الذي يخدم بدوره أيّ شيء يجده، حتى فقد الفن معناه. وبغض النظر عن الادعاءات القديمة بامتلاك أصحاب الفن حقوقاً معينة، والتأكيدات الفارغة، التي ليست إلا إثباتاً لفقدان الفرضيّة لصحتها بأنّ الفن يخدم الفن فحسب، أصبح الفن حرفة من أجل إمتاع الناس، وهو بهذا يختلط مع فنون الرقص والطهي والحلاقة والتجميل، التي يسمي أصحابها أنفسهم الفنانين، ويدّعون امتلاكهم الحقوق ذاتها التي يمتلكها الشعراء والرسامون والموسيقيون في عصرنا.

لو نظرت إلى التاريخ، فسترى أنّ من بين مليارات من الناس، خلال آلاف السنين، هناك العشرات بينهم فقط مثل كونفوشيوس وبوذا وسقراط وسليمان الحكيم وهوميروس واشعياء وداود. يبدو جلياً أن ظهور هؤلاء العلماء والفنانين الحقيقيين، منتجي غذاء الروح، هو نادر بين الناس، مع أنهم لا ينتمون إلى فئة معينة من الناس، بل هم يمثلون كل الأطياف المجتمعية، ولم يأتِ تقدير البشرية لهم، في الماضي والحاضر، من فراغ. يبدو الآن أننا لم نعد بحاجة إلى هذه الشخصيات العظيمة في الحقلين العلمي والفني. نستطيع الآن، وفقاً لقانون تقسيم العمل، إيجاد الفنانين والعلماء بطريقة صناعية، وسيصبح لدينا عظماء في العلم والفن، خلال عشر سنوات، أكثر

من العظماء الذي ظهروا بين الناس منذ بداية الحياة. هناك الآن ورشة عمل لفنانين ومتعلمين يحضرون بطريقة متطورة كل الغذاء الروحي الذي تحتاج إليه البشرية. أنتجوا الكثير؛ حيث لم تعد هناك أيَ أهمية لكلّ ما أُنتج في الماضي ليس البعيد فحسب، بل ما أنتج في وقت قريب؛ لأنه، كما يقولون، يمثل الفترة اللاهوتية والميتافيزيقية، ويجب التخلص منه. بدأ النشاط العقلي الحقيقي قبل خمسين سنة، وظهر بيننا، خلال هذه السنوات الخمسين، عدد كبير من العظماء؛ حيث يوجد في كلّ حقل علمي عشرة أشخاص، وأصبح من السهل استحداث حقول علمية، بإضافة اللاحقة لوغيا إلى كلمة يونانية، ووضعها وفق ترتيب معين، لتصبح علماً قائماً في حد ذاته. استحدثنا الكثير من الفروع العلمية ليس إلى الحد الذي لا يمكن لشخص واحد أن يعرفها كلها، بل إلى درجة أن شخصاً واحداً لا يمكنه حتى تذكر أسمائها التي تشغل قاموساً سميكاً، وفي كلّ يوم تظهر علوم جديدة. أوجدنا الكثير منها؛ حيث أصبح حالنا مثل ذاك المعلم الفنلندي الذي علَم أبناء سيّده اللغة الفنلندية بدل أن يعلمهم الفرنسية. تعلّمنا بطريقة رائعة، ولكن الكارثة الوحيدة هي أن ما تعلمناه لا أحد يفهمه غيرنا، ويعدّه بقية الناس كلاماً فارغاً لا فائدة منه. هناك شرح لكل هذا. يقولون إن الناس لا يدركون أهمية العلم الذي يسعى من أجل العلم فحسب؛ لأنهم واقعون تحت تأثير الحقبة اللاهوتية، تلك الحقبة الغبية، عندما كانت الشعوب كلها، اليهود والصينينون والهنود واليونانيون، تفهم ما يقوله لها معلموها العظماء.

ومهما كان السبب، إن العلم والفن كانا موجودين دائماً عند البشرية، وعندما وُجدا وكان لهما تأثير، كانا مفهومَيْن ومهمَّيْن لجميع الناس. نحن نقوم بما نسميه علماً وفناً، ولكن يبدو أن ما نقوم به ليس ضرورياً ولا مفهوماً للناس، ولذلك مهما كانت الأشياء التي نقدمها رائعة؛ لا نملك الحق في أن نسميها علوماً وفنوناً.

العلم والفن الحقيقيان

يقولون لي: «أنت تقدم تعريفاً ضيقاً للعلم والفن لا يتوافق مع العلم والفن ومختلفاً عنهما». يبقى كل النشاط العلمي الذي قام به غاليلو[1] وبرونو[2] وهوميروس وميكيل آنجيلو[3] وبيتهوفن، والعلماء والفنانون الآخرون ذوو المستويات الأقل، الذين سخروا حياتهم كلها لخدمة العلم والفن، والذين كانوا وسيبقون أصحاب فضل على البشرية كلها. يقولون هذا وهم يحاولون نسيان المبدأ الجديد لتقسيم العلم، الذي على أساسه يأخذ العلم والفن مكانة مميزة الآن، والذي يتيح لنا فرصة لم تأتِ من فراغ، بل وفقاً للمعيار ذاته الذي وضعوه هم، الحكم على هذا النشاط الذي يسمونه علماً أو فناً بأنه يستحق هذه التسمية أو لا.

---

1 غاليليو غاليلي (1564 - 1642) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي. وُلد في بيزا في إيطاليا. يوصف، في بعض الأحيان، بالعلَامة. نشر نظرية مركزية الشمس التي جاء بها كوبرنيكوس، ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية. قام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، سالكاً من أجل ذلك طريق الملاحظة والتجربة.

2 غوردانو برونو (1548 - 1600) فيلسوف إيطالي حُكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية. وهو فيلسوف إيطالي شهير. كان راهباً أيضاً في البداية، لكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة في ما بعد.

3 ميكيل آنجيلو بوناروتي (1475 - 1564) رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي، كان لإنجازاته الفنية الأثر الأكبر على محور الفنون ضمن عصره وخلال المراحل الفنية الأوروبية اللاحقة. رأى ميكيل آنجيلو أنّ جسد الإنسان العاري الموضوع الأساسي في الفن ما دفعه إلى دراسة أوضاع الجسد وتحركاته ضمن البيئات المختلفة.

عندما وضع الكهنة المصريون واليونانيون أسرارهم التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئاً، وقالوا إن العلم والفن يتمثلان في هذه الأسرار، لم أستطع التحقق من حقيقة علمهم، على أساس الفائدة التي سيقدمونها للناس؛ لأن العلم، وفقاً لتأكيدهم، كان فوق الطبيعة، أمّا الآن فلدينا تعريف واضح وبسيط للعلم والفن يستثني كلَّ ما هو خارق للطبيعة، فالعلم والفن يعدان بأداء النشاط الذهني للبشرية في سبيل خير المجتمعات والبشرية كلها. ومن ثم نحن لدينا الحق في إطلاق تسمية العلم والفن فحسب على ذلك النشاط الذي له هذا الهدف، ويسعى للوصول إليه. لذلك مهما أطلق العلماء على أنفسهم هذا اللقب، وهم يبتكرون نظريات القانون الجنائي والمحلي والدولي، ويخترعون المدافع والمتفجرات الجديدة، ومهما ألف الفنانون والكتّاب الأوبرا والروايات التافهة؛ ليس لنا الحق في تسمية هذه النشاطات كلّها بأنّها وظيفة العلم والفن؛ لأن هذه النشاطات لا تتخذ من خير المجتمعات البشرية هدفاً لها، بل على العكس، هي تلحق الأذى بالناس.

كذلك مهما أطلق هؤلاء المشغولون بدراسة الحيوانات المجهرية والظواهر الطيفية والتلسكوبية لقب علماء، أو أولئك الفنانون، الذين انشغلوا، بعد دراسة عميقة للتاريخ، بكتابة الروايات التاريخية واللوحات والسيمفونيات والأشعار الرائعة؛ إنّ كلَّ هؤلاء، بغض النظر عن مثابرتهم، لا يمكنهم أن يمثلوا العلم والفن لسببين: الأول أن نشاط العلم الذي هو من أجل العلم، والفن الذي يهدف لخدمة الفن، ليس له أيّ هدف لخير البشرية. أمّا السبب الثاني فهو أننا لم نرَ انعكاساً لهذا النشاط على خير المجتمع أو البشرية. يمكن أن تنتج أحياناً عن هذه الأنشطة فائدة ومتعة لبعض الناس، كما يمكن أن ينتج عن أيّ شيء كان فائدة ومتعة لبعض الناس، لكنّ هذا لا يعطينا الحق في أن نعدّهم علماء وفنانين.

ينطبق الأمر ذاته على أولئك الذين يستخدمون الكهرباء في الإضاءة والتدفئة وفي المحركات، والذين يبتكرون روابط كيميائية جديدة ينتج عنها ديناميت وألوان رائعة، وأولئك الذين يعزفون بشكل رائع سيمفونيات بيتهوفن، ويمثلون في المسرح، أو يرسمون صور بورتريه رائعة ومناظر طبيعية رائعة، والذين يكتبون روايات رائعة، بهدف تسلية الأغنياء وطرد الملل من حياتهم؛ إنّ كلّ هذه النشاطات لا يمكن أن تكون علماً وفناً؛ لأنّها غير موجهة، تماماً مثل الكائن الحي، إلى المصلحة العامة، بل هي تسعى وراء المنفعة الشخصية والامتيازات والأموال التي يتمّ الحصول عليها من خلال إنتاج هذا الفن المزعوم، لذلك لا يمكن فصل نشاطات العلم والفن هذه عن أيّ نشاطات أخرى يسعى أصحابها إلى الكسب والمصلحة الشخصية، وتسهم في أشياء يقبل عليها الناس، مثل عمل أصحاب المطاعم وسائقي العربات والعاهرات، فإنّ نشاط كلّ هؤلاء لا يتوافق مع تعريف العلم والفن، اللذين يعِدان، وفق مبدأ تقسيم العمل، بخدمة المصلحة البشرية عامة أو مصلحة المجتمع الذي يقدمان فيه نشاطاتهما.

إن التعريف العلمي للعلم والفن هو صحيح تماماً، لكنّ مخرجات العلم والفن المعاصرين، للأسف، لا تتناسب مع تعريفهما. يلحق بعضها ضرراً مباشراً بالناس، وبعضها الآخر بلا أيّ فائدة، ويبتكر قسمٌ ثالث منها توافه وترهات مناسبة للأغنياء فحسب. هم لا ينجزون ما أخذوه على عاتقهم، وفق تعريفهم الخاص للعلم والفن، وللسبب نفسه ليس لهم الحق في أن يسموا أنفسهم علماء وفنانين؛ كذلك الحال بالنسبة إلى الروحانيين، الذين لم يفوا بوعودهم، ومن ثَمَّ هم لا يملكون الحقّ في تسمية أنفسهم حاملي الحقيقة الإلهية.

إن السبب الذي منع أرباب العلم والفن المعاصرين من إنجاز ما وعدوا به هو أنهم جعلوا من واجباتهم حقوقاً يُلزمون الآخرين من خلالها بتقبل منتجاتهم. إن النشاط العلمي والفني بمعناه الحقيقي يكون مثمراً فقط عندما

لا يعرف شيئاً عن الحقوق، بل يعرف الواجبات فحسب. متى حقق العلم والفن هذه المعادلة، وحافظا عليها، فإنهما سوف يحظيان بتقدير عالٍ من البشرية. إذا دُعي مجموعة من الناس حقاً إلى خدمة الآخرين روحياً، فإنّ عليهم أن يروا واجباتهم فحسب في هذا العمل، وأن يعانوا في هذا العمل الذي يترافق مع الحرمان والتضحية.

لا يمكن للمفكر أو الفنان أن يجلس بكل أريحية فوق مرتفعات أوليمبوس، كما اعتدنا هذه الصورة النمطية، بل يجب عليه أن يعاني مع الناس لكي يجد لهم طريقاً للخلاص، أو وسيلة لتسليتهم. سوف يعاني لأنه في حالة دائمة من الهيجان والقلق، قد يجد حلاً ويشرح لهم الكيفية التي توصلهم إلى الخير والصلاح، ويخلصهم من معاناتهم، ويواسيهم ويسليهم. قد يجد كل هذه الأفكار، وهو لا يدري، ولم يقلها للآخرين، وقد يتأخر، فيموت غداً قبل أن يقولها، ولذلك إن المعاناة والتضحية هما المرافقان الدائمان للمفكر أو الفنان.

لن يكون مفكراً أو فناناً من ينشأ في المعاهد التي تخرّج المتعلمين والفنانين (في الحقيقة هم يصنعون مدمرين للعلم والفن)، وينال شهادة، ويوفرون له ضمانات لمعيشته، فهو سيعيش حياته سعيداً من دون أي تفكير يشغل به دماغه، ومن دون أن يعبر عما يجول في رأسه، لكنه لا يستطيع أن يهمله، فسيصبح تحت تأثير قوتين متجاذبتين: حاجاته الذاتية، ومتطلبات المجتمع.

لا يمكن للمفكرين والفنانين الحقيقيين أن يكونوا مغرورين ومرفَّهين ومنعّمين. إن النشاط الروحي والتعبير عنه ضروريان حقاً من أجل الآخرين، هما الرسالة الأكثر صعوبة للإنسان، تماماً مثل حمل الصليب الذي ذُكر في الإنجيل.

المؤشر الوحيد الواضح على الاعتراف برسالة الإنسان تجاه الآخرين حوله هو إنكار الذات، التضحية بالنفس في سبيل إظهار القوة الكامنة داخل الإنسان التي تجلب المنفعة للآخرين.

إن إحصاء عدد الحشرات في العالم، والنظر إلى الأطياف في شعاع الشمس، وكتابة الروايات والأوبرا، يمكن إنجازها بلا معاناة، لكنّ تعليم الناس أين يكمن خيرهم، الذي لا يمكن أن يكون إلا في إنكار الذات، وفي خدمة الآخرين، لا يمكن التعبير بقوة عنه من دون إنكار الذات.

كانت هناك كنيسة حقاً عندما تحمّل معلموها وعانوا، ولكن ما إن أصبحوا مترفين ومتخمين حتى فقدت الكنيسة وظيفتها التعليمية. يقول المثل القديم: «قديماً كان البابوات من ذهب، والكؤوس من خشب، أمّا الآن فالكؤوس من ذهب، والبابوات من خشب». ليس عبثاً أن يموت المسيح على الصليب، وليس عبثاً أن تنتصر الضحية والمعاناة على كلّ شيء.

لدى ممثلي العلم والفن عندنا شهادات، ومتطلبات حياتهم متوافرة لهم، ولا شيء يشغل الجميع سوى تأمين هذه المتطلبات لهم؛ أي تأمين كلّ الإمكانات التي تجعلهم غير قادرين على خدمة الناس.

العلم والفن الحقيقيان لهما مؤشران لا يقبلان الشك: الأول داخلي، وهو ألا يسعى من يعمل في حقلي العلم والفن من أجل منفعته الشخصية، بل عليه أن يؤدي رسالته مع إنكار لذاته. أما المؤشر الثاني فهو خارجي، وهو أن تكون مخرجات علمه وفنه مفهومة لجميع الناس، الذين يسعى لمصلحتهم.

مهما كانت تصورات الناس عن رسالتهم ومصلحتهم، فإنّ العلم هو الذي يحدد لهم ماهية رسالتهم وأين تتمثل مصلحتهم. أما الفن فهو التعبير عن هذا العلم.

قوانين كونفوشيوس علم، وتعاليم موسى وعيسى علم، والأبنية في أثينا فن، ومزامير داود فن أيضاً، والقُدّاس فن، لكن دراسة الحالات الأربع للمادة، وجدول الروابط الكيميائية، وقصائدنا وسيمفونياتنا ولوحاتنا لم تكن يوماً علماً ولا فناً، ولن تكون. تشغل العلوم القانونية واللاهوتية في عصرنا مكان العلوم الحقيقية، بينما تشغل طقوس الكنيسة والمراسم الحكومية، التي لا يتفق عليها اثنان، ولا أحد يتفاعل معها بجدية، مكان الفنون الحقيقية.

إن ما يسمى علماً وفناً عندنا هو نتاج العقول والمشاعر الخاملة، التي ليس لها هدف سوى دغدغة المشاعر والعقول الخاملة ذاتها. إن علومنا وفنوننا ليست مفهومة، ولا تقدم شيئاً للناس؛ لأنها لا تهدف إلى خيرهم.

منذ بدأت الحياة البشرية كانت هناك، وفي كلِّ مكان، تعاليم سائدة، تسمي نفسها زيفاً العلم، وهي لا توضح للناس المعنى الحقيقي لحياتهم، بل تحجبه عنهم. ظهر السفسطائيون عند اليونانيين، ثم ظهر الروحانيون والغنوصيون[1] والمدرسيون عند المسيحيين، والقباليون والتلمود عند اليهود، واستمر أمثال هؤلاء بالظهور في كلِّ مكان حتى وقتنا الحاضر. كم نحن محظوظون جداً لأننا نعيش في هذا العصر المميز؛ حيث النشاط الذهني، الذي يسمي نفسه علماً، ليس لا يخطئ فحسب، بل في حالة من النجاح المبهر، كما يحاولون إقناعنا! ألا تنبع سعادتنا من حقيقة أنَّ الإنسان قد لا يستطيع ولا يريد أن يعرف قبحه؟ لم يبقَ من تلك العلوم، مثل تعاليم السفسطائيين والقباليين والتلمود، إلا الكلام فحسب، ومع ذلك، نحن سعداء جداً! أليست المؤشرات هي ذاتها: الإعجاب بالذات والتصديق الأعمى بأننا

1 الغنوصية أو العرفانية أو المعرفية هي مصطلحات حديثة تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين. وبحسب تفسيرهم للتوراة، رأى الغنوصيون أن الكون المادي هو انبثاق للرب الأعلى الذي وضع الشعلة الإلهية في صلب الجسد البشري.

نحن، ونحن فحسب، نسير على المسار الصحيح، وتبدأ الحقيقة من عندنا فحسب. الوعود ذاتها بأنّنا سننجز شيئاً ما غير عادي، والمؤشر الأساسي والأهم على زيف ادعاءاتنا، هو أن حكمتنا تبقى فيما بيننا فحسب؛ لأن الشعب لا يفهمها، ولا يتقبلها، ولا يحتاج إليها. إن وضعنا صعب للغاية، ولكن لماذا لا ندرسه بصورة مباشرة؟

حان الوقت لكي نعود إلى صوابنا، وننظر إلى أنفسنا عن قرب. نحن لسنا إلا كتبة وفريسيين[1] جالسين على كرسي موسى، نأخذ المفاتيح من ملكوت السماء. نحن لا ندخل، ولا نسمح لغيرنا بأن يدخل. نحن - كهنة العلم والفن- أكثر المخادعين تعاسة؛ لأن وضعنا يمنحنا حقوقاً أقل بكثير من حقوق أكثر الكهنة دهاءً وفساداً. ليس لدينا أي حجة لتبرير مكانتنا المميزة، ونحن شغلنا مكاننا هذا بالاحتيال، وحافظنا عليه بالخداع. الكهنة الروحانيون، كهنتنا أو الكاثوليك، مهما بلغ فسادهم، كان لديهم مبرّر لتمتعهم بمكانتهم؛ حيث أكدوا أنهم يعلمون الناس الحياة وينقذونهم. نحن - دعاة العلم والفن- حفرنا تحت هؤلاء، وأثبتنا للناس أنهم يخدعونهم، وأخذنا مكانهم، ولم نعلم الناس الحياة، حتى إننا نعترف بأن هذا العلم ليس ضرورياً لهم، لكننا نمتص جهودهم، ونعلم أبناءنا قواعد اللغتين اللاتينية واليونانية، لكي يستمروا في حياة الكسل التي نعيشها نحن. نحن ندّعي أن الطبقية كانت موجودة في الماضي، لكنها الآن اختفت. ماذا يعني أن بعض الناس يعملون هم وأولادهم، وبعضهم هم وأطفالهم لا يعملون؟

---

1 الفريسيون هم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين. يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية، ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين. كان الفريسيون يتبعون مذهباً دينياً متشدداً في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها.

لو جاء أحد الهنود الحمر، الذي لا يعرف لغتنا، وشرحنا له حياتنا والحياة في أوروبا خلال عدة أجيال، فسوف يرى بوضوح وجود طبقتين رئيستين هما طبقة العاملين وطبقة غير العاملين، تماماً مثلما هو الحال عندهم. وكما هو الحال في بلده، إنّ الحق في عدم العمل ينتج عن ظاهرة خاصة نسميها العلم والفن، أو بشكل عام الثقافة. هذه الثقافة، وانحرافات العقل المرتبطة بها، أوصلتنا إلى هذه الحماقة المدهشة، التي بنتيجتها لم نعد نرى ما هو واضح ولا لبس فيه. نحن نلتهم الحياة الإنسانية لإخوتنا، ونَعدّ أنفسنا مسيحيين وإنسانيين ومتعلمين ومنصفين تماماً.

ماذا علينا أن نفعل؟

ما العمل؟ ماذا علينا أن نفعل؟

هذا السؤال الذي يعبّر عن الاعتراف بأن حياتنا سيئة وغير صالحة، وفي الوقت ذاته يعبر ضمنياً عن استحالة تغيير أيّ شيء. سمعت هذا السؤال وأسمعه الآن في كل مكان، ولهذا السبب اخترته لكي يكون عنواناً لمؤلَفي هذا. شرحت معاناتي، وبحثت عن أجوبة لهذا السؤال. أنا شخص عادي، وإذا كان هناك ما يميزني عن السواد الأعظم في الوسط الذي أعيش فيه فهو أنني خدمت التعاليم الزائفة في عصرنا، وتساهلت معها، ونلت الثناء، أكثر من زملائي، من ممثلي العلم السائد حالياً، وهذا ما جعلني أكثر فساداً وزيفاً منهم، ومنحرفاً عن المسار. لهذا أرى أنّ الإجابة عن هذا السؤال، الذي طرحته على نفسي، تناسب كلَّ الأشخاص الصادقين، الذي يطرحون على أنفسهم السؤال ذاته.

قبل الإجابة عن هذا السؤال، ما العمل؟ قلت لنفسي: يجب ألا أكذب على الآخرين، ولا على نفسي، وألا أخاف من قول الحقيقية، مهما كانت النتيجة.

كلنا ندرك ما معنى الكذب على الآخرين، لكننا لا نخشى من الكذب على أنفسنا. بالإضافة إلى ذلك، إنّ أسوأ ما يمكن أن يسببه الكذب على الآخرين لا يساوي شيئاً أمام، ولا يمكن مقارنته بنتيجة الكذب على الذات، الذي نبني على أساسه حياتنا كلها.

يجب أن نتوقف عن هذا النوع من الكذب، لكي نصبح قادرين على الإجابة عن السؤال: ما العمل؟ في حقيقة الأمر، كيف سأستطيع الإجابة عن هذا السؤال إذا كان كلَ ما أفعله في حياتي قائماً على الكذب، وأسعى جاهداً لأنْ أجعل من هذا الكذب حقيقة أمام الآخرين وأمام نفسي؟ عدم الكذب هنا يعني عدم الخوف من الحقيقة، عدم التفكير وعدم تقبل الأعذار التي يختلقها الآخرون، لكي يخفوا عن أنفسهم ما يقوله العقل والضمير، ويعني كذلك عدم الخوف من الانفصال عن الآخرين المحيطين بك، والبقاء وحيداً مع عقلك وضميرك، وكذلك عدم الخوف ممّا سينتج عن الحقيقة، والإيمان الراسخ بأنَ هذه النتيجة، مهما كانت سيئة، ليست أسوأ من أيَ حالة تُبنى على أساس الكذب.

عدم الكذب بالنسبة إلينا -نحن المتمتعين بمكانة خاصة بانشغالنا بالجهد الفكري- يعني عدم الخوف من الحقيقة.

قد يكون أحدنا مديناً جداً إلى درجة أنّه لا يستطيع السداد، ولكن مهما كانت هذه الديون كثيرة، تبقى أفضل من عدم الوفاء بها. كذلك مهما ابتعدت في طريق الضلال، سيبقى وضعك أهون من متابعة سيرك فيه. الكذب على الآخرين هو تصرّف غير مناسب؛ لأن أيَ أمرٍ يمكن للحقيقة أن تحلّه بطريقة أسهل وأكثر مباشرة من الكذب. الكذب علَى الآخرين يشوّش الأمر، ويُبعد الحل، لكنَ الكذب على النفس، الذي يأخذ مكان الحقيقة، يدمر حياة الإنسان كلها. إذا رأى من يسير في الطريق الخاطئ أنه يسير في الاتجاه الصحيح، فإنّ كلّ خطوة يخطوها على هذا الطريق تبعده عن هدفه. إذا اكتشف الشخص، الذي يسلك منذ فترة طويلة طريقاً خاطئاً، أو قال له الآخرون إنّ طريقه خاطئ، لكنّه يخشى من مواجهة نفسه بحقيقة ابتعاده في هذا الطريق، ويحاول إقناع نفسه بأنه قد يخرج عن الطريق في لحظة ما، فإنه لن يخرج أبداً. إذا خشي الإنسان من الحقيقة، ورآها، ولم يعترف بها،

بل يضع الضلال مكانها، فإنّه لن يعرف أبداً ماذا عليه أن يفعل. ليس الأغنياء فحسب، بل كلّ من يتمتع بمكانة متميزة، أو من نسمي أنفسنا المثقفين، ابتعدنا كثيراً في طريق الضلال، فأصبح لزاماً علينا اتخاذ قرار جريء، أو أن نستمر في معاناتنا الكبيرة في طريق الضلال لكي نعود إلى الصواب، ونعترف بالوهم الذي نعيش فيه. أنا رأيتُ الضلال في حياتي بفضل تلك المعاناة، التي أوصلني إليها السير في الطريق الخاطئ، وامتلكت الجرأة، وأنا أعترف بضلال طريقي، لكي أذهب بفكري وعملي إلى حيث أخذني عقلي وضميري، من دون تصوّر عمّا سيأخذاني إليه، ونلتُ مكافأة على شجاعتي.

أضحت كل الظواهر المعقدة والمتباينة والمربكة والفاقدة المعنى المحيطة بكلّ مناحي حياتي فجأةً واضحةً، وتحوّل وضعي الصعب والغريب في السابق، وسط هذه الظواهر، فجأةً إلى أن يكون طبيعياً وبسيطاً.

أصبح عملي في وضعي الجديد مختلفاً تماماً عن عملي في السابق، لكنه أكثر هدوءاً ومرحاً وإمتاعاً. ما أفزعني في السابق، أصبح اليوم يجذبني. لهذا أعتقد أنّ من يسأل نفسه بكلّ صراحة: ما العمل؟ ويجيب عنه، من دون أن يكذب على نفسه، بل يذهب إلى حيث يأخذه عقله وضميره، سيجد إجابة عن هذا السؤال. إذا لم يكذب على نفسه، فإنّه سيتعرف إلى ما يجب عليه فعله، وأين يذهب. هناك عائق وحيد أمامه في بحثه عن مخرج هو التقدير الزائف لذاته، ورأيه في وضعي الشخصي. هذا ما فعلته أنا، ومن ثَمَّ إن الإجابة الأخرى عن سؤال: ما العمل، التي تنتج عن الإجابة الأولى، هي التوبة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى؛ أي تغيير تام لتقييمي لنفسي ولما أقوم به؛ فبدأت أرى ضرر وتفاهة عملي بدل فائدته وجديته، وأرى أنني جاهل بدلاً من اعتبار نفسي مثقفاً، وأرى عدم أخلاقيتي وقسوتي بدل طيبتي وأخلاقي العالية، وأرى تفاهتي بدلاً من سموي ورفعتي. أقول إنّني، بالإضافة إلى عدم خداعي لنفسي، يجب أن أعترف بزيف فكرتي عن أهميتي الكبيرة،

مع أنّ كلاً من الاعتراف وعدم الكذب ينتج عن الآخر، وإن تصوري عن أهميتي الكبيرة نما قبل أن أعترف بصدق أمام نفسي، وأترك تقديري الكبير لأهميتي. وطالما تغافلت عن الكثير من الأوهام التي خدعت بها نفسي. وعندما اعترفت وندمت فحسب؛ أي عندما توقفت عن النظر إلى نفسي على أني شخص مهم، بل بدأت أنظر إلى نفسي على أني شخص عادي، مثل جميع الناس، حينها فحسب أصبح مساري واضحاً لي. لم أستطع سابقاً الإجابة عن سؤال: ما العمل؟ لأنني طرحته بشكل خاطئ.

قبل أن أعترف بأخطائي، كنت أسأل نفسي: ما العمل الذي عليّ اختياره، وأنا الذي أمتلك كلّ هذه الثقافة والمواهب؟ كيف أردّ إلى الناس، من خلال ثقافتي ومواهبي، ما أخذته ومازلت آخذه منهم؟ هذا السؤال لم يكن صحيحاً؛ لأنه يتضمن تصوراً زائفاً مفاده أنني لست شخصاً عادياً، بل شخص استثنائي، تتمثّل رسالته في خدمة الناس من خلال المواهب والثقافة التي اكتسبتها خلال أربعين عاماً. سألت نفسي هذا السؤال، لكنني في الحقيقة أجبت عنه مسبقاً، حين حدّدت مجال العمل المحبّب إلى نفسي، الذي تتمثّل رسالتي في خدمة الناس فيه. سألت نفسي حقاً، كيف لي -أنا الكاتب المبدع الذي اكتسب كل هذه المعارف والمواهب- أن أسخرها لخدمة الناس.

السؤال كان يجب أن يُطرح كما يُطرح السؤال على حاخام فقيه أنهى دراسة التلمود، وأحصى عدد حروف كلّ الكتب المقدسة، وعرف كلّ التفاصيل الدقيقة لعلمه. يجب أن يُطرح السؤال عليّ وعلى الحاخام على الشكل الآتي: ما الذي يجب عليّ فعله، أنا الذي قضيت أفضل سنواتي الدراسية، بسبب سوء حظي، وبدلاً من تكيفي مع العمل، في دراسة النحو والجغرافيا والعلوم القانونية والأشعار والقصص والروايات واللغة الفرنسية والعزف على البيانو والنظريات الفلسفية والتمارين العسكرية؟ ماذا عليّ أن أفعل الآن، أنا الذي قضيت أفضل سنوات حياتي في الأعمال الخاملة والمفسدة للروح؟ ماذا

أفعل، بغض النظر عن كلّ ظروف حياتي السيئة، لكي أردّ الدين إلى أولئك الناس، الذين أطعموني وألبسوني في كلّ الأوقات، ويطعمونني ويلبسونني الآن؟ لو أنّ هذا السؤال وُضع أمامي الآن، بعد أن تخلّيت عن ماضيّ الشائن، فماذا سأفعل، أنا ذلك المُرفَه؟ لَكان الجواب عنه بسيطاً: قبل كلّ شيء يجب عليّ أن أتعلم كسب الرزق الحقيقي؛ أي ألا أعيش على حساب الآخرين، وبعد أن أتقنه، أحاول أن أقدّم الفائدة للناس بعقلي وبقواي الجسدية، وأن أحقّق كلّ ما يطلبه الناس مني.

لذلك أقول يجب على كلّ من ينتمي إلى طبقتنا، بالإضافة إلى عدم الكذب على نفسه وعلى الآخرين، أن يترك ويجتثّ من نفسه الغرور الزائد بثقافته وأناقته ومواهبه، وألا يَعدَّ نفسه محسناً للناس، ومتقدماً عليهم، وألّا يرفض التشارك معهم بمهاراته المفيدة، بل يَعدّ نفسه مذنباً وفاسداً، ولا أحد بحاجة إليه، ويرغب في تصحيح أخطائه؛ حيث إنّ الناس لا ينتظرون منه إحساناً، بل كلّ ما يريدونه منه هو أن يكفّ أذاه عنهم، وألا يؤذيهم.

دائماً ما أسمع هذه الأسئلة من الشباب الرائعين، الذين يشعرون ببعض السلبية في كتاباتي: ماذا نفعل؟ ما الذي يفعله خريج جديد أنهى دراسة الجامعة أو المعهد، لكي يكون مفيداً؟ هؤلاء الشباب يطرحون الأسئلة، وقد قرّروا في داخلهم أنّ العلم الذي حصلوا عليه هو ميزة كبيرة لهم، وأنّهم يريدون خدمة الناس بالضبط من خلال علمهم. ولذلك، إن الشيء الوحيد الذي لن يفعلوه هو أنهم لن ينتقدوا بصدق وبأمانة ما يسمونه علماً، ويسألون أنفسهم: أَهو أمر جيد أم سيّئ أن يسموا أنفسهم متعلمين؟ إذا فعلوا هذا، فإنّ هذا حتماً سيؤدي بهم إلى التنكر لما تعلموه، وإلى ضرورة أن يعيدوا تعلمهم من جديد، وهذا هو المطلوب.

إنهم لن يستطيعوا الإجابة عن السؤال: ما العمل؟ لأن السؤال غير مطروح عندهم كما يجب. يجب أن يُوضع السؤال كما يأتي: ماذا عساي أن أفعل، أنا،

بوصفي شخصاً عاجزاً، وبلا فائدة، وبسبب سوء حظي، قضيت أفضل سنواتي الدراسية في إفساد روحي وجسدي في دراسة التلمود العلمي، لكي أصحح أخطائي، وأتعلم كيف أخدم الناس؟ بينما هم يطرحون السؤال على الشكل الآتي: كيف لنا أن نخدم الناس، من خلال كل هذه المعارف الرائعة التي حصلنا عليها؟ ولذلك لن يستطيعوا أن يجيبوا عن هذا السؤال، طالما أنهم لم يعترفوا بأخطائهم، ولم يتوقفوا عن ارتكاب المزيد منها. إن التوبة ليست مخيفة، تماماً مثل الحقيقة، وهي، مثل الحقيقة، مثمرة ومبهجة. يجب تقبّل الحقيقة تماماً، والتوبة التامة، لكي نفهم أن لا أحد يمتلك ولا يستطيع أن يمتلك حقوقاً ومميزات وخصوصيات في الحياة، وأنّ الواجبات ليست لها نهاية ولا حدود، وأن الواجب الأول المؤكد هو مشاركة الإنسان في الصراع مع الطبيعة من أجل حياته الخاصة وحياة الآخرين.

إن اعتراف الإنسان بواجباته يمثّل جوهر الإجابة الثالثة عن سؤال: ما العمل؟

سعيت جاهداً إلى ألّا أكذب على نفسي، وأن أنتزع من نفسي مخلّفات الفكرة الزائفة عن أهمية علمي ومواهبي، واعترفت بذلك، ولكن تولدت أمامي صعوبات جديدة، وأنا في طريقي للإجابة عن سؤال: ما العمل؟ حيث ظهرت أشياء كثيرة مختلفة: حيث أصبح لزاماً عليّ أن أختار أيّها بالضبط ما يجب عليّ فعله.

ماذا أفعل؟ وما الذي أفعله بالضبط؟ الجميع يسألون، وسألت نفسي أنا كذلك، متأثراً بفكر سموّ رسالتي في الحياة، التي حجبت عني رؤية واجبي الأول والمؤكد في الحياة الذي يتمثل في أن أؤمن طعامي وشرابي وتدفئة بيتي ومسكني بنفسي، وأن أخدم الآخرين من خلال هذه الأشياء؛ لأن هذا كان الواجب الأول المؤكّد لأيّ شخص منذ بداية الحياة.

مهما كانت الرسالة التي افترض أحدنا أنّها هي رسالته؛ في إدارة شؤون الناس مثلاً، أو الدفاع عن أهل بلده، أو في الخدمة الدينية، أو في تعليم الآخرين، أو ابتكار وسائل تسهّل حياة الناس، وتجعلهم مرتاحين أكثر، أو في وضع قوانين جديدة للعالم، أو في تجسيد الحقائق الثابتة في لوحات فنية؛ فإنّ الواجب الذي يمثّل دائماً الواجب الأول المؤكد، لأيّ شخص عاقل في الحياة، هو المشاركة في الصراع مع الطبيعة لدعم حياته وحياة الآخرين. هذا هو الواجب الأول؛ لأن حياة الناس هي أثمن ما لديهم، ولهذا يجب عليه الحفاظ على حياته الشخصية، من أجل الدفاع عنهم وتعليمهم وجعل حياتهم أفضل، بالإضافة إلى ذلك، إن عدم مشاركتي في النضال، وامتصاص جهود الآخرين، هو تدمير لحياة الآخرين. يبدو الأمر غير منطقي، عندما أخدم الناس من خلال هدم حياتهم، ولا يمكنني ادّعاء أنني أخدمهم عندما يكون الأذى الذي أسببه لهم واضحاً.

إن واجب الإنسان في صراعه مع الطبيعة لتأمين وسائل العيش سيبقى دائماً الواجب الأول المؤكّد من بين كلّ واجباته الأخرى؛ لأن هذا الواجب هو قانون الحياة، والتخلّي عنه سيؤدي إلى عقوبة حتمية، هي تدمير حياته الجسدية أو العقلية. إذا قرّر الإنسان أن يعيش وحيداً، وأن يحرّر نفسه من واجب الصراع مع الطبيعة؛ فإنّه سيتسبب في تدمير حياته الجسدية، وإذا أعفى نفسه من هذا الواجب، وجعل الآخرين، بتدميرهم لحياتهم، يؤدّونه نيابة عنه، فإنه سينال عقوبة مباشرة هي تدمير حياته العقلية؛ أي الحياة، التي تسود فيها الفطرة السليمة.

عندما يشارك عمله مع الآخرين، فإنّه يُشبع رغباته الجسدية والروحية، فتقديم الطعام واللباس والرعاية لنفسه وللآخرين سيلبّي رغباته الجسدية، وعندما يلبّي رغبات روحه وأرواح الآخرين، فإنّه ينعم بالإشباع الروحي. إنّ أيّ نشاط آخر للإنسان لا يكون مباحاً إلا إذا كان موجهاً نحو إشباع هذه الرغبة الأولى للإنسان؛ لأنّ إشباع هذه الرغبة يمثّل حياة الإنسان كلها.

لقد كانت حياتي الماضية فاسدة جداً، إلى درجة أنّ هذا القانون الإلهي أو الطبيعي الأول في حياتنا المعاصرة بدا لي غريباً ومرعباً ومخجلاً، كما بدا لي أنّ الغريب والمخجل والمرعب هو تطبيق هذا القانون، وليس إنكاره وتركه.

بدا لي في البداية أنّ القيام بهذا العمل يتطلّب مني التأقلم، وبعض التسهيلات، والتواصل مع بعض الأشخاص الذين يشاركوني الرأي، وموافقة أسرتي، والانتقال إلى العيش في الريف. شعرت بالخجل في البداية؛ لأنني أقوم بعمل جسدي أمام الناس؛ حيث إنني لم أكن أتقن هذا العمل. كان عليّ أن أدرك أن عملي هذا ليس ذلك العمل الاستثنائي، الذي يجب ترتيبه وابتكاره، بل هو مجرد عودة من وضعي الزائف الذي كنت فيه إلى الوضع الطبيعي، ومجرد تصحيح لتلك الحياة الزائفة التي كنت أعيش فيها. كان عليّ أن أدرك هذا، لكي تتذلَل كلّ هذه الصعوبات. لم يكن ضرورياً أبداً التنظيم والتأقلم وانتظار موافقة الآخرين؛ لأنه، مهما كان الوضع الذي كنت فيه، كان هناك دائماً أشخاص يطعمونني ويلبسونني ويدفئوا بيتي، ويوفرون هذه الخدمات لأنفسهم أيضاً، وكنت قادراً على أداء كلّ هذه المهمات بنفسي، وأن أقدمها للآخرين أيضاً، في كلّ الظروف التي مررت بها، إذا توافر لدي الوقت والإمكانات. لم أشعر بالخزي الكاذب في أدائي عملاً قد يبدو غريباً ولافتاً لانتباه الناس؛ لأنني شعرتُ بالخزي الحقيقي، عندما لم أقم به في السابق.

عندما وصلتُ إلى هذا الوعي، وإلى الاستنتاج العملي المستخلص منه، شعرتُ بأنني كوفئتُ تماماً؛ لأنني لم أخشَ من مخرجات عقلي، وسرت في الاتجاه الذي أخذتني إليه.

عندما وصلت إلى هذه النتيجة العملية، كنت مندهشاً من بساطة وسهولة الحلول لهذه الأسئلة، التي بدت لي صعبة ومعقدة في السابق. ظهر جواب بديهي عن سؤال: ما العمل؟ وهو أن أفعل بنفسي كلّ ما هو خاص بي، مثل إعداد السماور والموقد والماء واللباس. بالنسبة إلى السؤال: هل يبدو قيامي

بكلّ هذه الأفعال بنفسي غريباً بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يقومون بها نيابة عني؟ الجواب هو أنّ شعور الدهشة استمرّ لمدة أسبوع فقط، ولكن بعد انقضاء الأسبوع الأول، أصبح غريباً عليهم رؤيتي وأنا أتكاسل وأعود إلى وضعي السابق. أما السؤال: هل من الضروري تنظيم هذا العمل البدني، لبناء مجتمع في الريف، على الأرض؟ فالإجابة هي أن هذا غير ضروري؛ لأن العمل إذا كان لا يهدف إلى إتاحة الفرصة للكسل واستغلال جهود الآخرين، وهو ما يسعى إليه أصحاب الثروة، بل يهدف إلى إشباع حاجات الناس، فإنّه سيحفز الناس على الهجرة إلى الريف، إلى الأرض، وبذلك يكون مثمراً وممتعاً. ليس هناك من ضرورة لتأسيس مجتمع؛ لأن كل عامل يعمل بجوار العمال الآخرين بشكل طبيعي. أما السؤال: هل سيشغل هذا العمل كلَ وقتي، ويحرمني من إمكانات نشاطي العقلي الذي أحبّه، والذي اعتدت عليه، وأعدّه أحياناً غير مفيد؟ فكانت الإجابة عليه غريبة وغير متوقعة. إنّ قدرة نشاطي العقلي قد زادت، بما يتناسب مع الجهد البدني الذي أقوم به، وبعد أن تخلصت من كل ما هو غير ضروري.

اتضح لي أنني أقضي ثماني ساعات يومياً في العمل البدني، نحو نصف يومي، وقد كنت أبذل فيها جهوداً كبيرة للتخلص من الملل، بقي لدي ثماني ساعات يبقى منها، وفقاً لظروفي، خمس ساعات للعمل الفكري، ولمّا كنت كاتباً غزير الإنتاج؛ حيث قضيت أربعين سنة تقريباً، لم أفعل فيها شيئاً غير الكتابة، وكتبت فيها ثلاثمئة ورقة مطبوعة، اتّضح لي أنني لو عملت في كلَ هذه الأعوام الأربعين مع العمال، من دون حساب الأمسيات الشتوية وأيام العطل، وقرأت وتفكّرت لمدة خمس ساعات يومياً، ولم أكتب إلا في أيام العطل، بمعدل صفحتين فقط في كلّ يوم عطلة (كتبت أحياناً ست عشرة صفحة في اليوم)، لكتبت ثلاثمئة صفحة خلال أربعة عشر عاماً. خرجت بنتيجة مذهلة بأبسط عملية حسابية يمكن أن يجريها طفل عمره سبع سنوات،

بينما لم أستطع أن أجريها أنا طوال هذه السنين. نحن ننام لمدة ثماني ساعات كلّ يوم. ثمة ست عشرة ساعة باقية. إذا قضى أيّ مفكّر خمس ساعات يومياً في العمل الفكري، فإنّه سينجز الكثير خلال هذا الوقت، ولكن ما الذي يفعله في الساعات الإحدى عشر المتبقية؟ اتضح أن العمل البدني ليس لا يقف عائقاً أمام النشاط العقلي وتطوره فحسب، بل يحفزه أيضاً. وعن السؤال: هل حرمني العمل البدني من مباهج الحياة البريئة، التي يميل إليها الإنسان بطبعه؛ مثل الاستمتاع بالفنون، والحصول على المعرفة، والتحدث مع الآخرين، ومسرات الحياة بشكل عام؟ الإجابة كانت مخالفة تماماً: كلما كان ضغط العمل أكثر؛ أي كلما أقترب من العمل في الأرض الذي يعد مجهداً، شعرت وأنا أؤديه بسعادة كبيرة، واكتسبت معارف أكثر، وتحدّثت بمحبة وودّ أكثر مع الناس، وشعرت بسعادة كبيرة في حياتي.

أما السؤال (الذي كثيراً ما سمعته من أولئك الذين لا يتّصفون بالصدق): ما هي النتيجة التي يمكن أن تُحدثها هذه القطرة الصغيرة في بحر العمل الذي ابتلعني، عندما أشارك بالعمل البدني؟ فكانت الإجابة عنه مقنعة جداً وغير متوقعة أبداً. اتضح لي أنه ما إن جعلت من عملي البدني عادة طبيعية في حياتي، حتى اختفت أغلبية عاداتي ومتطلباتي السخيفة والمكلفة من تلقاء نفسها، وبلا أيّ جهد مني.

أنا لا أشير هنا إلى عاداتي في قلب ليلي إلى نهار وبالعكس، وعن عاداتي في فراشي ولباسي وفي شروط نظافتي التقليدية، التي لا يمكن تطبيقها أبداً في العمل البدني، وتبدو مصطنعة، بالإضافة إلى الطعام، ومتطلبات نوعية الطعام التي تغيّرت تماماً. بدلاً من الأطعمة الحلوة والدسمة والمركبة والمتبلة التي كنت أتناولها، أصبح طعامي بسيطاً يتألف من حساء الملفوف والخبز الأسود والعصيدة والشاي المحلى بالقليل من السكر. بغض النظر عن تأثري بالعمال البسطاء، الراضين بالقليل، الذين عاشرتهم أثناء عملي البدني، إنّ متطلباتي

الذاتية تغيّرت من دون أن أشعر، بعد دخولي حياة العمل، وبالتوازي مع اعتيادي على العمل. تنامى إتقاني لأدوات العمل شيئاً فشيئاً، وبالتناسب مع عملي المثمر، قلّ تدريجياً اعتمادي على الآخرين لتلبية متطلباتي، وأصبحت حياتي طبيعية، من دون أيّ جهد أو شعور بالحرمان، وأصبحت أقرب إلى تلك الحياة التي لم أستطع حتى أن أحلم بها من دون تنفيذ قانون العمل. اتضح لي أن أهم متطلباتي في الحياة، وهي الغرور وتسلية النفس، كان سببها المباشر هو حياتي الخاملة. لا مكان في العمل البدني للملل؛ لأن الوقت يمضي بمتعة، وتتفوق استراحة قصيرة لتناول الشاي، بعد التعب، أو قراءة كتاب، أو التحدث مع العمال الآخرين، كثيراً على متعة مشاهدة مسرحية أو لوحة أو حفلة أو اجتماع كبير، وكلّ هذه الأشياء التي هي مكلفة وضرورية في حالة الخمول البدني.

هناك سؤال: هل يدمر هذا العمل، الذي لم أعتد عليه، صحتي التي بتدهورها لن أستطيع خدمة الناس؟ الإجابة تقول إنّه بغضّ النظر عن تأكيدات الأطباء المعروفين لنا، ولاسيما من هم في مثل عمري، بأنّ ضغط العمل البدني يمكن أن يؤدي إلى أضرار كبيرة (وأن أداء تمارين الجمباز السويدية والمساج وغيرها من الوسائل يجب أن تحلّ محل الحياة الطبيعية للإنسان)، اتضح لي أنّ العمل كلما كان مجهداً أكثر، جعلني أشعر ببهجة وسعادة ومرح أكبر. اتضح، بما لا يقبل الشك، أن كل حيل العقل البشري مثل الصحف والمسارح والحفلات واللقاءات والصحف والروايات ليست في حقيقتها إلا وسائل للحفاظ على روحية الإنسان خارج الظروف الطبيعية لحياته، وكذلك الحال بالنسبة إلى الاختراعات الطبية والصحية التي ابتدعها العقل البشري، لتأمين الطعام والشراب والمسكن والتهوية والتدفئة والملبس والدواء والمياه المعدنية والمساج ورياضة الجمباز والأجهزة الطبية وكل العلاجات الأخرى: ليست في جوهرها إلا وسائل للإبقاء على الحياة الجسدية للإنسان في ظل ظروف غير طبيعية لحياته. إن حيل العقل البشري لجعل حياة الكسالى مريحة

تشبه تماماً تلك الحيل التي يبتكرها بعض الناس في غرفة محكمة الإغلاق، ويستعينون بأجهزة كيميائية للتبخير، وما يفعلونه من أجل النباتات، وتوفير الهواء الأفضل للتنفس، في حين يتعين عليهم فتح الباب فقط لتوفير كلّ هذه الظروف.

إن كل الاختراعات الطبية والصحية لمن ينتمون إلى طبقتنا هي أشبه بالميكانيكي الذي أغلق جميع صمامات المحرك البخاري، وأصبح لزاماً عليه ابتكار شيء آخر لمنع انفجار هذا المحرك. بدلاً من كلّ الأجهزة المعقدة، التي تستهلك قدراً كبيراً من الجهد، والهادفة إلى الترفيه عن الناس وراحتهم، وبدلاً من الأجهزة الطبية والصحية، التي صُمّمت لتخليص الناس من أمراضهم الروحية والجسدية، يجب القيام بشيء واحد هو تطبيق قانون الحياة؛ أي القيام بما يلائم ليس طبيعة الإنسان فحسب، بل هو كذلك عند الحيوان؛ أي إطلاق شحنة الطاقة التي تُؤخذ على شكل غذاء من خلال العمل البدني؛ أي، بكلمات بسيطة، الحصول على الخبز من دون عمل، أو الأكل، أو أن تأكل بما يتناسب مع حجم العمل الذي أنجزته.

عندما أدركت كلَ هذا، بدا لي الأمر مضحكاً. توصلت إلى تلك الحقيقة غير العادية، بعد سلسلة من الشكوك والبحوث وتفكير طويل، وهي أنه طالما امتلك الإنسان عينين لكي يرى بهما، وأذنين لكي يسمع بهما، ورجلين لكي يمشي عليهما؛ فإن الهدف من امتلاكه يدَين وظهراً أن يعمل، وإذا لم يستخدم أعضاءه في أداء وظائفها، فسوف يسوء حاله. استنتجت أنّ ما حدث معنا -نحن الطبقة المميزة في المجتمع- يشبه ما حدث مع خيول أحد معارفي: حيث كانت تحت إشراف رجل لم يكن خبيراً بتربية الخيول، ولا يعرف عن هذه المهنة شيئاً، لكنّه، بناءً على أوامر سيده باختيار أفضلها وتسمينها لإعدادها للبيع، اختارها، ووضعها في الاسطبل، واعتنى بها وأطعمها الشوفان، لكنّه، بسبب خوفه الشديد على الخيول الثمينة، لم يسمح لأحد

بأن يركبها، وهو كذلك لم يفعل، ولم يخرجها أبداً من الاسطبل، فأصبحت الخيول خاملة، جالسة بلا أيَ حركة، ولا تصلح لشيء. هذا ما حدث معنا، لكنّ هناك فرقاً هو أن الخيول لا يمكن أن تنخدع بشيء، وقد احتُجزت في الاسطبل لكي لا تخرج، أمّا نحن فمحتجزون في ظروف غير طبيعية وكارثية تمسك بنا مثل القيود.

نحن جعلنا حياتنا متعارضة مع الطبيعة الأخلاقية والجسدية للإنسان، وسخّرنا كلّ قوانا العقلية لكي نقنع الناس بأن هذه الحياة التي نعيشها هي الحياة الحقيقية. ما نسميه ثقافة؛ أي علومنا وفنوننا، وتطويرنا لمباهج الحياة، هي محاولات لتزييف المطالب الأخلاقية للإنسان. وما نسميه الطبّ والصحة هو محاولات لتزييف المتطلبات الطبيعية والجسدية للإنسان، لكنّ هذه الخدع لها حدود تقف عندها، ونحن نقترب منها. تقول الفلسفة العصرية السائدة حالياً لشوبنهاور وهارتمان: «إذا كانت هذه هي الحياة الحقيقية، فالأفضل عدم العيش أبداً». هذا ما يؤكده العدد المتزايد من المنتحرين في طبقتنا المميزة. يقول المتعاطفون مع الطب وحيله المبتكرة للقضاء على خصوبة المرأة: «إذا كانت هذه هي الحياة الحقيقية، فالأفضل للأجيال القادمة ألا تعيش».

هناك جملة في الكتاب المقدس تمثل قانوناً للبشر هي: «بعرق وجهك تأكل خبزاً، وبالوجع تلدين أولاداً».

كتب الفلاح بونداريف مقالة وضّحت لي الكثير من الحكمة في هذه الجملة، وقد كان لأفكار شخصين روسيين تأثيرٌ أخلاقيٌّ في حياتي، وإثراءٌ لأفكاري، وتنويرٌ لرؤيتي للعالم. لم يكونا شاعرين أو عالمين أو مبشرين، بل كانا فلاحين رائعين يعيشان الآن في الريف، ويعملان في الزراعة، هما سيوتايف وبونداريف.

تقول إحدى شخصيات موليير (مسرحي فرنسي): «لقد غيرنا كل هذا» (بالفرنسية)، وهو يسرد كذبة طبية تدّعي أن الكبد يقع في الجهة اليسرى. لقد غيرنا كلّ هذا. لم يعد الناس مضطرين إلى العمل، فالآلات هي التي ستنوب عنهم في ذلك، ولم تعد النساء بحاجة إلى إنجاب المزيد من الأطفال. يعلّمنا الطب هذا بوسائل مختلفة؛ حيث ازداد عدد السكان في هذا العالم بشكل كبير.

يعيش في منطقة كرابينفسكي[1] فلاح فقير. كان يشتري الخبز، في وقت الحرب، لأحد موظفي التموين. بعد أن اقترب الفلاح من الموظف، ورأى حياة البذخ التي يعيش فيها، فقد عقله، وأراد أن يعيش مثل السادة بلا عمل، وأن يحصل على ثروة كبيرة من الامبراطور. يسمي هذا الفلاح نفسه الآن صاحب السمو الأمير بلوخين، الذي يجلب المستلزمات العسكرية بكلّ أنواعها. يقول عن نفسه إنّه «مرّ بجميع الرتب»، ويجب أن يحصل من الامبراطور، تقديراً لخدماته، على حساب مالي مفتوح، ولباس، وزي رسمي، وخيول، وعربات، وشاي، ومؤونة، وخدم. يَعدّه الكثيرون أحمق، لكن حماقته بالنسبة إلي تبدو رهيبة. عندما يسألونه: «ألا تريد أن تعمل؟» يجيب بغرور: «شكراً جزيلاً، الفلاحون يؤدون عملهم جيداً من دوني». وعندما تقول له إن الفلاحين لا يريدون أن يعملوا أيضاً، يرد: «ليس صعباً على الفلاحين تدبّر هذا الأمر» (هو يتحدث بنبرة فوقية، ويحب استخدام أسماء المصادر[2] في حديثه). يقول: «اختُرعت الآلات للتسهيل على الفلاحين، وهم لا يعانون من صعوبات في عملهم». عندما يسأله الناس عن الهدف من حياته يجيب: «تمضية الوقت». أنا أنظر دائماً إلى هذا الشخص، كما أنظر في المرآة؛ أرى

---

1 منطقة تتبع لها قرية ياسنايا بوليانا.

2 اسم المصدر هو ما ساوى المصدر في الدلالة على الحدث، لكنّه لم يساوه في احتوائه على جميع حروف فعله؛ أي نقصت حروفه عن الحروف الموجودة في الفعل، مثل: توضأ – وضوء والأصل توضؤاً، وتكلم – كلاماً والأصل تكلماً، وأيسر يسرا والأصل إيساراً.

فيه نفسي وكل أفراد طبقتنا. نترقّى في الرتب، لكي نعيش من أجل تمضية الوقت، ونكسب حسابات مالية مفتوحة، بينما يهتمّ الفلاحون بكلّ شيء، ولا يجدون صعوبة في عملهم بسبب اختراع الآلات. هذا هو التعبير التام عن الإيمان الزائف لأفراد طبقتنا.

عندما نسأل ما الذي يجب أن نفعله بالضبط، إننا حقيقة لا نسأل عن شيء، بل نؤكد فحسب، ولكن ليس مع راحة الضمير تلك، التي يتكلم بها صاحب السمو الأميري بلوخين، الذي تدرج في المناصب وفقد صوابه، نؤكد أنّنا لا نريد أن نفعل شيئاً. من يعود إلى رشده لن يستطيع أن يسأل هذا السؤال؛ لأن كل ما يستخدمه، من جهة، أنجزته وتنجزه أيادي الآخرين، ومن جهة أخرى، متى نهض الإنسان السليم وتناول إفطاره، فإنه سيشعر بالحاجة إلى العمل بيديه ورجليه وعقله. يتوجب عليه فحسب، لكي يجد عملاً، ألا يمنع نفسه من العمل. فقط ذلك الذي يَعدُّ العمل شيئاً مخجلاً، مثل السيدة التي تطلب من الضيف ألا يتعب نفسه بفتح الباب، بل إنها تطلب أن ينتظر حتى تنادي الخادم ليفتحه، أمثال هذه السيدة فحسب لا يستطيعون أن يسألوا أنفسهم: ما الذي يجب علينا عمله بالضبط؟

يبدو لي الأمر كما يأتي: تنقسم حياة كلّ شخص، بحسب الوجبات التي يتناولها، إلى أربعة أجزاء، أو أربع مراحل كما يسميها الفلاحون: قبل الإفطار، ومن الإفطار حتى الغداء، ومن الغداء حتى العصرونة[1]، ومن العصرونة حتى المساء. ينقسم عمل الشخص الذي ينجذب إليه أيضاً إلى أربعة أنواع: أولاً النشاط العضلي؛ أي عمل اليدين والرجلين والكتفين والظهر، وهو عمل شاق يسبب التعرّق، وثانياً عمل الأصابع واليدين، وهو العمل الذي فيه مهارة وبراعة، وثالثاً العمل العقلي والتصوري، ورابعاً التواصل مع الآخرين.

1 وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء.

اعتقدت أنّ هذا التقسيم الجائر للعمل، الموجود في مجتمعنا، سيُلغى ويُوضع تقسيم عادل للعمل لا يتعارض مع سعادة الإنسان.

أنا، على سبيل المثال، مارست العمل الفكري طوال حياتي. كنت أقول لنفسي إنني قسّمت العمل إلى درجة أنّ الكتابة؛ أي العمل الفكري، هي مهنتي الخاصة، أمّا الحاجات الأخرى الضرورية لي فتركتها للآخرين (أو أجبرتهم) على تقديمها لي. هذا التقسيم، الذي يبدو مناسباً للعمل العقلي، ناهيك عن عدم عدالته، هو في الحقيقة أصبح غير مناسب للعمل الذهني بشكل خاص.

أنا أكتب طوال حياتي، وأنام وأروّح عن نفسي وفقاً لساعات عملي الخاص هذا، ولم أفعل أيّ شيء غير ذلك. استنتجت من هذا أمرين اثنين: الأول هو أنني ضيقت مجال دراستي ومعارفي، ولم أملك غالباً وسائل للدراسة، وكان عليّ أن أدرس وأصف حياة الناس (وحياة الإنسان كانت هي القضية الدائمة لأيّ عمل فكري). أدركت جهلي، وكان عليّ أن أدرس، وسألت عن تلك الأشياء، التي يسأل عنها أيّ شخص لا تمثّل الكتابة عمله الخاص، والأمر الثاني هو أنني عندما كنت أكتب، لم يكن لدي رغبة داخلية في الكتابة، ولم يطلب مني أحد أن أكتب أفكاري، بل كل ما كان مطلوباً مني هو الاستفادة من اسمي للترويج للصحف. حاولت أن أستخلص أفكاري وأكتب، لكني فشلت في أوقات كثيرة، وكانت كتاباتي سيئة جداً في بعض الأحيان، وشعرت بعدم الرضا وبالضيق. عندما أدركت الآن ضرورة عملي الجسدي واليدوي القاسي، أصبح رأيي مختلفاً: كنت مشغولاً طوال الوقت، ورغم أنه عمل متواضع، إنه -لا شك- مفيد وممتع، وتعلّمت منه الكثير. لم أترك هذه المهنة المفيدة والممتعة -لا شك- من أجل مهنتي الخاصة، إلا عندما شعرت برغبة داخلية، وتحققت المتطلبات الضرورية لانشغالي في الكتابة. هذه المتطلبات هي الشرط اللازم لجودة عملي، ومن ثَمَّ أصبح عملي الخاص في الكتابة مفيداً وممتعاً. اتّضح لي أن انشغالي بالأعمال الجسدية،

التي هي ضرورية لكلّ شخص، ليس لم يُعِق عملي في الكتابة فحسب، بل هو شرط ضروري لكي تكون كتاباتي جيدة ومفيدة وممتعة.

الطائر بطبيعته يجب أن يطير ويمشي وينقر ويفكر، وعندما يقوم بكل هذه الأشياء، سيكون راضياً وسعيداً، وسيكون طائراً حقاً. الإنسان كذلك تماماً، عندما يمشي، ويحمل أشياء ثقيلة، ويرفعها، ويعمل بأصابعه وعينيه ولسانه وأذنيه ولسانه ودماغه، سوف يكون راضياً، وحينها سيكون إنساناً بحق.

الشخص الذي يدرك رسالته المتمثلة في العمل سيسعى بشكل طبيعي إلى التغيير نحو ذلك العمل الذي يشبع رغباته الداخلية والخارجية، ولن يغير نظامه هذا إلا إذا شعر برغبة ملحة في عمل استثنائي، وعندما تتحقق رغبات الآخرين من خلال هذا العمل.

إن طبيعة العمل الأساسية تكمن في أنَ تلبية كلّ رغبات الإنسان تتطلّب منه التنويع بين مجالات عمل مختلفة، وتجعل العمل ليس صعباً، بل ممتعاً. يبقى فقط أن الفكرة الخاطئة، التي تقول إنّ العمل لعنة، يمكن أن تؤدّي إلى إعفاء البعض أنفسهم من مجالات العمل الشائعة؛ أي استغلال جهود الآخرين، وهذا يتطلب استخداماً قسرياً لأشخاص آخرين لكي يقوموا بالعمل، وهذا ما يسمونه تقسيم العمل.

نحن اعتدنا فهمنا الخاطئ لبنية العمل، حتى بدا لنا أن الإسكافي أوالميكانيكي أو الكاتب أو الموسيقي سيصبحون في وضع أفضل إذا حرروا أنفسهم من العمل الأساسي المتأصل في طبيعة الإنسان. حين يُلغى استغلال عمل الآخرين، ويختفي الإيمان الزائف بأنَ السعادة تتمثل في الكسل، لن نجد شخصاً واحداً يعفي نفسه من العمل الجسدي من أجل مهنته الخاصة، فالعمل الجسدي ضروري لتلبية رغباته؛ لأن مهنته الخاصة ليست ميزة، بل هي تضحية تحقق المتعة لإخوته الآخرين.

الإسكافي في القرية، الذي يترك العمل الاعتيادي والممتع في الحقل، ويقبل على عمله، لكي يصنع الأحذية لجيرانه، هو يحرم نفسه دائماً من العمل المبهج في الحقل لأنه يحب خياطة الأحذية فحسب، ولأنه يدرك أنه الوحيد الذي يستطيع إنجاز هذا العمل بكفاءة، وأن الآخرين ممتنون له، لكنَه لن يستطيع أن يحرم نفسه، طوال حياته، من متعة تغيير العمل. كذلك الحال بالنسبة إلى المسؤول والميكانيكي والكاتب والمتعلم. نحن لدينا فكرة خاطئة هي أن السيد النبيل إذا أرسل كاتبه إلى الفلاحة، أو إذا نُفي الوزير إلى قرية بعيدة، فإنّهما يكونان قد تعرضا لعقوبة، وأُسيئت معاملتهما. في الحقيقة، لقد قُدمت لهما فائدة كبيرة، عندما استبدل كلّ منهما عمله المجهد، وذاق متعة تغيير العمل. يبدو الأمر مختلفاً تماماً في المجتمع العادي. أعرف مجتمعاً يكسب فيه أفراده رزقهم بأنفسهم. أحد أفراده متعلم أكثر من البقية، ووقعت عليه مسؤولية إلقاء محاضرات تثقيفية لهم، فكان يحضرها أثناء النهار، لكي يلقيها عليهم في المساء. قام بهذا العمل بكلّ سرور، وهو يشعر بأنّه يقدم الفائدة للآخرين، وأنه يفعل شيئاً نافعاً، لكنه سئم من هذا العمل الفكري الخالص، وساءت صحته. أشفق عليه جيرانه، وطلبوا منه أن يعمل في الحقل.

بالنسبة إلى الأشخاص الذين ينظرون إلى العمل على أنه جوهر ومتعة الحياة، إنّ خلفية وأساس الحياة ستبقى دائماً هي الصراع مع الطبيعة، سواء أكان هذا العمل في الزراعة، أم في الحرف اليدوية، أو العمل الفكري، أو في التواصل مع الآخرين. لن يتحقق التخلف عن مجال واحد أو عدة مجالات من هذه الأعمال، وتأدية عمل خاص، إلا عندما يحبّ الشخص عمله، ويعرف أنه يؤديه بكفاءة أكثر من الآخرين، ويضحي بمصلحته الشخصية من أجل تلبية متطلبات الآخرين المقدمة إليه مباشرة. من خلال هذه النظرة للعمل، التي ينتج عنها تقسيمٌ طبيعيٌّ للعمل، فحسب، ستختفي تلك اللعنة المتأصلة في تصورنا عن العمل، وسيصبح كلّ عمل ممتعاً دائماً؛ لأنه إمّا أن يدرك

الشخصُ أنه يؤدي عملاً مبهجاً ولا شك في نفعيته للناس، وإما أن يدرك تضحيته في إنجاز عمل استثنائي وأكثر مشقة لكي يلبي متطلبات الآخرين.

لكن تقسيم العمل، كما يدّعون، أكثر فائدة. لكن لمن هو مفيد أكثر؟ هل هناك فائدة إذا صنعت أكبر كمية ممكنة من الأحذية والمنسوجات؟ ولكن من سيصنع هذه الأحذية والمنسوجات؟ سيصنعها أولئك الأشخاص الذين توارثوا من جيل إلى جيل صناعة رؤوس الدبابيس فحسب. متى تتحقق الفائدة الأكبر للناس؟ إذا كانت الفائدة تكمن في صنع أكبر قدر ممكن من الأحذية والمنسوجات فقد تحققت فعلاً، لكن الأمر يتعلق بالناس وبمصلحتهم، وتتمثل مصلحتهم في الحياة، والحياة هي في العمل. كيف يكون العمل المجهد والشاق مفيداً للناس؟ إذا كانت الفائدة تكمن في منفعة فئة من الناس من دون تصور حول مصلحة جميع الناس، فالفائدة الأكبر تكمن في أن يأكل بعضُهم باقي الناس. يقولون إن أكلهم لإخوتهم لذيذ. تتحقق المنفعة لجميع الناس عندما أتمنى للناس ما أتمناه لنفسي، وهو الوصول إلى أعلى درجة ممكنة من الخير وإشباع تلك الرغبات الجسدية والروحية، ورغبات الضمير والعقل المودعة فيَّ. بالنسبة إلي، وجدت أنني لكي أشبع رغباتي ومتطلباتي، يجب عليّ أن أتخلص من تلك الحماقة التي كنت أتّصف بها مثل ذلك الرجل من كرابينفسكي؛ تلك الحماقة التي تمثلت في أن بعض الناس لا ينبغي أن يعملوا، بل على الآخرين أن ينوبوا عنهم في ذلك، وأن عليهم أن يعملوا بما يتوافق مع طبيعة الإنسان؛ أي أن يسعوا لتلبية رغباتهم الشخصية. بعد أن أدركت هذا، اقتنعت بأنّ العمل من أجل إشباع الرغبات الشخصية ينقسم إلى مجالات عمل مختلفة، وكل مجال منها له جاذبيته الخاصة، وكلّ عمل ليس لا يشكّل إرهاقاً فحسب، بل هو بمنزلة استراحة من العمل السابق الذي كنت أقوم به.

قسمت بشكل تقريبي (وأنا لا أدّعي أن هذا التقسيم صحيح تماماً) هذا العمل، وفقاً لتلك المتطلبات، إلى أربعة أقسام، بالتوافق مع المراحل الأربعة للعمل، التي يتكون منها يوم العمل، وسعيت لتلبية هذه المتطلبات.

هذه، إذاً، هي الأجوبة التي وجدتها لنفسي عن سؤال: ما الذي يجب أن نفعله؟

أولاً: ألا أكذب على نفسي، مهما كنت بعيداً عن ذلك المسار الحقيقي الذي يوضحه لي عقلي.

ثانياً: التخلي عن اعتقادي بامتلاكي حقوقاً وميزاتٍ وخصوصيةً عن الآخرين، والاعتراف بأنني مذنب.

ثالثاً: تطبيق ذلك القانون الأبدي، الذي لا شك فيه، المتمثل في العمل بكل طاقتي، وألا أخجل من أي عمل، وأن أصارع الطبيعة للحفاظ على حياتي وحياة الآخرين.

خلاص الأغنياء

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد قلت كلّ ما يتعلق بيَ، لكنّني لا أستطيع مقاومة رغبتي في قول كلّ ما يتعلق بالآخرين؛ أي التحقق من الاستنتاجات العامة التي توصلت إليها. أريد أن أشرح لماذا يبدو لي أن الكثيرين جداً من طبقتنا يجب أن يصلوا إلى ما وصلتُ إليه، وأن أشرح ما يمكن أن يخرج عن كلّ هذا، إذا وصل بعضهم إلى ما وصلتُ إليه حقاً.

أعتقد أن الكثيرين سيصلون إلى ما وصلتُ إليه؛ لأن أفراد طبقتنا إذا نظروا إلى أوضاعهم بجدية، فإنّ الشباب، الذين يبحثون عن سعادتهم الشخصية، سوف يشعرون بالرعب من التعاسة المتفاقمة في حياتهم، التي تؤدي بهم بشكل واضح إلى الخراب. أما الأشخاص أصحاب الضمائر الحية، فسوف يشعرون بالرعب من قسوة حياتهم وعدم شرعيتها. أما الجبناء فسوف يخافون من خطر نمط حياتهم.

يا لتعاسة حياتنا! نحن الأغنياء، لا نستعين بعلمنا وفننا لتصحيح حياتنا الزائفة ودعمها، وحياتنا هذه تصبح في كلّ عام أضعف وأكثر عجزاً وألماً. تزداد حالات الانتحار في كلّ عام، ويزداد الإعراض عن إنجاب الأطفال. نشعر في كل عام بالتعاسة المتفاقمة في حياتنا، وتصبح الأجيال الجديدة لطبقتنا أضعف مع كل عام يمضي. يبدو واضحاً أنّ هذا الطريق لا يؤدي بنا إلى الخلاص، رغم كلّ ما فيه من وسائل الراحة ومتاع الحياة، من علاج وأساليب اصطناعية لتحسين النظر والسمع والشهية، والأسنان الاصطناعية، والشعر، والتنفس، والتدليك وغيرها. لمّا كان الناس، الذين لا يستخدمون

هذه الكماليات، يتمتعون بالقوة والصحة، فإن هذه الحقيقة أصبحت بديهية، إلى درجة أنهم يعلنون في الصحف عن مساحيق لعلاج عسر الهضم للأغنياء مستخدمين عبارة: ببركات الفقراء؛ حيث يقصدون أن الفقراء وحدهم يهضمون طعامهم كما يجب. أما الأغنياء فهم بحاجة إلى المساعدة، التي من ضمنها هذه المساحيق. لا يمكن تصحيح هذا الأمر بالمرح ووسائل الراحة والمساحيق، بل بتغيير نمط الحياة.

تتناقض حياتنا مع ضمائرنا. مهما حاولنا تبرير خيانتنا للبشرية أمام أنفسنا، فإن كل مبرراتنا تسقط أمام الحقيقة الواضحة وهي أن الناس يموتون من حولنا بسبب العمل الذي يفوق طاقتهم، وبسبب الفاقة. نحن نقضي على عمل الآخرين وطعامهم ولباسهم الضرورية لهم، فقط من أجل الاستمتاع والتنويع في حياتنا المملة. لذلك إن أيّ شخص في طبقتنا، لديه بقية من ضمير حتى لو كانت متواضعة جداً، لن ينام وسوف يفسد كلّ وسائل الراحة وملذات الحياة التي يقدمها لنا إخوتنا الذين يموتون وهم يعملون لإنجازها لنا. لكن كل شخص لديه ضمير يجب ألا يشعر بهذا فحسب، ولعله سيكون سعيداً عندما ينسى هذه الملذات، لكنه لن يستطيع. في وقتنا الحاضر؛ حيث بقي أفضل معنى للعلم والفن، وهو معنى رسالته، إنَه يذكرنا باستمرار بقسوتنا وعدم شرعية وضعنا. تلاشت المبررات القوية القديمة. أما المبررات الجديدة، التي تقول إنّ العلم للعلم، والفن للفن؛ فهي آيلة إلى السقوط؛ لأنها لن تصمد أمام ضوء الفطرة السليمة. إن ضمائر الناس لن تريحها الابتكارات الجديدة، لكنّها سترتاح فقط عندما يتغير أسلوب الحياة؛ حيث لن تكون هناك ضرورة لتبرير أيّ شيء.

إن حياتنا خطيرة، ومهما حاولنا أن نخفي عن أنفسنا هذا الخطر الواضح المتمثل في استنفاذ صبر الآخرين الذين نخنقهم، ومهما حاولنا أن نقاوم هذه الخطورة بأي خدع كانت، أو بالقوة أو بوسائل الإقناع؛ فإن هذه الخطورة تتفاقم كل يوم وكل ساعة، وتهدّدنا منذ فترة طويلة، وهي الآن وصلت إلى

الحد الذي أصبحنا فيه نكاد نمسك بقاربنا المترنح في البحر الهائج، الذي سيبتلعنا بغضب. إن ثورة العمال لا تهددنا بأهوال من الدمار والقتل فحسب، بل إننا نعيش فيها منذ ثلاثين عاماً، لكننا نؤجل انفجارها لبعض الوقت بخدع مختلفة. هذا هو الحال في أوروبا، وعندنا، لكنه عندنا أسوأ؛ لأنه لا يمتلك صمامات أمان.

ليس لدى الطبقات المضطهدة للشعب، باستثناء القيصر، أيّ مبرر في نظر الشعب. هم يحافظون على مناصبهم فقط بالقوة والخداع والانتهازية؛ أي بالدهاء، لكن الكراهية تجاهنا من أصغر ممثلي الشعب، واحتقارنا من أعلى ممثليه، تتفاقمان في كل عام.

هناك كلمة متداولة بين الناس، في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة، وهي تحمل معاني متعددة. هذه الكلمة التي لم أسمعها من قبل أبداً، والتي يشتم بها الناس بعضهم في الشارع، هي كلمة «متطفلون». تزداد حدة الكراهية والاحتقار عند الشعب المسحوق. أما القوى الجسدية والمعنوية عند الأغنياء فهي تضعف. يتلاشى الخداع الذي يستند إليه الجميع، ولا شيء يعزي به الأغنياء أنفسهم ويخلصهم من خطر الموت هذا. العودة إلى الماضي مستحيلة، واستعادة النفوذ المقوّض مستحيلة كذلك. يبقى شيء واحد لأولئك الذين لا يريدون تغيير حياتهم: أن يسعوا لأن يكونوا جيدين في الفترة المتبقية من حياتهم، ويتوقفوا عمّا فعلوه في السابق، ثمّ ليفعل الآخرون ما يشاؤون بعد ذلك. هذا ما يفعله الحشد المغفل للطبقات الغنية، لكن الخطر يتفاقم، والنهاية المفجعة تقترب. لا يمكن للطبقات الغنية تجنّب الخطر المهدد لهم إلا من خلال تغيير نمط حياتهم.

ثلاثة أسباب تجعل تغيير حياة الطبقات الغنية ضرورياً: السعي إلى الصالح الشخصي والعام، الذي هو غير مُتحقق في نمط حياتهم الحالي، والحاجة إلى سماع صوت الضمير، الذي يبدو واضحاً أنه مستحيل في حالتهم

الراهنة، وثالثاً هذا الخطر المهدد والمتفاقم لحياتهم، الذي لا يمكن إزالته بأي وسائل خارجية. هذه الأسباب الثلاثة يجب أن تدفع الأغنياء نحو تغيير حياتهم، الذي تتحقق فيه متطلبات الصلاح والضمير، ويزول فيه الخطر.

وهذا التغيير لا يمكن أن يتم إلا من خلال التوقف عن الخداع، ثم التوبة والنظر إلى العمل لا على أنه لعنة، بل على أنه شيء ممتع في الحياة.

لكن كيف نرد على السؤال: ما الفائدة من عملي الجسدي لعشر أو ثماني أو خمس ساعات، إذا كان هناك الآلاف من الفلاحين الذين يؤدون هذا العمل بكلِّ سرور مقابل الحصول على المال الذي أمتلكه؟

الشيء الأول والبسيط والمؤكد هو أنك ستصبح أكثر سعادة وصحة ومرحاً وطيبة، وستتعرف إلى الحياة الحقيقية، التي أخفيتها عن نفسك، أو هي أُخفيت عنك. ثانياً، إذا كنت صاحب ضمير حي، فإنّ ضميرك، بالإضافة إلى أنه لن يتوقف عن الألم، كما هو حاله الآن، حين تنظر إلى عمل الآخرين الذي لا ندرك أهميته، والذي نبالغ أو ننقص من أهميته، بسبب عدم معرفتنا له، ستشعر كذلك بسعادة كبيرة عندما تدرك أنّك تستمع كل يوم إلى صوته؛ تستمع إلى صوت ضميرك أكثر وأكثر، وتخرج من الحالة الرهيبة تلك المليئة بالشرور في حياتنا، وستتذوّق طعم العيش بحرية مع فعل الخير، وستفتح لك نافذة تطل منها على العالم الأخلاقي، تلك النافذة التي كانت مغلقة أمامك. الشيء الثالث هو أنك بدلاً من الخوف الدائم من الانتقام بسبب شرورك، ستشعر بأنك تنقذ الآخرين من هذا الانتقام، والأهم أنك تنقذ المظلومين من هذا الشعور القاسي بالحقد والانتقام.

لكن يقولون: يبدو مضحكاً لنا، ونحن -ممثلي العلم والفن- أمام هذه الأسئلة العميقة، الفلسفية والعلمية والسياسية والفنية والدينية والاجتماعية، نحن الوزراء والنوّاب والأكاديميين والأساتذة الكبار والفنانين، نحن الذين يقدّر الناس تقديراً عالياً ربع وقتنا؛ فكيف سنضيعه؟ في تنظيف أحذيتنا،

وغسل قمصاننا، والاستحمام، وزراعة البطاطا، وإطعام دجاجاتنا وأبقارنا، وغيرها من الأعمال، التي يؤدّيها لنا ونيابةً عنّا بكلّ سرور ليس حارسنا وطباختنا فحسب، بل آلاف الأشخاص الذين يقدّرون وقتنا؟ كيف نلبس ونستحم ونفرك جلودنا بأنفسنا (اعذروني على التفصيل)، ونأخذ أواني الطعام بأنفسنا، ونعطي الكراسي للسيدات والضيوف، ونفتح الأبواب للضيوف ونغلقها، ونساعد الآخرين في ركوب العربات، ونفعل مئات الأمور مثل هذه، التي كان العبيد يؤدّونها نيابةً عنا؟ لأننا نعتقد بأنّ هذا مهم جداً، وتتحقق فيه كرامة الإنسان؛ أي إنه واجب، واجب الإنسان. كذلك بالنسبة إلى العمل الجسدي.

إن كرامة الإنسان تكمن في أداء واجبه المقدس، في استخدام يديه ورجليه للغرض الذي وُجدت من أجله، واستخدام الطعام الذي يتناوله في أداء العمل الذي يجلب له هذا الطعام، وليس من أجل ضمور يديه وجسمه وغسلها وتنظيفها واستخدامها في جلب الطعام والشراب والسجائر إلى الفم فحسب. هذا هو معنى العمل الجسدي لأيّ شخص في أيّ مجتمع كان، ولكن في مجتمعنا؛ حيث يتسبّب التهرب من قانون الطبيعة في البؤس لفئة كبيرة من الناس، إنّ العمل الجسدي يكتسب معنىً آخر، هو معنى الوعظ وادّعاء القضاء على كل الكوارث المهددة للبشرية. إن القول إنّ العمل الجسدي مهنةٌ لا تليق بالشخص المتعلم يشبه تماماً القول أثناء بناء هيكل ما: ما الفائدة من وضع كلّ حجر في مكانه بالضبط؟ إنّ أيّ عمل عظيم يُنجز فحسب في شروط الهدوء والتواضع والبساطة. لا يمكنك أن تحرث الأرض، أو تسقي الماشية، أو حتى التفكير تحت إضاءة قوية، أو وسط أصوات المدافع، أو أثناء ارتداء الزي العسكري. الضوء وأصوات المدافع والموسيقا والزي العسكري والنظافة والبريق، هذه المؤشرات، التي اعتدنا أن نربطها بمفهوم أهمية العمل، هي دائماً، وعلى النقيض، تكون مؤشرات على عدم أهمية العمل.

إنّ الأعمال العظيمة هي دائماً متواضعة وبسيطة. إنّ المهمة العظيمة الماثلة أمامنا هي حلّ كلّ المتناقضات الرهيبة التي نعيش فيها. هذه الأمور التي تحلّ هذه التناقضات هي أمور متواضعة وغير محسوسة، وتبدو طريفة، مثل خدمتنا لأنفسنا والعمل الجسدي من أجلنا، ومن أجل الآخرين إذا أمكن ذلك، وهذا ما يجب أن نفعله، نحن الأغنياء، إذا أدركنا البؤس وانعدام الضمير وخطورة الوضع الذي وصلنا إليه.

ما سينتج عن هذا هو أنني وآخر وثالث وعاشر لن نحتقر العمل الجسدي، بل سوف نَعدّه ضرورياً لسعادتنا وراحة ضمائرنا وأمننا. سينتج عن ذلك أنّ واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو عشرة أشخاص، من دون الدخول في تصادم مع أيّ أحد، ومن دون سلطة الدولة أو الثورة، سوف يحلّون السؤال المخيف المطروح أمام العالم أجمع، والذي يقسم الناس. سوف يحلّونه؛ حيث تصبح حياتهم أفضل، وضمائرهم مرتاحة، ولن يخافوا من شيء. سينتج عن ذلك أنّ الآخرين كذلك، الذين سيرون أن الخير، الذي ينشدونه في كلّ مكان، هو هنا بالقرب منهم، وأن تناقضات الضمير التي لا حلّ لها وبناء العالم تُحل بأبسط الطرق وأكثرها متعة، وأنّه بدلاً من الخوف من الناس المحيطين بنا، يجب علينا أن نقترب منهم ونحبهم.

إنّ المشكلة الاقتصادية والاجتماعية غير المحلولة هي مثل صندوق كريلوف[1]؛ يُفتح الصندوق ببساطة، وطالما أنّه لم يُفتح لن يجرب الناس أول إجراء بسيط وهو أن يفتحوه.

---

1 حكاية لإيفان أندروفيتش كريلوف (1769 - 1844) وهو كاتب قصص أسطورية روسي. تتحدث الحكاية عن ميكانيكي يحاول فتح صندوق مغلق، ويجرب طرقاً كثيرة لفتحه، ليكتشف في النهاية أن الصندوق غير مقفل.

هذه المشكلة، التي تبدو بلا حلّ، هي المشكلة القديمة المتمثلة في الكيفية التي يستغلّ بها بعض الناس عمل الآخرين. استعانوا بالقوة المباشرة المتمثلة في العبودية في الماضي لكي يستغلوا جهود الآخرين. أمّا في عصرنا فيستعينون بالمُلكية من أجل هذا. المُلكية في عصرنا هي مصدر معاناة الناس الذين لديهم أملاك والمحرومين منها، وسببٌ لوجع الضمير لمن يستخدمون هذه الأملاك بصورة سيئة، وهي تسبب خطورة في التصادم بين من يملكون الأرباح والمحرومين منها. إن المُلكية، في وقتنا الحالي، هي كلّ ما يتوجه إليه نشاط مجتمعنا المعاصر، وما يوجّه تقريباً كلّ نشاطات عالمنا.

تتآمر الحكومات بعضها على بعض، وتتقاتل من أجل مكلية ضفاف نهر الراين، والأراضي في أفريقيا، وفي الصين، وأراضي شبه جزيرة البلقان. يعاني المصرفيون والتجار والصناعيون ومُلّاك الأراضي، ويلجؤون إلى الخداع، ويتألمون، ويسببون الألم لغيرهم، بسبب المُلكية. يُقتل الموظفون والحرفيون ومُلّاك الأراضي، ويُخدعون، ويعانون، ويتألمون، بسبب المُلكية. يحمي القضاة والشرطة المُلكية. المُلكية هي أصل كلّ الشرور، والعالم كله تقريباً مشغول بتوزيع وتأمين المُلكية.

ماذا تعني المُلكية؟ اعتاد الناس الاعتقاد بأن المُلكية هي في الواقع شيء يخصّ الإنسان، لذلك سميت مُلكية. نحن نتحدث عن البيت واليد بالطريقة نفسها، فنقول هذه يدي، وهذا بيتي، ولكن يبدو واضحاً أنّ هذا وهمٌ وضلال.

نحن نعرف، حتى لو افترضنا أننا لا نعرف سوف نرى ببساطة؛ أنّ المُلكية هي فحسب وسيلة لاستغلال جهود الآخرين، لكنّ جهود الآخرين لا يمكن أن تكون عائدة بشكل خاص إلي، حتى إنها لا تشترك بأيّ شيء مع المفهوم الدقيق والمحدد للمُلكية. ما سماه ويسميه الإنسان مُلكاً له وخاصاً به هو ما يخضع دائماً لإرادته، وما يمثل أدوات عمله، أو وسائل تلبية متطلباته، وهذه الأدوات والوسائل، التي يَعدّها الإنسان ملكه قبل كلّ شيء، هي جسمه؛ يداه

ورجلاه وأذناه وعيناه ولسانه. عندما يدّعي الإنسان امتلاك أشياء أخرى غير جسده، ويتمنى أن يخضعها لإرادته مثل جسمه، يخطئ ويشعر بخيبة أمل ويتألم، ويسبب الألم للآخرين.

يدّعي الإنسان أن زوجته وأولاده وعبيده هم مُلكية خاصة به، لكن الواقع يظهر له خطأه دائماً، وعليه أن يُعرض عن هذا الوهم، وإلا فسيتألم ويسبب الألم للآخرين. نحن الآن تركنا مُلكية العبيد اسمياً، وأعلنّا حقّنا في امتلاك الأرض والمواد والمال؛ أي استولينا على عمل الآخرين. لكن كما أن ادعاءنا أن الزوجة والابن والعبد هم أملاك خاصة بنا هو خيال، وهذا ما يفنّده الواقع، ولا يجلب لمن يؤمن به إلا المعاناة؛ لأن الزوجة والابن لن يخضعا أبداً لإرادتي، مثل جسمي، كذلك ملكيتي الحقيقية ستبقى متمثّلة في جسدي فحسب، وكذلك المال وأي أشياء خارجية لن تكون ملكاً لي، بل هذا مجرد وَهْم أتصوّره، وهو مصدر معاناتي، فمُلكيتي تبقى متمثلة في جسدي فحسب؛ لأنه دائماً يخضع لإرادتي، ويرتبط بوعيي.

نحن فحسب -الذين اعتدنا ادعاء امتلاك أشياء أخرى غير أجسادنا- قد تبدو لنا هذه الخرافة الهمجية مفيدة، وستبقى من دون أيّ عواقب سيّئة لنا، ولكن يتوجب علينا التفكير في جوهر الأمر حتى ندرك أنّ هذه الخرافة، وأيّ خرافة أخرى، تسبب نتائج كارثية.

إن أي مُلكية تولّد لدى الإنسان احتياجات غير مناسبة ورغبات غير متوافقة مع طبيعته، وتحرمه من فرصة اكتساب المعارف المهارات والعادات والتطورات من أجل ملكيته الحقيقية التي لا شكّ فيها، والمتمثلة في جسده. النتيجة هي أنه سيبقى عاجزاً، من أجل نفسه، ومن أجل ملكيته الحقيقية، وقد أهدر طاقته، وربّما حياته كلها، في سبيل شيء لم يكن ولا يمكن أن يكون مُلكاً له.

ينشئ أحدنا مكتبته التي يتخيّلها خاصةً به، وألبوم صوره «الخاص»، وشقته «الخاصة»، وثيابه «الخاصة»، ويصرف نقوده «الخاصة»، لكي يشتري بها كل ما يحتاج إليه، وينتهي به الأمر إلى أنه يتعامل مع هذه المُلكيات الوهمية على أنها ملكيات طبيعية، ومن ثَمَّ يفقد معرفته بملكيته الحقيقية، التي كان عليه أن يعمل من أجلها في الواقع، والتي يمكنها تقديم الفائدة له، وستبقى دائماً تحت إرادته، وينشغل بما لا يمكن أن يكون ملكاً له مهما أطلق عليه من تسميات، وبما لا يمكن أن يكون موضوعاً لنشاطاته.

إن الكلمات لها معانٍ واضحة ما لم نتعمد إعطاءها معاني زائفة.

ماذا تعني المُلكية؟ المُلكية هي كلّ ما هو ممنوح وتعود ملكيته الحصرية إلي، وما أستطيع أن أتصرّف به دائماً كما أشاء، وما لا يستطيع أيّ أحدٍ أن يسلبه مني، ويبقى خاصاً بي حتى آخر حياتي، وما يجب عليّ أنا فقط استخدامه وزيادته وتطويره. تُفهم المُلكية الوهمية، عادةً، بهذا المعنى، وباسمها (حيث يُفعل المستحيل من أجل أن تصبح هذه المُلكية الوهمية مُلكية حقيقية) تحدث كلّ الشرور في هذا العالم من حروب وإعدامات ومحاكم ومعتقلات وترف وفساد وقتل وخراب للبشرية.

ما الذي سينتج عن عمل عشرات من الناس في حراثة الأرض وتقطيع الأخشاب وصناعة الأحذية ليس بسبب حاجتهم، بل بسبب إدراكهم أن العمل ضروري للإنسان، وأنهم كلما عملوا أكثر أصبحت حياتهم أفضل؟ ينتج أن العشرات، أو حتى شخصاً واحداً، يوضحون للناس أنّ الشر الرهيب الذي يعانون منه ليس قضاءً وقدراً، ولا يمثّل إرادة الله، أو أنه ضرورة تاريخية ما، بل هو وَهْم، ليس قوياً ولا رهيباً، بل هو وَهْم ضعيف ومندثر، يجب علينا فقط أن نتوقف عن تصديقه، مثل الأصنام، لكي نتحرّر منه، ونهدمه، مثل شبكة عنكبوت هشّة. الأشخاص، الذين سيعملون من أجل تطبيق قانون حياتهم المبهج؛ أي الذين يعملون من أجل تطبيق قانون العمل، سيتحرّرون من خرافة

المُلكية البائسة، وكلّ مؤسسات العالم المُحدثة من أجل الحفاظ على هذه المُلكية المزعومة خارج جسم الإنسان، التي ستصبح، بالنسبة إليهم، ليس غير ضرورية فحسب، بل مرهقة، وسيتضح للجميع أنّ كلّ هذه المؤسسات ليست شروطاً غير ضرورية للحياة فحسب، بل هي شروط مخترعة وزائفة وضارة.

بالنسبة إلى من يرى أن العمل ليس لعنة، بل هو السعادة بعينها، إن المُلكية خارج جسده؛ أي أحقيته أو إمكانيته في استخدام عمل الآخرين، لن تكون غير مفيدة فحسب، بل مرهقة. إذا كنت أحبّ، واعتدت إعداد طعامي بنفسي، فإنّ قيام شخص آخر بهذا نيابةً عنّي سيحرمني ممّا اعتدت عليه، ولن يلبي رغبتي كما ألبّيها أنا لنفسي؛ بالإضافة إلى ذلك، إنّ اكتساب مُلكية مُتخيّلة لمن هو مثلي ليست ضرورية؛ لأنّ الشخص الذي يَعدّ العمل حياته، ويشغل به حياته، سيصبح أقلّ حاجة إلى عمل الآخرين تدريجياً؛ أي إنه ليس بحاجة إلى ممتلكات أقلّ لشغل وقته الخامل بملذات الحياة.

إذا كانت حياة الإنسان مشغولةً بالعمل، وهو يعرف متعة الراحة، فهو ليس بحاجة إلى الكثير من الغرف والأثاث والملابس الجميلة المتنوعة، وستصبح حاجته إلى الأطعمة باهظة الثمن أقلّ، ولن يكون بحاجة إلى وسائل التنقل والحركة. ما هو أهم أنّ من يرى أنّ العمل يمثّل هدفَ ومتعةَ حياته لن يبحث عن تسهيل عمله الذي يمكن أن يوفره له عمل الآخرين. إنّ من يرى في العمل حياته سيضع لنفسه هدفاً، تماشياً مع مهاراته وبراعته وقدرته على التحمل، لكي يعمل أكثر وأكثر، ويشغل حياته بصورة أكبر. بالنسبة إليه، إن المعنى المفترض لحياته متمثل في العمل، وليس في نتائجه. إن اكتساب المُلكية؛ أي استغلال عمل الآخرين، لا يمكن أن يمثّل مشكلة حول أدوات العمل. وعلى الرغم من أنّ مثل هذا الشخص يستخدم دائماً أكثر الأدوات إنتاجية، سيشعر بالرضا ذاته والراحة، إذا استعان بأدوات قليلة الإنتاجية. إذا كان لديه محراث مزدوج فإنّه سيحرث به، وإذا لم يمتلكه فسوف يستعين بالحصان، وإذا لم

يكن لديه المحراث الذي يجرّه الحصان، فسوف يستخدم المحراث اليدوي البسيط، وفي كلّ الأحوال سيصل إلى غايته، وهي قضاء حياته في عمل مفيد للناس، ومن ثَمَّ سيكون راضياً. إن حياة هذا الشخص، وفقاً للظروف الداخلية والخارجية، ستكون أكثر سعادة من حياة ذلك الذي يقضي حياته في اكتساب الممتلكات. بالنسبة إلى الظروف الخارجية في حياة هذا الشخص، لن يكون في حالة فقر؛ لأن الناس عندما يرون رغبته في العمل، مثل الماء القوي الذي يتدفّق إلى الطاحونة، سيحاولون دائماً أن يوفروا له الظروف؛ حيث يكون عمله أكثر إنتاجية، ويوفرون احتياجاته المادية، وهذا ما لا يقدمونه لأولئك الذين يسعون إلى التملك، وتأمين الاحتياجات المادية هو كلّ ما يحتاج إليه الإنسان. أما داخلياً فإنّ هذا الشخص أكثر سعادة من ذلك الذي يبحث عن المُلكية؛ لأن الأخير لا يمكنه أن يصل إلى ما يصبو إليه. أما هو، وبما يتناسب مع طاقته: ضعيفاً كان أم عجوزاً أم يحتضر، فإنّه، وفقاً للقول المأثور، وبمنجل في يده، سيشعر بالرضا التام والحب والتعاطف من الناس.

ماذا سينتج عن قيام عدد من غريبي الأطوار والمجانين بالحراثة وصناعة الأحذية وغيرها، بدلاً من تدخين السجائر واللعب بالورق والتسكع، خلال ساعات الفراغ العشر التي يقضيها كلّ عامل عاقل في أداء عمله؟ سينتج أن هؤلاء المجانين سيثبتون عملياً أن المُلكية الوهمية، التي يعانون ويتألمون منها، وتسبب الألم والعذاب للآخرين، ليست ضرورية للسعادة، بل هي عائق أمامها، وهذا كله مجرد وهم؛ فالمُلكية الحقيقية هي فحسب رأسك ويداك ورجلاك، ولاستخدام هذه المُلكية بصورة نفعية وممتعة، يجب ترك التصور الزائف عن المُلكية خارج أجسادنا. التي نبدّد في سبيلها أفضل طاقات حياتنا. سينتج أن هؤلاء الناس سيثبتون أنّ الإنسان لن يستثمر ملكيته الحقيقية وقدراته وجسده، إلا إذا توقف عن الإيمان بالمُلكية الوهمية؛ لأن ملكيته الخاصة ستعطيه نتائج مثمرة وسعادة بمئات الأضعاف، هذه السعادة

التي لا نفهمها نحن، وسيكون شخصاً طيباً وقوياً ومفيداً، وأينما حلّ سيقف على قدميه، وسيكون دائماً أخاً للجميع، ومفهوماً وضرورياً لهم وعزيزاً عليهم.

عندما ينظر الناس إلى أحد هؤلاء، فإنّ العشرات من المجانين سيدركون أن عليهم أن يعملوا على فكّ هذه العقدة الرهيبة التي قادتهم إليها أوهام المُلكية، لكي يتخلصوا من حالتهم البائسة، التي يصرخون منها كلهم وبصوت واحد، ولا يعرفون سبيلاً للخروج منها.

لكن ما الذي سيفعله شخصٌ واحدٌ بين جمهور لا يتفق معه؟ لا توجد إثباتات منطقية من الممكن أن تثبت بوضوح عدم صحة اعتقادهم. يسحب البحارة السفينة عكس الأمواج. هل يُعقل أن يكون هناك بحار أحمق يرفض سحب قاربه؛ لأنه وحده لا يستطيع سحبه ضدّ التيار. من يعترف بواجبات بشرية أخرى عليه القيام بها، غير واجبات حياته الحيوانية، مثل الطعام والنوم، يعرف جيداً ما هو الواجب البشري هنا، كما يعرفه هذا البحار تماماً الذي يرتدي حزامه. يدرك البحار جيداً أنّ عليه فحسب أن يشدّ حزامه على كتفيه، ويسير نحو وجهته. سيبحث ويسأل نفسه ماذا عليه أن يفعل عندما يؤدي واجبه فحسب. بالنسبة إلى البحارين وجميع الناس الذين ينجزون أعمالاً مشتركة، وبالنسبة إلى عمل البشرية جمعاء؛ إنّ كلّ شخص عليه فحسب أن يربط حزامه، ويسير نحو غايته. لهذا تُعطى فكرة واحدة لجميع الناس هي أن وجهتهم واحدة دائماً. هذه الوجهة واضحة لا لبس فيها، في حياة كلّ المحيطين بنا، وفي ضمير كلّ إنسان، وفي كلّ أفكار الحكماء، ووحده من لا يريد أن يعمل يقول إنّه لا يراها.

ما الذي سينتج عن هذا؟ سينتج أنّ شخصاً أو اثنين سيباشران سحبَ قاربيهما، فيراهما ثالث وينضم إليهما، وهكذا ينضم إليهم خيرة الناس، طالما أن الأمر يسير على ما يرام، وهكذا ينضم إليهم آخرون تلقائياً دون أن يفهموا الغاية من هذا العمل. أول من سيلتحق بالركب هم أولئك الأشخاص الذين

يعملون على الالتزام بشريعة الله. سيُقبل نصفهم على أساس الوعي، ونصفهم الآخر على أساس الإيمان، ثمّ ينضم إليهم عددٌ أكبر من الناس، بناءً على إيمان من سبقوهم فحسب، وفي النهاية سيدرك الجميع هذا، وسيتوقف الناس عن تدمير حياتهم، وسيجدون السعادة.

سيحدث هذا، ولعلّه سيحدث قريباً جداً، عندما لا يخجل أفراد طبقتنا، ومعهم أغلبية الناس، من تنظيف المراحيض الخارجية، ولا يخجلون من إعدادها لكي يستخدمها إخوتهم، ولا يخجلون من لبس أحذيتهم المنزلية عندما يذهبون في زيارة ما، ولا يخجلون من لبس الأحذية المنزلية بينما هناك من ليس لديهم ما يلبسونه، ولا يخجلون من عدم معرفتهم اللغة الفرنسية وآخر الأخبار، وأن العيب يتمثّل في أكل الخبز دون معرفة كيفية تحضيره، وأن يكفوا عن الخجل من لبس قميص غير مغسول بالنشا، بينما يخجلون من المشي بلباس نظيف يعبّر عن كسلهم، ولا يخجل أحدهم من منظر يديه الوسختين، بل يخجل إذا لم يكن بهما مسامير لحمية (دليل على العمل).

سيحدث هذا عندما يطلبه الرأي العام، ولا يطلبه الرأي العام إلا عندما يتحرّر الناس من تلك الأوهام التي أخفت عنهم الحقيقة. تحتفظ ذاكرتي بالكثير من هذه التغيرات وفق هذا المعنى؛ حيث حدثت هذه التغيرات فحسب عندما تغير الرأي العام. كان معيباً، كما أذكر، للأغنياء الخروج إلى الخارج من دون مرافقة خادمين، وكان معيباً لهم أن لا يمتلك أحدهم خادماً لكي يساعده/تساعده في ارتداء الملابس ووضع الحذاء والاستحمام والغسيل، وأصبح فجأة معيباً ألا يرتدي ملابسه وحذاءه بنفسه، أو أن يخرج برفقة الخدم. ما أحدث كلَ هذه التغيرات هو الرأي العام. أليست هذه التغيرات التي يجري التحضير لها الآن، في الرأي العام، واضحة؟

استغرق الأمر خمساً وعشرين سنة حتى اختفت تلك الخدعة التي تبرّر مُلكية الأقنان، وتغيّر الرأي العام حولها، وأصبح مُعيباً، وتغيّرت الحياة. إن

اختفاء خدعة تبرير سلطة المال وتغيير الرأي العام حولها يحدث بسرعة. تبرز هذه الخدعة، وتحجب الحقيقية شيئاً فشيئاً. يتعين علينا فحسب أن ننظر باهتمام، لكي نرى بوضوح تغير الرأي العام، الذي حدث فعلاً، ولكن لم يُعترف به، ولم يُشر إليه. لو تفكّر أقلّ الناس تعليماً في عصرنا في ما سينتج عن تلك الآراء عن العالم، التي يتبعها لكي يقيّم الأشياء بين سيّئ وجيد، وبين ما يستحق الثناء وما يسبب الشعور بالخزي، ويسترشد بها في حياته، فسيجد أنها تتعارض تماماً مع نظرته للعالم. لو أعرض أيّ شخص في عصرنا، دقيقةً واحدة، عن حياته المتخلفة، ونظر إليها من تلك الزاوية التي تنتج عن تصوّره للعالم، لأصابه الذعر من هول تعريفه للحياة، المبنيّ على أساس تصوّراته عنها. على سبيل المثال الشاب (الشباب يتمتعون بحيوية أكبر، ورؤيتهم للعالم لاتزال ضبابية) المنتمي إلى طبقة غنية مهما كان اتجاهها. إنّ أيّ شاب جيد يرى أن من المعيب عدم مساعدة العجوز والطفل والمرأة، كما يرى الشباب أن المخاطرة بحياة الآخرين أمرٌ مخزٍ، وهم أنفسهم يتجنّبونها. يرى كلّ شاب أن تصرّف القرغيز وقت العاصفة، كما روى شويلر[1]، كان معيباً وبدائياً، حين أرسلوا النساء والعجائز لتثبيت زوايا الخيمة أثناء العاصفة، بينما استمروا هم في جلستهم في الخيمة وهم يشربون القمارص[2]. إنّ أي شاب يرى أنّ من المعيب إجبار أيّ شخص على العمل من أجله، ويرى أنّ من العار أكثر في وقت الخطر، في سفينة محترقة مثلاً، أن يدفع من يتمتع بالقوة الضعفاءَ ويضعهم في خطر، وهو أول من يصعد إلى قارب النجاة.

---

1 يوجين شويلر(1840 - 1890) هو مترجم ودبلوماسي وصحفي وكاتب أمريكي، وقد كتب عن رحلاته في آسيا الوسطى وهذا ما أشار إليه الكاتب.

2 القُمارِص هو أحد أنواع الألبان المُخمّرة خصّه البعض بحليب الإبل، وفي آسيا الوسطى يُصنع من حليب الفرس. سمّاه العرب القمارص لأنه يقرص اللسان لشدّة حموضته.

الشباب يعدّون كلّ هذه السلوكيات معيبة، ولا يمكنهم أن يقوموا بها مهما كانت الظروف الاستثنائية التي يتعرّضون لها، ولكنْ في الحياة اليومية هناك سلوكيات أسوأ، لكنّ الخدع تحجبها عنهم، ولا يتوقّفون عن ممارستها. يتعيّن عليهم التفكير لكي يروا الحقيقة التي ستفجعهم. يرتدي الشاب قمصاناً نظيفة كلّ يوم. من يغسلها له في النهر؟ امرأة مهما كان وضعها، غالباً ما تكون عجوزاً في عمر أمّه أو جدته، وقد تكون مريضة أحياناً. كيف يمكن لهذا الشاب، بحسب أهوائه، أن يرسل هذه المرأة، التي في عمر والدته، لكي تغسل له قميصه؟

يأتي شاب بخيول من أجل الاستعراض فحسب، ويستعين برجل بعمر والده أو جده وهو في حالة خطرة، لكي يربيها ويعتني بها ما يعرض حياته للخطر، بينما يركب الشاب حصانه بعد زوال الخطر. كيف يمكن لهذا الشاب أن يتجنب الخطر، وفي الوقت ذاته يعرّض شخصاً آخر لهذا الخطر من أجل متعته؟

إن حياة طبقات الأغنياء تتضمن سلسلة طويلة من هذه السلوكيات. الأعمال التي تفوق طاقة الشيوخ والأولاد والنساء، والمتزامنة مع خطورة على حياتهم، ينجزونها لنا ليس بوصفها مساعدة لنا في العمل، بل تلبية لأهوائنا وملء حياتنا. يغرق الصيادون وهم يصطادون لنا الأسماك، وتمرض عاملات الغسيل وربما يمتنَ بسبب نزلات البرد، ويفقد الحدادون بصرهم، ويمرض العاملون في المصانع، وتتسبب الآلات في تدهور صحتهم، وتسحق الأشجار المتساقطة الحطابين، ويسقط العمال من الأسطح، وتفقد الخياطات قواهنّ. كلّ هذه الأعمال تجري بفقد الحياة وبخطورتها. لا يمكن التغاضي عن هذه الحقيقة. الخلاص والمخرج الوحيد من هذه الوضعية هو في توقف الإنسان في عصرنا عن تسمية نفسه، وفقاً لرؤيته الخاصة، جباناً ووغداً، فلا يثقل كاهل الآخرين بالعمل، ويعرّض حياتهم للخطر، وأن يأخذ منهم ما هو ضروري لحياته فحسب، وأن يقوم هو نفسه بعمل حقيقي يعرضه لخطر الحياة وفقدها.

سيأتي هذا الوقت قريباً، وهو قادم حقاً، عندما يصبح مخجلاً ومعيباً ليس تناول الغداء المؤلف من خمسة أطباق حضرها الخدم فحسب، بل المخجل هو تناول أي غداء بسيط لم يطبخه أصحاب المنزل بأنفسهم. سيكون معيباً ليس الركوب على عربات الخيول فحسب، بل سيصبح معيباً حتى ركوب العربات بالأجرة عندما يمتلك الشخص رجلين، وارتداء ألبسة وأحذية وقفازات فاخرة، في أيام الأسبوع، لا تدلّ على أن صاحبها يعمل، وسيصبح معيباً تقديم الحليب والخبز الأبيض للكلاب بوجود أناس ليس لديهم خبز وحليب، وإشعال المصابيح والشموع دون الحاجة إلى إضاءتها، وتشغيل المواقد التي لا تطهو الطعام، بوجود أناس ليس لديهم تدفئة وطعام. نحن نسير حتماً وبسرعة نحو نظرة الحياة هذه. نحن نقترب من هذه الحياة الجديدة، وتشكُّلُ هذه النظرة الجديدة هو مسألة رأي عام. إنَّ الرأي العام، الذي يؤكد هذه النظرة للحياة، يتطور بسرعة.

النساء يصنعنَ الرأي العام، والنساء هنَّ الأقوى في عالمنا.

النساء يقدنَ البشرية إلى الخلاص

كما هو مكتوب في الكتاب المقدس، هناك قانون للنساء، وقانون للرجال. قانون الرجال هو العمل، وقانون النساء هو ولادة الأطفال. ورغم أننا «غيرنا كل هذا» كما تقول إحدى شخصيات موليير، يبقى قانون الرجال، كما هو قانون النساء، ثابتين، كالكبد في مكانه، ومخالفتهما تؤدي إلى الموت حتماً. الفرق هو أن الخروج عن قانون الرجال نتيجته الاندثار في الوقت القريب الذي يمكن تسميته بالحاضر. أمّا الخروج عن قانون النساء فيُحكم عليه بالاندثار في وقت بعيد. الخروج عن قانون الرجال يقضي على حياة الناس في الوقت الحالي، أما الخروج عن قانون النساء فيقضي على الأجيال القادمة. مخالفة بعض الرجال والنساء للقانون لا تقضي على الجنس البشري، بل تمنع فحسب من يتخلّف عن الطبيعة العقلية للإنسان. إن الخروج عن قانون الرجال بدأ منذ زمن بعيد عند تلك الفئات، التي استطاعت أن تمارس القوة على الآخرين والتوسع، واستمر هذا حتى وقتنا الحالي؛ حيث وصلنا في وقتنا الحالي إلى مستوى جنوني من الخروج عن القانون يتجسّد في شخصية صاحب السمو الأميري بلوخين ورينان[1]، وكلّ العالم المثقف: ستعمل الآلات بينما يستمتعون هم بعمليات شد أعصاب البطن.

1 أرنست رينان (1823 - 1892) مؤرخ وكاتب فرنسي اشتُهِر بترجمته يسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقداً تاريخياً علمياً، وإلى التمييز بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس، ما أدّى إلى قيام الكنيسة الكاثوليكية بمعارضته.

لم يحدث تقريباً أيّ خروج عن قانون النساء، وجرى التعبير عن هذا الخروج في الدعارة وفي حالات خاصة في جرائم القضاء على الخصوبة. طبقت النساء في أوساط الأغنياء قانونهنّ، في حين لم يطبق الرجال قانونهم، ما أعطى القوة للنساء، وهنّ يتابعن ممارسة السلطة، ويجب أن يمارسنَها على الرجال المتخلّفين عن قانونهم، الذين فقدوا عقولهم نتيجة لذلك. يقولون عادةً إن المرأة (المرأة الباريسية التي ليس لديها أطفال بشكل خاص) أصبحت فاتنة جداً، وهي تستخدم كل وسائل الحضارة، وبفتنتها هذه أصبح الرجل مُلكاً يتبع لها. هذا ليس غير صحيح فحسب، بل مناقض للحقيقة تماماً. ليست المرأة، التي لا تنجب، هي من تحكّمت في الرجل، بل تلك الأم التي طبقت قانونها، عندما ترك الرجل قانونه. تلك المرأة التي تلجأ إلى العمليات لكي لا تنجب، وتفتن الرجال بكتفيها العاريين وشعرها الاصطناعي، هي لا تتحكم في الرجل، بل هو من أفسدها، فهبطت إلى مستوى أدنى من فساده؛ حيث تخلفت هي عن قانونها، كما هو متخلّف عن قانونه، وفقدت معنى الحياة الرشيدة. ينتج عن هذا الخطأ تلك الحماقة المدهشة التي تسمّى حقوق المرأة. صيغة هذه الحقوق هي كما يأتي: تقول المرأة: أنت أيها الرجل، تركت عملك الحقيقي، إذاً كيف تريدنا أن نحمل -نحن النساء- عبء عملنا الحقيقي؟ لا، ليس كذلك، نحن -النساء- مثلكم، لدينا القدرة على أداء تلك المهمات التي تؤدونها أنتم، في المصارف والوزارات والجامعات والأكاديميات. نحن نريد، مثلكم، وتحت مظلة قانون تقسيم العمل، أن نستعين بعمل الآخرين، ونعيش من أجل هوانا فحسب. يقلنَ هذا، ويثبتنَ عملياً أنهنّ قادراتٌ على أداء هذه الأعمال ليس كما يؤديها الرجال فحسب، بل أفضل منهم.

حدثت واستطاعت أن تحدث ما تسمى قضية حقوق المرأة في أوساط الرجال المتخلّفين عن أداء واجبهم الحقيقي فحسب. يتعيّن عليهم العودة إلى هذا الواجب، وسوف تختفي هذه القضية تماماً. المرأة، التي لديها عملها الخاص والحتمي، لن تطلب المشاركة في عمل الآخرين، في المناجم والزراعة. هي تطلب المشاركة فقط في العمل الظاهري الذي يؤديه الرجال الأغنياء.

كانت المرأة هي الأقوى في طبقتنا، وهي أقوى الآن، لكنّها لم تقم بهذه الأعمال الفريسية[1]، التي يقوم بها الرجال، بسبب فتنتها وبراعتها، بل لأنها لم تتخلّف عن قانون عملها، وتحمّلت أعباءه مع خطر على حياتها وتوتر شديدين، كما خرج الرجال الأغنياء عن قانون عملهم، حين حرروا أنفسهم من العمل. أتذكّر كيف تخلّفت النساء عن عملهنّ؛ أي سقوطهن، وأتذكر أنّ هذا السقوط استمرّ أكثر وأكثر. اقتنعت المرأة، عندما أضاعت قانونها، بأنّ قوتها في الفتنة وسحرها، أو في تظاهرها الفريسي، تجعلها تؤدي أعمالاً فكرية. يمثّل الأطفال عائقاً أمامها في كلتا الحالتين. كما أذكر، ظهرت، بمساعدة العلم، عشرات الوسائل، في أوساط الأغنياء، للقضاء على الخصوبة. تتمسك النساء الأمهات، من الطبقات الغنية، وحدهنّ بالسلطة في أيديهنّ، ولا يتركنها لكي لا ينزلنَ إلى مستوى فتيات الشوارع، ويُقارنَّ بهنّ. ينتشر الشرّ بسرعة، وفي كلّ يوم يتوسّع انتشاره، وسيشمل قريباً كلّ نساء الطبقات الغنية، وسيصبحنَ حينها في مستوى الرجال، وسيفقدنَ معهم معنى الحياة الرشيدة. لكن مازال هناك بعض الوقت.

---

1 تمت الإشارة إلى الفريسيين سابقاً، وهم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين. يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية، ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين. يؤخذ عليهم التمسك بالألفاظ دون المعاني. ولعلّ الكاتب يقصد هنا أنّ هذه الأعمال التي يؤدّيها الرجال هي ظاهريّة، وليست أعمالاً حقيقية.

لو تدرك النساء أهميتهنَّ وقوتهنَّ، لاستخدمنَهما في إنقاذ أزواجهنَّ وإخوتهنَّ وأطفالهنَّ، وفي إنقاذ جميع الناس. إنّ خلاص كلّ الناس في عصرنا من تلك الشرور، التي يعانون منها، يكمن في أيادي تلك النساء الأمهات من الطبقات الغنية.

ليست تلك النساء المشغولات بخصورهنّ وبالمنافج[1] وبقصات شعرهنّ وفتنتهنّ من أجل الرجال، بما يخالف إرداتهنّ، وبالمصادفة، مع شعور باليأس، ينجبنَ الأطفال ويسلّمنَهم للمربيات، ولا هؤلاء اللاتي يذهبنَ إلى الدورات، ويتحدّثنَ عن المراكز النفسية والتمايز، ويسعين أيضاً للهروب من إنجاب الأطفال، لكي لا يعقنَ حماقتهنَّ التي يسمينَها التطوّر، بل تلك النساء الأمهات اللواتي لديهنّ فرصة للتهرّب من إنجاب الأطفال، ولكنهنّ يخضعنَ بوعي وإضرار إلى القانون الثابت، وهنّ يدركنَ أن صعوبة وعبء هذا الخضوع يمثّل معنى حياتهنّ. وخلاص الناس في عصرنا من تعاستهم المحبطة يكمن في أيادي هؤلاء النساء والأمهات، أكثر من أيّ أحد آخر. أيّتها النساء والأمهات اللاتي تخضعنَ بوعي لشريعة الله؛ أنتنّ الوحيدات اللاتي تعرفنَ، في محيطنا البائس المشوّه الفاقد لصورته البشرية، المعنى الحقيقي الكامل للحياة وفق شريعة الله، وأنتنّ وحدكنّ توضحنَ مثالاً عملياً للآخرين بأنّ سعادة الحياة هي في الامتثال لشريعة الله التي يحرمون أنفسهم من تطبيقها. أنتنّ فحسب اللاتي تعرفن أنّ البهجة والسعادة، التي تأسر كلّ الكائنات، هي في ذلك النعيم الموهوب لكلّ من لا يتخلّف عن شريعة الله. أنتنَّ تعرفنَ أنّ سعادة حبّ الزوج هي سعادة دائمة لا تنتهي، مثل أيّ سعادة أخرى، وهي تمثّل أساس السعادة الجديدة، وهي حبّ الأولاد.

---

1 المنفجة هي قطعة ملابس نسائية. انتشر لبس المنفجة في أواسط إلى أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا، وكانت تلبس عادة تحت التنورة وفي الخلف، وتخدم كالحشوة في رفع مؤخرة الثوب عن الأرض.

أنتنَ فحسب، عندما تكنّ بسيطات وخاضعات لإرادة الله، تعرفنَ أنَ العمل الحقيقي ليس هو ذلك الهزل الاحتفالي في الصالات المضيئة، الذي يسميه رجال طبقتنا عملاً، بل هو ذلك العمل الحقيقي الذي فرضه الله على البشر، وتعرفنَ الثواب عليه، والنعيم الذي يجلبه. أنتنَّ تعرفنَ سعادة الحبّ بعد القلق والخوف والأمل؛ تلك المشاعر التي تنتظرنَ معها وضع الحمل، الذي يجعلكنّ مريضات لتسعة أشعر، ويأخذكنّ إلى حافة الموت مع آلام لا يمكن احتمالها. أنتنّ تعرفنَ ظروف العمل الحقيقي عندما تنتظرن بفرح اقتراب وتضاعف الآلام الفظيعة، التي يأتي بعدها نعيم لا أحد يعرف طعمه إلا أنتنّ. أنت تعرفين أنه بعد كلّ هذه الآلام، من دون راحة أو توقف، تنتقلين إلى سلسلة أخرى من الجهود والمعاناة، وهي الرضاعة والعناية، التي تتحكمين فيها بمشاعرك، وتقاومين أقوى حاجة بشرية، وهي النوم، وهي، وفقاً للمقولة، أغلى من الأب والأم، وتقضين الشهور والسنين وأنتِ لا تنامين ليلة كاملة، وأحياناً، بل غالباً، تسهرين الليل بطوله، وأنتِ تمشين جيئةً وذهاباً، تحملين في يديك المرهقتين طفلاً مريضاً يتقطع قلبكِ على ألمه. عندما تفعلين هذا من دون الحاجة إلى موافقة أيّ أحد، ودون أن يراكِ أحد، ولا تنتظرين ثناءً أو مكافأة عليه من أحد، عندما تقومين بكلّ هذا ليس مأثرةً، بل تطبيقاً لمثال ذُكر في الإنجيل، القادم من الأرض، وترَين أنّ ما فعلتِه هو واجبكِ، حينها ستعرفين أنّ العمل الاحتفالي الزائف لمجد الناس فحسب، وأنّ التطبيق الحقيقي لإرادة الله المشار إليه، هو ما تشعرين به في قلبك. أنتِ تعرفين أنكِ إذا كنتِ أماً حقيقية فإنّ أحداً لن يرى جهدكِ ولن يثني عليكِ، بل سيرى أنّ كونك أماً ضروري فحسب، ولكن حتى هؤلاء الذين تتعذّبين من أجلهم، ليس لا يشكرونكِ فحسب، بل إنّهم غالباً يعذبونكِ ويوبخونك. تفعلين الشيء ذاته مع الطفل التالي: تعانين، وتبذلين من جديد جهداً رهيباً وغير مرئي، ومن جديد، لا تنتظرين مكافأة من أحد، وتشعرين بالرضا ذاته.

إذا كنتِ هذه المرأة، فلن تقولي: لا، بعد ولادة طفلكِ الثاني أو العشرين، لأنكِ لم تعودي راغبة في الولادة، كما لن يقول العامل ذو الخمسين عاماً للعملِ: هذا يكفي، عندما هو لا يزال يأكل ويشرب بشكل طبيعي، وعضلاته تطلب العمل. إذا كنتِ كذلك، فلن تحرّري نفسكِ من واجب الرضاعة والعناية بطفلكِ لتقوم به امرأة أخرى نيابة عنكِ، كما لن يسمح العامل بأن يعطي عمله المنتهي، أو الذي شارف على الانتهاء منه، لعامل آخر: لأن هذا العمل يمثل حياتك، وكلما كانت حياتكِ مشغولة وسعيدة أكثر زاد هذا العمل. إذا كنتِ هذه المرأة -لحسن الحظ لاتزال الكثيرات من أمثالكِ موجودات- فإنّ تطبيق قانون إرادة الله، الذي تديرين به حياتكِ، سينعكس على حياة زوجكِ وأطفالكِ وكلّ من حولكِ. إذا كنتِ هذه المرأة وتعرفين أن العمل المتفاني وغير المرئي الذي تؤدّينه بلا مقابل، مع خطورة على حياتكِ وضغوطاتٍ لا حدود لها من أجل الآخرين، فهذا هو فحسب ما يمثل رسالة الإنسان التي تمنحه الرضا، وسوف تنصحين الآخرين بالبحث عن رضاهم من خلال عمل مماثل، وتشجعين زوجكِ على مثل هذا العمل الذي سيصبح معياراً تقيّمين به الآخرين، وتربين أولادكِ عليه.

تلك المرأة فحسب، التي ترى في إنجابها الأطفال حدثاً مقيتاً، سوف تربي أولادها على ملذات الحب ووسائل الراحة والتعليم والمجتمع على أنّها تمثّل معنى الحياة، ستربيهم على أن يتمتعوا بأكبر قدر ممكن من إشباع رغباتهم، وأن يستغلوا عمل الآخرين بأكبر صورة ممكنة: سوف تطعمهم أفضل الطعام، وتلبسهم أجمل الثياب، وتمتعهم بطرق مصطنعة، وتعلمهم ليس لكي يصبحوا مؤهلين للعمل المتفاني والخطير الذي يعايشون فيه توترات كبيرة، بل لكي تبعدهم عن هذا العمل. هذه المرأة فحسب، التي فقدت معنى حياتها، ستشارك في العمل الذكوري الوهمي الزائف، الذي يملك زوجها من خلاله إمكانيّة أن يستغلّ معها جهود الآخرين،

من خلال تحرير نفسه من واجباته. مثل هذه المرأة فحسب سوف تختار مثل هذا الرجل زوجاً لابنتها، وتقيّم الآخرين ليس بما هم عليه، بل بكلّ ما يتعلق بصفات هذا الرجل: مكانته ووضعه المادي وقدرته على الانتفاع من عمل الآخرين.

الأم الحقيقية، التي تعرف عملياً شريعة الله، هي من سوف تربي أولادها على الالتزام بها. ستشعر مثل هذه الأمهات بالألم عندما ترى طفلها يبالغ في طعامه ودلاله ولباسه؛ لأنها تدرك أنّ هذا كله سيصعّب عليه الاستجابة لإرادة الله التي عايشتها الأم. هذه الأم لن تعلّم ابنها أو ابنتها كيف يتحرران من العمل، بل ستعلّمهما ما يساعدهما على تحمل مسؤولية العمل في حياتهما. هي ليست بحاجة إلى أن تسأل ماذا يجب عليها أن تعلّم أولادها وكيف تربيهم: هي تعرف ما الذي يمثل رسالة الإنسان، ومن ثَمَّ هي تعرف ما الذي يجب أن تعلّمه لأولادها وكيف تربيهم. هذه المرأة لن تشجع زوجها على العمل الزائف الوهمي الذي ليس له غاية إلا الاستفادة من عمل الآخرين فحسب، بل ستنظر بريبة وازدراء إلى مثل هذا العمل، الذي يمثّل إغراءً مزدوجاً لأولادها. مثل هذه المرأة لن تختار زوجاً لابنتها بناءً على بياض يديه، وعلى لباقته في التعامل، بل هي تعرف جيداً أن العمل الحقيقي والزائف سيكونان موجودين في كلّ مكان وزمان، وستحترم وتقدّر الرجال، بدءاً من زوجها، وتطلب منهم العمل الحقيقي مع التفاني والخطورة على حياتهم، وتزدري ذلك العمل الاحتفالي الزائف الذي يهدف إلى الهروب من العمل الحقيقي.

هذه المرأة هي نفسها التي تنجب وترضع، وهي نفسها، قبل أيّ أحد آخر، التي سوف تعيل أولادها وتحضّر الطعام لهم، وتخيط وتغسل ملابسهم، وتعلمهم، وتنام وتتحدث معهم؛ لأنها تفترض أن حياتها كلها هي في هذا العمل. هذه المرأة فحسب هي التي لن تبحث عن ضمانات خارجية متمثلة في أموال زوجها وفي شهادات أولادها، بل سوف تعزّز فيهم القدرة على تنفيذ

إرادة الله بإخلاص، تلك القدرة التي جربت هي شعور الالتزام بها، والقدرة على تحمل مسؤولية العمل مع تعرضهم لخطورة على حياتهم وفقدها؛ لأنها تعرف أن في هذا فحسب يتمثل خير الحياة. هذه المرأة لن تسأل الآخرين ما الذي يجب عليها فعله، فهي تعرف كلَّ شيء، ولن تخشى من أيّ شيء.

إذا كانت هناك شكوك عند الرجل أو المرأة غير المنجبة حول هذا الطريق الذي يجري فيه تنفيذ إرادة الله، فإن هذا الطريق محدَّد بوضوح وحزم، وإذا كانت هي خاضعة لهذه الإرادة، ونفَذتها في روحها البسيطة، فإنّها عندما تقف على أعلى نقطةٍ من الصلاح تُمنح للبشر الذين يلتزمون بشريعة الله، ستصبح نجمة يهتدي بها كلّ الناس الذين يسعون إلى الصلاح.

الأم فحسب هي من تستطيع أن تقول بهدوء لمن أرسلها إلى هذه الحياة، ولمن خدمته بولادة وتربية الأطفال الذين تحبّهم أكثر من نفسها، هي فحسب من يمكنها أن تقول بهدوء، بعد أن خدمته بالشكل الذي طلبه منها: «الآن أطلق سراح عبدك». وهذا هو الكمال والصلاح الأسمى الذي يسعى إليه الناس.

هؤلاء النساء اللاتي يؤدِّين رسالتهنَّ هنّ من يتحكّمن في مصائر الرجال، وهنّ من يعدُدنَ الأجيال القادمة، ويشكّلن الرأي العام، ومن ثَمَّ، في أيادي هؤلاء النساء السلطة العليا لخلاص الناس من الشرور القائمة والمهدِّدة لهم في وقتنا الحالي.

أجل، أيتها النساء الأمهات، في أياديكنّ، أكثر من أيّ أحد آخر، خلاص العالم.

انتهى

مكتبة
t.me/soramnqraa

L E O   T O L S T O Y

جدل

ليو تولستوي

ماذا علينا أن نفعل؟

أقدّم إلى القارئ العربي الترجمة الأولى لكتاب تولستوي ماذا علينا أن نفعل؟ وهو أحد الكتب الفكرية المهمّة لتولستوي.
كان تولستوي يسجل أسماء المحتاجين، ويدوّن ملاحظاته حول المساعدات التي يمكن تقديمها لهم، لكي يعود إليهم في ما بعد. وصف تولستوي فظاعة الفقر في المدن، والمسافة الشاسعة التي تفصل بين الفقراء والأغنياء هناك. لم يُعفِ نفسه من المسؤولية، ووصف للقارئ شعورَه بالذنب حول حياة الرفاهية التي كان يعيشها، وأكّد دائماً أنّ الرفاهية المفرطة والفقر المدقع مرتبطان، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ حيث وصل إلى نتيجة مفادها أنّ «ثروتنا» هي أساس الفقر.
يرى تولستوي أنّ المال أصل الشرور، وأنّ هناك جانباً غيرَ أخلاقي في امتلاكه؛ «المال هو شكلٌ جديدٌ من أشكال العبودية».

telegram @soramnqraa

9 789921 774689

JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE.COM